

الأندلس

من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود

(٩١-٨٩٧هـ/٧١٠-١٤٩٢م)

الدكتور عصام محمد شبارو

دار النهضة العربية

الأندلس

من الفتح العربي المرصود
إلى الفردوس المفقود

(٩١ ـ ٨٩٧ هـ/٧١٠ ـ ١٤٩٢م)


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الدكتور عصام محمد شبارو

الأندلس

من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود

(٩١ ـ ٨٩٧ هـ/ ٧١٠ ـ ١٤٩٢م)



رقم الكتاب	: 19133
اسم الكتاب	: الأندلس
المؤلف	: د. عصام محمد شبارو
الموضوع	: تاريخ
رقم الطبعة	: الأولى
سنة الطبع	: 2002 م. 1423 هـ
القياس	: 17 × 24
عدد الصفحات	: 391

منشورات : **دار النهضة العربية**

بيروت – لبنان

الزيدانية – بناية كريدية – الطابق الثاني
تلفون : 736093/743167/743166-1-961+
فاكس : 736071/735295-1-961+
ص ب : 0749 -11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 – لبنان
بريد الكتروني : e-mail:darnahda@cyberia.net.lb

إهداء

إلى أرواح

القادة الفاتحين الأربعة

عقبة بن نافع

موسى بن نصير

طارق بن زياد

عبد الرحمن الغافقي


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

المقدمة

يمثل الوطن العربي الإسلامي، بمشرقه ومغربه، وحدة تاريخية، مهما بعدت بين عواصمه المسافات، وفرقت بين أطرافه المذاهب والسياسات. فالبعد بين المدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة شرقاً وفاس وقرطبة ومراكش غرباً، والفرقة السياسية بين العباسيين في بغداد والأمويين في قرطبة والفاطميين في القاهرة، لم تقف حاجزاً دون اللقاء تحت ظل الحضارة العربية الإسلامية.

ومنذ صغري، كنت شغوفاً بقراءة القصص التاريخية، وفي طليعتها سلسلة روايات تاريخ الإسلام التي وضعها المؤرخ جرجي زيدان المتوفي سنة ١٣٣٣ هـ/ ١٩١٤م. ومنها ثلاث روايات تتعلق بتاريخ الأندلس هي «فتح الأندلس» أو طارق بن زياد، و«شارل وعبد الرحمن»، و«عبد الرحمن الناصر». وترتبط هذه الروايات بتاريخ الأندلس في ثلاث فترات محددة: الأولى استمرت حوالى سنوات (٩١ ـ ٩٧ هـ/ ٧١٠ ـ ٧١٦م)، وتتعلق بالفتح العربي الإسلامي للأندلس. والثانية استمرت نحو خمس عشرة سنة (٩٩ ـ ١١٤ هـ/ ٧١٨ ـ ٧٣٢ م)، وتتعلق بالتوسع العربي الإسلامي في أوروبا بعد فتح الأندلس، ودور القائد عبد الرحمن الغافقي الذي اختاره جرجي زيدان بطلاً لروايته، وكيفية اجتيازه وادي الرون في عمق فرنسا حتى اللوار، قبل أن يسقط في بواتييه سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م، وهي المعركة التي أطلق عليها المؤرخون العرب إسم «بلاط الشهداء»، وانتصر فيها قائد الفرنجة شارل ليعرف منذ ذلك الحين بـ«مارتل» أي المطرقة. والثالثة استمرت زهاء نصف قرن (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١ م)، وتتعلق بعهد عبد الرحمن الثالث الذي توج عهده الطويل بإعلان الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م.

ومن خلال هذه الروايات أدركت أهمية كتابة تاريخ الأندلس، لما يحتويه من الفتح العربي «العجيب» على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير، حتى تحول هذا الفتح إلى ما يشبه الأسطورة، لا تقل عنها صورة القائد العربي عبد الرحمن الغافقي الذي لو لم يهزم في بواتيبه لفتح قارة أوروبا بأسرها. كما أدركت أن المشرق العربي الإسلامي، قد حظي بجانب كبير من اهتمام المؤرخين، وأن القارىء العربي لتاريخ هذا المشرق، يخيل إليه أن الخلافة الأموية غابت إلى الأبد مع سقوطها في دمشق سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م. فإذا بقارىء تاريخ الغرب العربي الإسلامي، يدرك أن هذه الخلافة الأموية استمرت في الأندلس وأصبحت عاصمتها قرطبة، لتعاصر الخلافة العباسية، وعاصمتها بغداد، ولتعاصرهما معاً خلافة فاطمية «شيعية» في القاهرة، تنتظر الفرصة للإطاحة بهما.

ورغم ذلك، فإن مثل هذه القصص، ليست التاريخ الحقيقي للأندلس الذي يجدر كتابته في دقة وموضوعية، تشدنا إليه عظمة الحضارة العربية الإسلامية التي تميز بها نتيجة تطعيمها بزبدة حضارة المشرق العربي الإسلامي عن طريق العلماء والأدباء والفلاسفة وأهل الفن الذين تدفقوا على الأندلس في موجات متتابعة، عززت التواصل المستمر بين المشرق والمغرب. وما زالت الآثار العربية الإسلامية حتى اليوم في إسبانيا، تحكي حكاية الأندلس، هذا «الفردوس المفقود» منذ سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م، وكأنها تطلب المزيد من عناية المؤرخين العرب لإعادة كتابة التاريخ والحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربي بشكل عام والأندلس بشكل خاص، لإظهار مدى تفوق حضارتنا العربية الإسلامية في الأندلس على الحضارة الأوروبية، ومدى الدور الذي قام به الأندلس كحلقة اتصال بين قارتي آسيا وأفريقيا من جهة وبين قارة أوروبا من جهة ثانية، حيث عبرت تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية المتفوقة مضيق جبل طارق إلى قارة أوروبا التي كانت تغط في سبات الجهل وظلمات الانحطاط.

وإذا تفحصنا المصادر العربية المتعلقة بتاريخ الأندلس، فإننا لا نجد مصدراً واحداً يتعلق بهذا التاريخ منذ الفتح العربي الإسلامي سنة ٩١ هـ/ ٧١٠م حتى ضياع الأندلس سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م، وهذا أمر طبيعي، لأن كل مصدر من تلك المصادر يتعلق بالفترة التي عاشها المؤرخ. وأول كتاب وصل إلينا عن تاريخ الأندلس، كتبه المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الحكم في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وعنوانه «فتوح مصر والمغرب والأندلس». وذلك قبل أن يبدأ الأندلسيون أنفسهم بكتابة تاريخهم، مثل كتاب «مبدأ خلق الدنيا» المعروف بتاريخ عبد الملك بن حبيب الألبيري (ت ٢٣٨ هـ/ ٨٥٢ م)، وكتاب «وصف الأندلس» لأحمد بن محمد الرازي المعروف بابن لقيط الكاتب (ت ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م)، وكتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» لأبي بكر محمد القرطبي المعروف بابن القوطية، وكتاب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس» لمؤلف مجهول يبدو أنه توفي بعد قليل من سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١م لأنه يؤرخ لفتح المغرب والأندلس عهد موسى بن نصير ويتوقف عند وفاة الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م، و«كتاب القضاة بقرطبة» لمحمد بن حارث الخشني (ت ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م)، وكتاب «جمهرة أنساب العرب» لأبي محمد بن حزم القرطبي (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م) وهو عن الأسر العربية والبربرية والإسبانية الأصل التي عاشت في الأندلس، ولابن حزم أيضاً كتاب «نَقْطُ العروس في أخبار بني أمية في الأندلس». ويعتبر أبو مروان بن حيان القرطبي (ت ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م) من أهم مؤرخي الأندلس»، وهو بمنزلة الطبري في المشرق العربي الإسلامي، وله كتاب «المقتبس في أخبار بلد الأندلس»، ويتعلق بتاريخ الأندلس منذ الفتح العربي حتى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وهناك مذكرات الأمير عبد الله بن زيري الصنهاجي ملك غرناطة (٤٦٦ ـ ٤٨٣ هـ/ ١٠٧٣ ـ ١٠٩٠ م) الذي انتهى حكمه على يد المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، ونفيه إلى مدينة أغمات جنوب المغرب، حيث وضع مذكراته التي تتضمن معلومات هامة عن عصر ملوك الطوائف.

وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ظهر العديد من الموسوعات الأدبية التاريخية وكتب التراجم التي تساعد في كتابة تاريخ الأندلس. فوضع الفتح بن خاقات الغرناطي (ت ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠ م) كتابي: «قلائد العقيان»، و«مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح الأندلس». كما وضع أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧م)، كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الذي يتضمن تراث الأندلس بين عصري الخلافة الأموية وملوك الطوائف. ووضع الشريف أبو عبد الله محمد الادريسي (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٤ م)، كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ويعرف أيضاً بالروجاري، لأن الملك النورماندي روجر الثاني صاحب صقلية هو الذي طلب منه وضع هذا الكتاب عن العالم المعروف في عصره. أما عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي الشهير بابن صاحب الصلاة (ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م)، فوضع كتاباً في تاريخ دولة الموحدين في المغرب والأندلس سماه «تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، وظهور المهدي بالموحدين». في حين وضع أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي (ت ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م) كتاب «بغية الملتمس في تاريخ علماء الأندلس»، ويتضمن تراجم الملوك وعلماء الأندلس والوافدين إليها حتى وفاته.

وفي أواخر عهد الموحدين الذين وحدوا المغرب والأندلس، وضع عبد الواحد المراكشي (ت ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٤ م)، كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، ويقصد بالمغرب في هذا العنوان «بلاد المغرب والأندلس» معاً، وهو يؤرخ لدولة الموحدين التي عاصرها. ووضع محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الآبار (ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م)، كتاب «الحلة السيراء»، ويتناول فيه أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح العربي الإسلامي حتى وفاته.

وبعد سقوط الأندلس بأسره في يد الممالك المسيحية، باستثناء غرناطة التي بقيت وحيدة طيلة قرنين ونصف (٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٤٩٢ م)،

ظهرت مدرسة جديدة في التأريخ استفادت من المحن والخطوب التي مرت بالمغرب والأندلس، لتتجه اتجاهاً فلسفياً يتعرف على علل الحوادث وأسباب قيام الدول وسقوطها ومظاهر العمران فيها. ورائد تلك المدرسة عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م)، في «مقدمة» تاريخه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر». وهي المقدمة الخالدة التي لم يكتب مثلها أحد من المؤرخين العرب والمسلمين، وتضمنت معلومات عامة عن حضارة المغرب والأندلس وأنظمة الحكم فيها، وتمثل الجزء الأول من تاريخه، في حين تتناول الأجزاء الستة الأخرى أخبار العرب وأجيالهم منذ بدء الخليقة حتى عصره، ثم أخبار البربر ودولهم في بلاد المغرب. ومن رواد هذه المدرسة التاريخية، صديقه ومعاصره الوزير لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م)، وأهم كتبه: «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» الذي يتحدث عن مملكة غرناطة وصفات أهلها وعاداتهم وتاريخ ملوكها. وكتاب «الإحاطة في تاريخ غرناطة»، وهو عبارة عن تراجم ملوك غرناطة وأمرائها وعلمائها وجميع الذين وفدوا عليها، مرتبة أسماؤهم حسب حروف المعجم. وكتاب «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك من شجوم الكلام»، وهو تاريخ عام في ثلاثة أقسام، الأول عن المشرق العربي الإسلامي، والثالث عن المغرب العربي الإسلامي، في حين يعتبر القسم الثاني أول تاريخ شامل للأندلس منذ الفتح العربي الإسلامي حتى وفاته سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م، وقد أضاف موجزاً عن تاريخ الممالك المسيحية في إسبانيا مثل قشتالة وأراغون والبرتغال.

وتأثر أحمد المقري (ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م) بشخصية لسان الدين بن الخطيب، فوضع كتاباً عنه يتناول حياته وإنتاجه، وقد مهد له بتاريخ عام للأندلس، وسماه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»، فأصبح من المصادر الأساسية لدراسة تاريخ الأندلس والمغرب.

أما أول مرجع علمي لتاريخ العرب في الأندلس، فقد ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد المستشرق الهولندي رينهارت دوزي Reinhart Dozy الذي استعان بالمصادر العربية واللاتينية، واختار له عنوان «تاريخ مسلمي إسبانيا» Histoire des musulmans d'Espagne، وهذا المرجع يتناول تاريخ العرب في الأندلس، منذ الفتح حتى عصر ملوك الطوائف. دون إغفال المستشرق الفرنسي ليڤي بروڤنسال Levi - Provencal الذي وضع كتاب «تاريخ إسبانيا المسلمة» Histoire de L'Espagne Musulmane، وهو تاريخ عام للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م.

وازداد اهتمام المؤرخين العرب المحدثين بتاريخ الأندلس، عندما نضج الوعي القومي العربي في الوطن العربي الممتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي. ومع ذلك، فإن أحداً من هؤلاء المؤرخين لم يفرد كتاباً خاصاً بكامل تاريخ الأندلس وحضارته، لأن معظمهم كان يتناول فترة معينة من هذا التاريخ، كما فعل حسين مؤنس عندما وضع كتاب «فجر الأندلس» وكتابه الآخر «سقوط الخلافة الأموية في الأندلس». ومحمد عبد الله عنان عندما وضع كتاب «دولة الإسلام في الأندلس» وكتاب «دول الطوائف» وكتاب «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين». والسيد عبد العزيز سالم عندما وضع «تاريخ مدينة المرية الإسلامية» ثم كتاب «قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس»، وكتاب «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» الذي حدد فترته في العنوان «من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة في قرطبة»، أي حتى سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م. كما وضع أحمد مختار العبادي كتاب «في تاريخ المغرب والأندلس» الذي يبدأ منذ الفتح العربي إلى انتصار المرابطين في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م، ووضع «الصقالبة في إسبانيا». وقبله عبد الحميد العبادي الذي وضع «المجمل في تاريخ الأندلس». ووضع خالد الصوفي كتاب «جمهورية بني جهور»، ومحمود حسن كتاب «قيام دولة المرابطين»، وسعدون عباس نصر الله كتاب «دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد

يوسف بن تاشفين». كما وضع عبد الله علي علام كتاب «الدولة الموحدية بالمغرب»، ويوسف فرحات كتاب «غرناطة في ظل بني الأحمر». دون إغفال كتاب «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» الذي وضعه الأمير شكيب أرسلان، و«تاريخ الأدب الأندلسي» الذي وضعه إحسان عباس، و«الإسلام في إسبانيا» الذي وضعه لطفي عبد البديع، و«الأمويون أمراء الأندلس الأول» الذي وضعه أحمد إبراهيم الشعراوي...

كما أن أحداً من هؤلاء المؤرخين العرب المحدثين، لم يتناول في تاريخ الأندلس، العلاقات بين الدولة الموحدية في المغرب والأندلس عهد أبي يوسف يعقوب المنصور بطل الأرك وبين الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي بطل حطين. وهذه العلاقات هي من أهم الصفحات المشرقة في تاريخ الوطن العربي، وتشير إلى مدى تعاون مشرق ومغرب هذا الوطن، من أقصاه إلى أقصاه، في مواجهة أقوى ملوك الصليبيين.

وإذا كانت المصادر العربية، قد اعتمدت التاريخ الهجري وحده، وهذا أمر طبيعي، يماثل اعتماد المصادر والمراجع الإسبانية والفرنسية على التاريخ الميلادي وحده، إلا إن مثل هذا الاعتماد وحده، لا يعتبر طبيعياً في المراجع العربية التي تعتمد في الكتاب الواحد، التاريخ الهجري على حدة، أو التاريخ الميلادي على حدة، وأحياناً تجمع بينهما، فيضيع القارىءالعربي في هذا الزمن العربي الرديء، وهو لا يرتاح إلا عندما يرى بأم عينيه التاريخين الهجري والميلادي معاً. لذلك اعتمدت التاريخ الهجري في مكان الصدارة، وموقع الأولوية في كتابة تاريخ الأندلس، دون إغفال، ولو لمرة واحدة، ما يقابله في التاريخ الميلادي. مع التأكيد على أن اعتماد التاريخ الهجري، وبخاصة في كتابة تاريخنا العربي الإسلامي، هو واجب قومي حضاري، يندرج في عملية البعث والإحياء للخصائص المميزة لأمتنا العربية، والتي تجعل سحقها قومياً واحتواءها حضارياً أمراً مستحيلاً. كما أن الدافع لتسطير

مضمون هذا الكتاب بكامله بالتاريخ الهجري مع ما يقابله في التاريخ الميلادي، هو حث المؤرخين على كتابة تاريخنا منذ الفتح العربي الإسلامي حتى يومنا هذا، على هذا المنوال. وكان كتاب «التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية» الذي وضعه اللواء محمد مختار باشا (ت ١٣١٥ هـ/ ١٨٩٧ م) خير معين لي في هذا المجال.

وبعد ذلك كله، أفلا يستحق تاريخ الأندلس وحضارته، كتاباً خاصاً، يوجز جميع مراحله منذ بدء الفتح العربي الإسلامي له سنة ٩١ هـ/ ٧١٠م حتى سقوطه النهائي سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢، ومثل هذا التاريخ والحضارة هو صفحة مشرقة في التاريخ العربي الإسلامي، شعت أنوارها نحو قارة أوروبا؟.

ولتحقيق هذا الهدف، وضعت هذا الكتاب، واخترت له عنوان «الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود ٩١ ـ ٨٩٧ هـ/ ٧١٠ ـ ١٤٩٢م»، وهو يتضمن هذه المقدمة، يليها التمهيد وإثنا عشر فصلاً وخاتمة. على أن يكون التمهيد عن «الفتح العربي الإسلامي للمغرب ٢١ ـ ٩٠ هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٠٩ م»، لأن مثل هذا الفتح، هو بالفعل بمثابة تمهيد لفتح الأندلس وبدء تاريخه العربي الإسلامي.

وارتأيت تقسيم تاريخ الأندلس إلى ست مراحل، وزعت عليها الفصول الإثني عشر، وهي:

١ ـ **المرحلة الأولى**: الفتح العربي الإسلامي للأندلس وجعله ولاية تابعة للخلافة الأموية بدمشق (٩١ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٠ ـ ٧٥٦ م). وقد أفردت لها فصلين، هما:

- الفصل الأول: الفتح العربي الإسلامي للأندلس (٩١ ـ ٩٧ هـ/ ٧١٠ ـ ٧١٦م).
- الفصل الثاني: الأندلس ولاية عربية إسلامية تابعة للخلافة الأموية

بدمشق (٩٧ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٦ ـ ٧٥٦ م).

٢ ـ **المرحلة الثانية**: الأندلس إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية (١٣٨ ـ ٣١٦ هـ/ ٧٥٦ ـ ٩٢٩ م). وقد أفردت لها ثلاثة فصول، هي:

- الفصل الثالث: عبد الرحمن الداخل وتأسيس إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية (١٣٨ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٨٨ م).

- الفصل الرابع: العصر الذهبي لإمارة الأندلس عبد الرحمن الثاني «الأوسط» (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢م).

- الفصل الخامس: ضعف السلطة المركزية في قرطبة (٢٣٨ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٥٢ ـ ٩١٢م).

٣ ـ **المرحلة الثالثة**: الخلافة الأموية في الأندلس (٣١٦ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٢٩ ـ ١٠٣١م)، وقد أفردت لها ثلاثة فصول أيضاً، هي:

- الفصل السادس: عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» وتأسيس الخلافة الأموية في الأندلس (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١ م).

- الفصل السابع: سيطرة الحجاب على الخلافة (٣٥٠ ـ ٣٩٩ هـ/ ٩٦١ ـ ١٠٠٩ م).

- الفصل الثامن: سقوط الخلافة الأموية في قرطبة (٣٩٩ ـ ٤٢٢ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠٣١ م).

٤ ـ **المرحلة الرابعة**: عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٨٥م) وهو عنوان الفصل التاسع.

٥ ـ **المرحلة الخامسة**: ضم الأندلس إلى المغرب وعاصمته مراكش (٤٧٩ ـ ٦٤٢ هـ/ ١٠٨٦ ـ ١٢٤٤م)، وقد أفردت لها فصلين، هما:

- الفصل العاشر: المرابطون (٤٧٩ ـ ٥٤١ هـ/ ١٠٨٦ ـ ١١٤٧ م).

• الفصل الحادي عشر: الموحدون (٥٤١ ـ ٦٤٢ هـ/ ١١٤٧ ـ ١٢٤٤م).

٦ ـ **المرحلة السادسة**: إمارة غرناطة وضياع الأندلس النهائي (٦٣٥ ـ ٨٩٧هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٤٩٢م)، وهو عنوان الفصل الثاني عشر والأخير .

وأتمنى، أن يضيف هذا الكتاب، بمقدمته وتمهيده وفصوله الإثني عشر وخاتمته وفهارسه، جهداً متواضعاً، إلى المكتبة العربية الإسلامية.

بيروت في ١٥ شعبان ١٤٢٣ هـ/ ٢٢ تشرين الأول ٢٠٠٢م

عصام محمد شبارو



التمهيد

الفتح العربي الإسلامي للمغرب
(٢١ ـ ٩٠ هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٠٩ م)

إستغرق الفتح العربي الإسلامي للمغرب زهاء سبعين سنة هجرية/ ثماني وستين سنة ميلادية (٢١ ـ ٩٠ هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٠٩ م)، فكان من أصعب الجبهات التي استغرق فتحها زمناً طويلاً، عكس الجبهات الأخرى التي أظهر فيها العرب المسلمون حروبهم الخاطفة والصاعقة التي كانت تهوي أمامها أقوى الجيوش الفارسية والبيزنطية بسرعة، لينتشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية في الشام والعراق ومصر خلال عشر سنوات زمن الخلفاء والراشدين، بينما تأخر انتشاره في المغرب حيث خاض العرب المسلمون أطول الحروب في تاريخهم وهم يواجهون قبائل البربر. ويرجع ذلك إلى عوامل مختلفة من الطبيعة الجبلية الوعرة المسالك إلى سياسة العرب المسلمين إزاء البربر وتدخل الدولة البيزنطية واشتداد المقاومة البربرية، فضلاً عن الأحداث السياسية التي كانت تدور في المشرق العربي الإسلامي، وبخاصة أيام الفتنة الكبرى وانقسام المسلمين، وحتى بعد قيام الدولة الأموية التي شهدت اندلاع الثورات والتنافس حول الحكم.

١ ـ المغرب قبل الفتح العربي الإسلامي

قبل الحديث عن المراحل الثلاث التي مر بها الفتح العربي الإسلامي للمغرب، من مرحلة الغارات والعمليات الاستطلاعية إلى مرحلة الفتح المنظم ثم مرحلة الفتح النهائي، لا بد من إلمامة موجزة بالأوضاع الجغرافية

والتاريخية والاجتماعية التي كانت تميز هذه البقعة الواسعة من شمال إفريقيا، قبل الفتح العربي الإسلامي، لندرك أثرها على مراحل الفتح الثلاث.

(أ) الوضع الجغرافي

أطلق العرب لفظ المغرب على المناطق التي تلي مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسي، وتتوسطه أفريقية. فيذكر ابن حوقل أن المغرب يمتد «من مصر وبرقة إلى أفريقية وناحية تنس إلى سبتة وطنجة»[١]، في حين يجعل المقدسي «حدود المغرب من مصر إلى السوس الأقصى وجزيرة صقلية والأندلس»[٢]، ويدخل اليعقوبي «بلاد برقة من جملة أقاليم المغرب»[٣].

أما لفظ أفريقية Africa، فقد أطلقه الرومان على الولاية الجديدة التي ضمت قرطاجة وما حولها (تونس اليوم)، وهو الاسم الذي عرّب إلى إفريقية، وأطلقه العرب أول الأمر على كل ما يلي إقليم طرابلس غرباً[٤]، ثم تحدد مدلول الإسم في معظم المصادر العربية ليشير إلى الإقليم الذي تتوسطه القيروان ويمتد من طرابلس حتى بجاية[٥].

واتسع مدلول المغرب في العصور الوسطى، فدخلت الأندلس أحياناً في هذه التسمية. وبعد ضياع الأندلس سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م، أصبح يعرف بالمغرب الكبير (تونس، الجزائر، المغرب). وهذا ما اعتمده المؤرخون في تقسيمه إلى ثلاث مناطق على غرار ما فعله الرومان من قبل، ولكنها حملت جميعاً إسم المغرب بحسب قربها أو بعدها عن مركز الخلافة (أدنى، أوسط، أقصى)، وهي:

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٤.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢١٦.
(٣) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٠٢ ـ ٣٤٣.
(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٤٠.
(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، م١ ص ٢٢٨.

- المغرب الأدنى أو أفريقية (تونس وجزء من شرق الجزائر): ويشمل المنطقة الممتدة من طرابلس شرقاً إلى تاهرت أو بجاية غرباً. وكانت العاصمة القيروان زمن الأغالبة، والمهدية زمن الفاطميين، ثم تونس زمن الحفصيين حتى يومنا هذا.

- المغرب الأوسط (الجزائر): ويمتد من تاهرت أو بجاية شرقاً إلى وادي ملوية غرباً، ويعرف الآن، باسم الجزائر. وكانت العاصمة تاهرت زمن الرستميين وتلمسان زمن بني زيان، والجزائر زمن بني فرغنة حتى يومنا هذا.

- المغرب الأقصى (المغرب): ويمتد من وادي ملوية Moulouya شرقاً إلى طنجة على ساحل المحيط الأطلسي[1]، وهو أبعد المناطق عن مركز الخلافة. ويعرف اليوم باسم المغرب (المملكة المغربية)، ويطلق عليه خطأ إسم «مرّاكُش» انطلاقاً من التسمية الفرنسية Maroc، علماً أن هذا الإسم لا يطلق في المغرب إلاّ على مدينة كبيرة تعرف أيضاً بـ «الحمراء» لاحمرار لون منازلها[2]، وهي المدينة التي اتخذت عاصمة بعد فاس حيث تنقلت العاصمة بينهما. فقد كانت العاصمة فاس زمن الأدارسة الذين أسسوها سنة ١٩١ هـ/ ٨٠٧م. وأصبحت العاصمة مرّاكُش زمن المرابطين الذين أنشأوها سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م. وعاصمة المغرب اليوم، هي مدينة الرباط.

وفي جنوب المغرب الأقصى تقع صحراء شنقيط (تعرف اليوم باسم موريتانيا)، وتمتد من الصحراء الكبرى شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، وقد عاش في هذه الصحراء قبائل البربر «الملثمون» من صنهاجة، ومن

---

(١) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١، ص ٣٤ .
(٢) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، . ص ١١ .

هؤلاء البربر «المرابطون» الذين خرجوا منها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وأسسوا دولتهم في المغرب والأندلس. كما جاء من المغرب إلى هذه الصحراء بنو حسان في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وهم من عرب بني هلال، فعرَّبوا تلك المنطقة.

وهذا كله مجرد تقسيم اصطلح المؤرخون عليه لضرورات سياسية وإدارية. والواقع أن هذه المناطق الثلاث تشكل وحدة جغرافية وبشرية تمتد حوالى أربعة آلاف كيلومتر من الشرق إلى الغرب يحيط بها البحر المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غرباً والصحراء الكبرى جنوباً. ويغلب عليها السلاسل الجبلية المتوسطة الارتفاع في سلسلة جبال الريف التي تمتد من المحيط الأطلسي غرباً حتى تلمسان شرقاً، والشديدة الإرتفاع في سلسلة جبال أطلس التي تمتد من المغرب الأقصى إلى المغرب الأدنى. مع الإشارة أن كلمة «الريف» لا تعني فقط سلسلة الجبال المتوسطة الارتفاع، فهي تطلق ايضاً في المغرب على الأراضي التي تحف بالبحر المتوسط أو المحيط الأطلسي. بينما تشير هذه الكلمة في مصر إلى الأراضي الخصبة على ضفتي نهر النيل[١].

وهذه الطبيعة الجبلية انعكست على السكان الذين عرفوا بالشدة والصلابة في مواجهة الفتح العربي الذي واجه بدوره حضارة منعزلة منطوية على نفسها ومحافظة على أصولها، فرضتها طبيعة البلاد التي سكنها عنصر بشري واحد من السكان[٢].

---

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢ .

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص٩٨.

André Julien: Histoire de l'Afrique du Nord, P. 49.

المغرب العربي الكبير

(ب) أصل السكان «البربر»

البربر هم السكان الأصليون للمغرب، ويمثلون الأكثرية التي انتشرت في الحواضر (المناطق الشمالية) وتعمل في الزراعة والصناعة، وفي الصحاري والواحات حيث تعتمد على الرعي والسلب.

ولفظ بربر من Barbari أطلقه الرومان على سكان المغرب باعتبارهم غرباء على حضارتهم، كما أطلقوا اسم المورة Maures على سكان مورطانية (طنجة)[1]، وأصبح هذا الإسم يطلق على البربر أولاً، ثم صار كلمة عامة تعني المسلمين. والبربر في اللغة العربية يعني اختلاط الأصوات غير المفهومة، فلما فتح العرب بلاد المغرب تعجبوا من تنوع واختلاط أصوات السكان، فسموهم البربر.

وهكذا تعتبر كلمة «بربر» دخيلة على هؤلاء السكان الذين كانوا يسمون قديماً «امازيغ»، وهي كلمة بربرية تعني الرجل الحر الخشن. وكان لكل قبيلة منهم اسمها الخاص بها، وكذلك تختلف اللهجات بين منطقة وأخرى.

ويختلف المؤرخون حول أصل البربر إن كان حامي أو سامي أو خليط من الإثنين، وإن كانوا من العرب أو الأوروبيين. ويرجع المؤرخون العرب[2] أصل البربر إلى الأصل العربي السامي من الجد قيس عيلان حيث عاشوا، مثل العرب، حياتهم القبلية وانقسموا إلى قبائل وبطون، وكما انتظمت القبائل العربية في قحطان وعدنان، انتظم البربر في البتر والبرانس، كل ذلك ليثبت هؤلاء المؤرخون هوية البربر العربية، فنسبوهم إلى فرعين كبيرين:

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ٢١.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، في تاريخ العرب والبربر جـ ٦ ص ٨٩.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٣٦.

- البتر: وهم سكان البادية، يعيشون من الرعي والتنقل والغزو. وينقسمون إلى أربع قبائل هي: ضرية، أداسة، نفوسة، لواتة. وتنقسم ضرية بدورها إلى مكناسة وزناتة، ومن زناتة بطون: جراوة، مغراوة، يفرن، زيان، ومرين.
- البرانس: وهم سكان الحضر المتأثرين بالحضارة اللاتينية منذ الاحتلال الروماني ـ البيزنطي، ويتوزعون على سبع أو عشر قبائل هي: أوربة، صنهاجة، كتامة، مصمودة، عجيه، اوريغه، ازداجه، (لمطه، هسكورة، جزولة)[1]. وتعتبر صنهاجة أكبر هذه القبائل وأكبر فروعها زناجة ثم بنو زيري بن مناد، والملثمون (المرابطون) ويعرفون اليوم باسم الطوارق أو التوارقة، ولمتونة، وجدالة، ومسوقة.

والحقيقة أن قبائل البتر والبرانس عاشوا حياة متشابهة في ظروف طبيعية واحتلالية واحدة، قبل الفتح العربي الإسلامي. وكان معظمهم من سكان البادية، بينما الحضر منهم يمثلون الأقلية التي اندمجت مع الغزاة المحتلين الذين أسسوا المدن والحصون، وبخاصة على الساحل، منذ أيام اليونان والرومان حتى البيزنطيين. لذلك لا يمكن في الواقع نعت البتر والبدو والبرانس بالحضر، لأن البدو والحضر يوجدان معاً بين قبائل الفرعين الكبيرين.

ومهما يكن، فإنه لا يمكن إغفال التأثير الفينيقي، فقد شهدت هذه البلاد التوسع الفينيقي التجاري منذ القرن الثاني عشر ق. م، وتأسيس مستعمرات ساحلية بهدف التجارة مع السكان الأصليين من البربر الذين يعيشون في المناطق الداخلية الصحراوية والجبلية، دون التفكير بالسيطرة السياسية أو

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، في تاريخ العرب والعجم والبربر جـ ٦، ص ٩٠.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٣١.

العسكرية. وحوالى سنة ٨٠٣ ق. م، أسس الفينيقيون مستعمرة قرطاجة (على ساحل تونس) ونشروا لغتهم بين البربر الذين يعيشون حول مستعمرتهم وعلموهم الصناعة والزراعة[١]، وأطلقوا عليهم كلمة آفري AFRI، في حين أطلق اليونان هذا الاسم أيضاً على سكان شمال أفريقيا.

واستطاعت قرطاجة أن تسيطر على شمال أفريقيا وجنوب إسبانيا طيلة خمسة قرون متتالية، لتتحول سيطرتها التجارية إلى سيطرة سياسية وعسكرية. وهذا ما جعلها تدخل في صراع حربي مع دولة روما التي تسعى لجعل البحر المتوسط بحيرة إيطالية، فنشبت بينهما الحروب البونية أو الفينيقية[٢]، الأولى (٢٦٤ ـ ٢٤١ ق. م) والثانية (٢١٨ ـ ٢٠٢ ق. م) والثالثة (١٥١ ـ ١٤٦ ق.م) لتنتهي بانتحار القائد القرطاجي هنيبعل وتدمير قرطاجة عن آخرها وحرقها وبيع سكانها كرقيق سنة ١٤٦ ق. م. وبذلك دخل المغرب تحت سيطرة الرومان ثم الوندال فالبيزنطيين، لتظهر فئة جديدة من السكان إلى جانب البربر حملت اسم «الأفارقة»، والأفارقة هم خليط من بقايا الشعب القرطاجي الذي فقد استقلاله سنة ١٤٦ ق. م، ومن المحتل الروماني ثم البيزنطي، ومن بعض البربر الذين دخلوا في طاعة هذا المحتل وتأثروا بحضارته[٣].

(جـ) تحت الحكم الروماني ـ البيزنطي (١٤٦ ق. م ـ ٧٠٩ م)

مع السيطرة الرومانية في المغرب (١٤٦ ق. م ـ ٤٠٩ م) أخذ الرومان كلمة Afri واشتقوا منها كلمة أفريقيا Africa، وأطلقوها على ولايتهم الجديدة التي ضمت قرطاجة وما حولها (تونس). ثم بسطوا نفوذهم على ساحل شمال

---

(١) Henri Terrasse: Histoire du Maroc. V1 P. 46.

(٢) عبد اللطيف أحمد علي: روما، جـ ١ ص ٩٤.

(٣) إبن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٣٤.

أفريقيا، فاتسعت سلطتهم وقسموا المغرب إلى ثلاث ولايات:

- أفريقيا Africa (أي تونس).
- نوميديا Numide (شرق الجزائر).
- موريتانيا Mauretaine (غرب الجزائر وشمال المغرب). وسنة ٤٢م قسم الرومان موريتانيا إلى ولايتين: موريتانيا القيصرية غرب المغرب الأوسط وفيها وهران Oran وموريتانيا الطنجية شمال المغرب الأقصى وتشمل: طنجة Tingi وتمودا Tamuda وسلا Sala ثم وليلي Volubilis.

وقد ربط الرومان هذه الولايات ومدنها المتعددة بشبكة من الطرق المعيدة، وأقاموا الحصون والأبراج والخنادق والأسوار لحماية السواحل. ومنذ أواخر القرن الثالث الميلادي، أخذت المسيحية تنتشر وبصورة خاصة في طنجة ووليلي.

ثم سيطر الوندال على المغرب (٤٢٩ ـ ٥٣٣ م)، وهم من قبائل «التيوتون» الجرمانية التي خرجت من شواطىء البلطيق وأراضي الراين والدانوب. وقد هاجر الوندال إلى جنوب إسبانيا سنة ٤٠٩ م، ثم تخلوا عنها أمام ضغط القوط الغربيين، وهم من القبائل الجرمانية أيضاً، وعبروا المضيق بقيادة جنسريك Genserie سنة ٤٢٩م، وسيطروا على المغرب بأسره بعد انسحاب الرومان سنة ٤٣٩ م.

وبقيام الدولة البيزنطية، أرسل الإمبراطور جستنيان قائده بليزاريوس Belisarios، فأنهى حكم الوندال في المغرب سنة ٥٣٣م، وأطلق على هذه الولاية اسم Africa وعاصمتها قرطاجة، وتشمل المنطقة الممتدة من برقة غرب مصر حتى ساحل المحيط الأطلسي. وقد عين عليها حاكماً عاماً يقيم في قرطاجة يدعى سولومون Solomon (٥٣٤ ـ ٥٣٦م) و(٥٣٩ ـ ٥٤٣م)، وله

السلطة العليا على الأقاليم[1] التي أوجدها الامبراطور لإحكام قبضته على المغرب، وهي: زيجتيان (ومركزها قرطاجة) وبيزانسين Byzancène في الداخل، وطرابلس Tripolitaine، ونوميديا Numide، وموريتانيا الأولى Mauretaine (ومركزها سطيف بالجزائر) وموريتانيا الثانية أو موريتانيا القيصرية (ومركزها شرشال Cesarea). أما موريتانيا الطنجية ومركزها سبتة، فكانت قبل الفتح العربي الإسلامي تتبع دولة القوط الغربين في إسبانيا. ولحماية هذه الأقاليم من أي هجوم مفاجىء، عملت الدولة البيزنطية على تقوية النظام الدفاعي، فقسمتها إلى أربع مناطق حربية هي: لبدة Leptis Magna في طرابلس، وقفصة وسيرت Cirta في نوميديا، وشرشال في موريتانية. وكان يتولى كل منطقة من هذه المناطق قائد يدعى «دوق». كما أوجدت جيشاً دائماً في البلاد يتولاه قائد أعلى بيزنطي Magister Militum، يعاونه قائد للمشاة وآخر للفرسان. وقد أقام البيزنطيون في عهد سولومون خطاً دفاعياً عسكرياً يدعى ليمس Limes يمتد على طول الطريق الساحلية من المحيط الأطلسي غرباً حتى طرابلس شرقاً، وهو مليء بالحصون والأسوار والأبراج.

كان المغرب تحت الحكم البيزنطي طيلة مائة وتسع سنوات (٥٣٣ - ٦٤٢ م)، عندما بدأ الفتح العربي الإسلامي سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢ م. وعرف الديانة اليهودية مع التجار اليهود، وانتشرت المسيحية منذ أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع للميلاد بين سكان الحضر من البربر الذين يعيشون في المناطق الساحلية، في حين انتشرت الوثنية بين البربر البدو الذي يعيشون في البوادي والصحارى والجبال. ومع ذلك لم تتغلغل هذه الديانات عميقاً في

---

(١) كان عدد الأقاليم سبعة، وكانت جزيرة سردينيا تتبع ولاية أفريقية.
André Julien: Histoire de l'Afrique du Nord, P. 260.

نفوس البربر الذين احتفظوا أيضاً باللغة الفينيقية السامية التي لم تستطع اللغات اللاتينية واليونانية أن تمحوها، علماً أن الشبه كبير بين اللغتين الفينيقية والعربية. كما اتبع الولاة البيزنطيون سياسة تعسفية بفرض الضرائب الكبيرة على السكان حتى يتمكنوا من تعويض ما دفعوه من المال الوفير لشراء منصب حاكم الولاية، وقاموا بتطبيق سياسة فرق تسد بين البربر البرانس والبربر البتر، فأوقعوا بينهم حتى لا يقوموا بالثورات ضدهم.

ولعل هذا كله، سهَّل اجتذاب سكان المغرب نحو الإسلام والعروبة عند قدوم الفتح العربي الإسلامي تخلصاً من الحكم البيزنطي(١). وقد بدأ هذا الفتح بمرحلة الغارات والحملات الاستطلاعية.

٢ ـ الغارات والحملات الاستطلاعية (٢١ ـ ٤٨ هـ/ ٦٤٢ ـ ٦٦٨ م)

يمكن تقسيم مرحلة الغارات والحملات الاستطلاعية، من حيث سير الحملات وتوقفها، إلى فترتين، فاستمرت الفترة الأولى سبع سنوات (٢١ ـ ٢٨ هـ/ ٦٤٢ ـ ٦٤٨ م)، استطاع خلالها عمرو بن العاص فتح برقة وطرابلس الغرب، ووصل عبد الله بن سعد إلى سبيطلة، وذلك في زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما. ثم توقفت الغارات والحملات الاستطلاعية نحو المغرب، طيلة ثلاث عشرة سنة (٢٨ ـ ٤١ هـ/ ٦٤٨ ـ ٦٦١م)، بسبب الفتنة الكبرى التي عصفت بالدولة العربية الإسلامية. لتبدأ بعدها الفترة الثانية التي تطلبت سبع سنوات أيضاً (٤١ ـ ٤٨ هـ/ ٦٦١ ـ ٦٦٨ م)، وذلك منذ تنازل الحسن بن علي عليه السلام عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ/ ٦٦١ م. فاستؤنف بث السرايا والحملات الاستطلاعية بقيادة عقبة بن نافع، ثم بقيادة معاوية بن خديج الكندي.

---

(١) André Julien: Histoire de l'Afrique du Nord, P. 275.

(أ) حملة عمرو بن العاص (٢٢ ـ ٢٣ هـ/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤ م)

امتدت الدولة العربية الإسلامية زمن الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الشام والعراق ومصر. ومثلما كان فتح الجزيرة ضرورة عسكرية لتأمين فتوحات الشام والعراق من الخطر البيزنطي ـ الفارسي، كذلك كان فتح برقة وطرابلس[١] ضرورة عسكرية لتأمين حدود مصر الغربية من الخطر البيزنطي القائم في المغرب الذي كان يعرف بولاية أفريقية. وكانت برقة وطرابلس تابعتين لولاية أفريقية البيزنطية ثم لمصر منذ أواخر القرن السادس للميلاد. كما أنهما يعتبران امتداداً طبيعياً لمصر ومعظم سكانهما من البربر الناقمين على البيزنطيين بسبب المظالم وجباية الضرائب الباهظة، وزاد من سخطهم أخبار الفتوحات العربية الإسلامية في الشام والعراق ومصر. وهذا ما شجع عمرو بن العاص بعد فتحه مصر (١٨ ـ ٢١ هـ/ ٦٣٩ ـ ٦٤٢ م) على تنفيذ سياسته الرامية إلى الزحف غرباً.

زحف عمرو بن العاص من الإسكندرية، متخذاً الطريق الساحلي، فلم يلق مقاومة تذكر في دخول برقة ومصالحة أهلها من قبيلة لواتة البترية على جزية مقدارها دينار عن كل شخص بالغ[٢]، وقيل مقابل ثلاثة عشر ألف دينار، على أن يبيع هؤلاء من أرادوا من أبنائهم ليتمكنوا من دفع الجزية[٣]، مما يدل على أن بيع الأبناء (الذراري) كان أمراً شائعاً لدى البربر في ذلك الوقت.

وتابع عمرو بن العاص زحفه نحو الطريق الساحلي حتى وصل

---

(١) كانت برقة تعرف زمن اليونان بـ «بنطابوليس» Pentapolis أي المدن الخمس، ثم حرِّفت إلى «أنطابلس». أما طرابلس فعرفت بـ Tripolis أي المدن الثلاث.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٨.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٢٢٩.
البلاذري: فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٦٤.
البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب. ص ١١.

طرابلس، فحاصرها مدة شهر بعد أن امتنعت عليه لتحصنها داخل أسوارها جنوباً وشرقاً وغرباً وإحاطة مياه البحر المتوسط بها شمالاً. ثم انتهز فرصة وقوع حركة الجزر وانحسار مياه البحر، مما أحدث ثغرة جهة البحر حيث لا وجود للأسوار، فدخل طرابلس وصالح أهلها بعد أن رحل البيزنطيون عنها بالسفن سنة ٢٢ هـ/٦٤٣ م. ثم افتتح سبرة (سرت) Sabrata بدون قتال، فكانت آخر مدينة ساحلية وصلها العرب ذلك الوقت. وفي تلك الأثناء، كان عمرو بن العاص قد بعث عقبة بن نافع نحو الطريق الداخلي بين برقة وزويلة لافتتاحَ الواحات حتى لا تتحول إلى أماكن تجمع للمقاومة البربرية فتقطع طريق العودة عليه، فافتتح فزان ثم زويلة في الجنوب قرب بلاد السودان. كما بعث بسر بن أرطأة، فافتتح واحة ودان سنة ٢٣/ ٦٤٤م[١].

وتحولت برقة قاعدة للجيوش العربية الإسلامية غرب مصر. وأصبح بالإمكان متابعة الزحف منها نحو المغرب حتى المحيط الأطلسي. وهذا ما كان يهدف إليه عمرو بن العاص بعد القضاء على غريغوريوس الحاكم البيزنطي على ولاية أفريقية (المغرب)، ولكنه اصطدم برفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمتابعة الزحف في المغرب والاكتفاء بما وصل إليه من الفتح في هذه المنطقة التي وصفها بقوله: «إنها ليست بأفريقية ولكنها المفرّقة، غادرة، مغدورة بها، لا يغزوها أحد ما بقيت»[٢]. مما يعني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان على معرفة تامة بالطبيعتين الجغرافية والبشرية للمغرب وبصعوبة الفتح. وكان على حق فإن فتح المغرب لم يتم إلا بعد حوالي سبعٍ وستين سنة من مقتله سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٤ م.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٢٣٠، ٢٣١؛
البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١ ص ٢٦٥، ٢٦٦.
البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ١٠، ١٢.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٦٦؛
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١، ص ٨.

وعاد عمرو بن العاص إلى مصر، بعد أن عين عقبة بن نافع حاكماً على برقة وطرابلس وما تم فتحه، وأخذ يدعو أهلها البربر إلى الإسلام، فأسلم الكثير من قبائل لواته ونفوسه.

(ب) حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح (٢٧ ـ ٢٨ هـ/ ٦٤٧ ـ ٦٤٨ م)

تولى الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه أواخر سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٤م، وعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر، وعين مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٤ هـ/ ٦٤٥م، فأخذ يستعد لفتح المغرب. بينما كان غريغوريوس بن نيكيتاس (جرجير) قد استقل بولاية أفريقية، ولقب نفسه بالامبراطور متحدياً الدولة البيزنطية، وقام بتحصين ولايته بالحصون والقلاع المنيعة لمنع الزحف العربي الإسلامي. وزيادة في الحيطة نقل العاصمة من قرطاجنة إلى سبيطلة سنة ٢٥ هـ/ ٦٤٥ م، ليحتمي بقوة البربر. وكانت سلطته تمتد من طرابلس غرب مصر حتى طنجة على ساحل المحيط الأطلسي.

والحقيقة أن عثمان رضي الله عنه كان لا يريد متابعة الزحف نحو المغرب عملاً بسياسة عمر رضي الله عنه. وعندما أدرك أن قريبه وأخاه في الرضاع عبد الله بن سعد يغزو أطراف المغرب ويغنم الغنائم وقد استأذنه في الزحف نحو المغرب، أجابه إلى طلبه بعد أن استشار كبار الصحابة[١]. وكان الهدف الأول مواجهة غريغوريوس أو جرجير حسب المصادر العربية.

خرجت حملة من المدينة المنورة على رأسها الحارث بن الحكم وأخوه مروان، ومن أبناء الصحابة: عبد الله بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. وكذلك سار معهم معبد بن

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١ ص ٢٦٧؛
ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٤٦٢.

العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن عمرو بن العاص، وغيرهم[1]. وعندما وصلت الحملة إلى مصر، خرج بها عبد الله بن سعد في أواخر سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٧م، وقد بلغت حوالى عشرين ألفاً، وسلك الطريق الساحلي حتى وصل قرب سبيطلة Supetula. في حين حشد غريغوريوس جيشاً ضخماً يضم مائة ألف، وقيل مائة وعشرين ألفاً وكذلك مائتي ألف، كما يبالغ المؤرخون المسلمون، بعد مساندة البيزنطيين والبربر الموالين له[2]. وأنزل العرب الهزيمة الساحقة بهذا الجيش، وقتل غريغوريوس على يد عبد الله بن الزبير، وافتتحت سبيطلة وغنم العرب المسلمون غنائم كثيرة.

ثم تابع عبد الله بن سعد زحفه فافتتح حصن الأجم[3] إلى الشمال من سبيطلة حيث لجأ البيزنطيون بعد الهزيمة، وبعث فرقة نحو المناطق الداخلية فوصلت قفصة. ثم توقفت الحملة بعد عقد الصلح مع حاكم أفريقيا الجديد الذي أقامه رؤساء المدن على أنفسهم، وتم الاتفاق على انسحاب ابن سعد، والعودة من حيث أتى مقابل ثلاثمائة قنطار من الذهب. فسار بجيشه إلى طرابلس التي استعادها، ثم ركب السفن وعاد إلى مصر سنة ٢٨ هـ/٦٤٨م، بعد غيبة خمسة عشر شهراً[4].

وهكذا توقف الزحف نحو المغرب منذ سنة ٢٨ هـ/٦٤٨م، رغم الانتصار الكبير على البيزنطيين. ولم يستفد عبد الله بن سعد من هذا النصر

---

(١) المالكي: رياض النفوس، ص ١٠، ١١؛ ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس، والمغرب، جـ ١ ص ٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧ ص ١٥٢؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٤٦٢.

(٢) المالكي: رياض النفوس، ص ١١؛ ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ١٠؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٣ ص ٨٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧ ص ١٥٢؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٤٦٢.

(٣) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٣٦.

(٤) المالكي: رياض النفوس، ص ١٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٢٦٨.

باتخاذ سبيطلة قاعدة للمسلمين في متابعة الزحف، بل اكتفى بما حصل عليه من غنائم[1]، إذ اضطر للعودة لمحاربة أهل النوبة الذين هددوا مصر من الجنوب.

(جـ) السرايا والحملات الاستطلاعية بقياد عقبة بن نافع (٤١ ـ ٤٣ هـ/ ٦٦١ ـ ٦٦٣م)

توقف الفتح العربي الإسلامي بسبب الفتنة الكبرى التي عصفت بالدولة العربية الإسلامية، بعد مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٥م. وعندما استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان في بلاد الشام، أعاد عمرو بن العاص والياً على مصر سنة ٣٨ هـ/ ٦٥٨م، وبعد تنازل الحسن عليه السلام عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ هـ/ ٦٦١ م، استأنف عمرو بن العاص غزو ولاية أفريقية، فأرسل قائده عقبة بن نافع في حملات استطلاعية وتأديبية في برقة وطرابلس، حيث كان البربر رغم تظاهرهم بالولاء ينتظرون الفرصة للتخلص من الحكم العربي الإسلامي. وتمكن عقبة بن نافع من فتح غدامس وودان سنة ٤٢ هـ/ ٦٦٢م[2]، واستمر بالغزو في نواحي برقة والواحات سنة ٤٣ هـ/ ٦٦٣م، وغنم ما استطاع دون أن ينتصر على البيزنطيين انتصاراً حاسماً.

(د) حملة معاوية بين خديج الكندي (٤٥ هـ/ ٦٦٥م)

بعد وفاة عمرو بن العاص سنة ٤٣ هـ/ ٦٦٣ م، قام معاوية بفصل ولاية أفريقية عن مصر وجعلها ولاية مستقلة تخضع له مباشرة. وأقام عليها معاوية بن خديج، وهو قائد الجند في مصر، وأحد أنصاره المقربين الذين ساعدوه

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٣ ص ٩٠، ٩١؛
البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١ ص ٢٦٨.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ١٥؛
ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٤، ص ١٢٤.

في الوصول إلى الحكم. وكان الامبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني بحاجة إلى المال بسبب الظروف الاقتصادية السيئة داخل بيزنطة، فأرسل عامله «أوليمة» للضغط على سكان أفريقية لدفع ثلاثمائة قنطار من الذهب على نحو ما فعلوه أثناء حملة عبد الله بن سعد. وأبعد الوالي القديم «جناحه» (لعله جناديوس)[1]، فالتجأ إلى معاوية بن أبي سفيان الذي أمر معاوية بن خديج الكندي بالتوجه إلى أفريقية[2]، فخرج على رأس حملة من عشرة آلاف، يرافقه عدد كبير من الصحابة والتابعين و«جناحه» الذي توفي في الطريق عند الإسكندرية. وتابعت الحملة سيرها في الطريق الساحلي حتى وصلت إلى «قمونية» جنوب قرطاجنة، وهو نفس الموقع الذي قامت عليه القيروان.

وفي هذه الأثناء كان الامبراطور البيزنطي قد أرسل عاملاً جديداً على ولاية أفريقية يدعى نقفور Neciphore، ومعه جيشاً من ثلاثين ألفاً تجمعوا في قرطاجنة. وحلت الهزيمة بالبيزنطيين في «قمونية»، فتراجعوا إلى داخل أسوار «سوسة» وتحصنوا بها. فتقدم معاوية بن خديج إلى موضع مرتفع في جبل القرن[3]، ومن هذا الموضع سيّر فرقتين: الأولى بقيادة عبد الله بن الزبير الذي شن هجوماً سريعاً تمكن على أثره من الاستيلاء على «سوسة» بعد أن فر البيزنطيون في سفنهم نحو جزيرة صقلية، والثانية بقيادة عبد الملك بن مروان ومعه ألف مقاتل وقد تمكن من الاستيلاء على «جلولاء» Gouloulis[4]. ثم

---

(١) André Julien: Histoire de l'Afrique du Nord, P. 15.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ص ٣٢.

(٣) المالكي: رياض النفوس ص ١٨؛
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٧٧ .

(٤) البكري: المغرب في أخبار أفريقية والمغرب ص ٣٢ .
ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ١٦، ١٧ .
ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٥٨ .

تابع معاوية بن خديج زحفه، ففتح «بنزرت»[1]، تاركاً قرطاجنة بيد البيزيطيين. وما لبث أن عزل سنة ٤٨ هـ/ ٦٦٨ م.

٣ ـ الفتح المنظم (٥٠ ـ ٨٠ هـ/ ٦٧٠ ـ ٦٩٩ م)

استغرقت المرحلة الثانية أي «الفتح المنظم»، حوالى ثلاثين سنة (٥٠ ـ ٨٠ هـ/ ٦٧٠م ـ ٦٩٩ م)، وتنقسم بدورها إلى فترتين. فامتدت الفترة الأولى أربع عشرة سنة (٥٠ ـ ٦٤ هـ/ ٦٧٠ ـ ٦٨٣م)، وقد استهلها عقبة بن نافع مؤسس القيروان، ليعزل، فيحل مكانه أبو المهاجر دينار، ثم انتهت بعودة عقبة ليقوم بحملته الكبرى إلى المغرب حتى وصل ساحل المحيط الأطلسي. وبمقتله في تهودة تنتهي هذه الفترة بانسحاب العرب إلى برقة، وكأن شيئاً لم يحدث من الفتح في غربيها.

أما الفترة الثانية، فامتدت ست سنوات (٦٩ ـ ٧٥ هـ/ ٦٨٨ ـ ٦٩٤ م)، وتمثل محاولة جدية لفتح المغرب بعد خمس سنوات من سيطرة البربر البرانس بقياد كسيلة على القيروان (٦٤ ـ ٦٩ هـ/ ٦٨٣ ـ ٦٨٨ م). وقد استهلت هذه الفترة بحملة زهير بن قيس الذي قضى على شوكة هؤلاء البربر وقتل كسيلة، ثم بحملة حسان بن النعمان الغساني الذي دمر قرطاجنة وهزم البيزنطيين، لتنتهي تلك الفترة بهزيمته أمام البربر البتر بزعامة الكاهنة التي سيطرت طيلة خمس سنوات أيضاً، تراجع معها العرب المسلمون مرة ثانية إلى برقة، قبل بدء المرحلة الثالثة والأخيرة من فتح المغرب.

(أ) عقبة بن نافع وإنشاء قاعدة عسكرية عربية إسلامية «القيروان» (٥٠ ـ ٥٥ هـ/ ٦٧٠ ـ ٦٧٥م)

في سنة ٤٨ هـ/ ٦٦٨ م، عزل معاوية بن أبي سفيان عامله معاوية بن

---

(١) البكري: المغرب في أخبار أفريقية والمغرب، ص ٥٨.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٣٦.

خديج الذي رحل إلى مصر، وعين مكانه عقبة بن نافع سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩ م، ومعه بدأت مرحلة جديدة تمثل الفتح العربي المنظم للمغرب.

وعقبة هو ابن خالة عمرو بن العاص، اشترك معه في فتح مصر وغزو برقة وطرابلس، كما اشترك في حملة عبد الله بن سعد.

وفي سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م، قاد عقبة بن نافع حملة عسكرية قوامها عشرة آلاف مقاتل، سالكاً الطريق الداخلي الصحراوي متجنباً الطريق الساحلي الذي يربط سرت بقابس، وتنتشر فيه الحصون والقلاع. وفتح غدامس وقفصة وقصطيلية[١]، وأخضع الواحات الداخلية في برقة، وافتتح ودان وجرمة وفزان[٢]. وهنا نلاحظ أن غدامس وودان كان عقبة قد افتتحهما سنة ٤٢ هـ/ ٦٦٢ م زمن عمرو بن العاص ثم أعاد فتحهما سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠م، مما يعني أن أهل ولاية أفريقية كانوا يدخلون الإسلام طالما بقي العرب في بلادهم، فإذا ما انصرف العرب ارتدوا إلى النصرانية، فقد كان العرب كلما أخضعوا الواحات الداخلية يعودون إلى برقة وزويلة اللتين اتخذتا قاعدة لغزو المغرب.

لذلك، ارتأى عقبة بن نافع تأسيس مدينة عربية تعتبر قاعدة عسكرية ثابتة لمواصلة الفتح، على أن تكون في موضع داخلي بعيداً عن الساحل خشية التعرض لغزوات البيزنطيين البحرية، وبعيداً عن جوف الصحراء خوفاً من غارات قبائل البربر. ويؤمن في الوقت ذاته سرعة التحرك نحو أماكن الغزو لمتابعة فتح المغرب.

وخطب عقبة بن نافع في جنوده قائلاً:

«إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٢٦٤.
مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ١٤٧.

(٢) البكري: المغرب في أخبار أفريقية والمغرب، ص ١٣.

كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر»[1].

واتفق المسلمون على بناء المدينة، ووقع الاختيار على موضع «قمونية» في الصحراء جنوب قرطاجنة، «وكان وادياً كثيراً الشجر، كثير القطف، تأوي إليه الوحوش والسباع»[2].

واستغرق بناء القيروان نحو أربع سنوات ليكتمل في سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٥م. وكانت أول الأمر أشبه بقاعدة عسكرية حربية تحتوي على المسجد الجامع وحوله دور الجند ودار الإمارة، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مدينة فيها المساجد والدور والأسواق ويحيط بها سور، حتى أصبحت عاصمة المغرب في زمن الدولة الأموية.

ومن القيروان، أخذ عقبة بن نافع يوجه السرايا في المناطق المجاورة، فأسلم عدد كبير من البربر وانخرطوا في الجيش العربي الإسلامي. فكان ذلك بمثابة الخطوة الأولى في عملية تحول البربر نحو العروبة والإسلام.

(ب) حملة أبو المهاجر دينار نحو المغرب الأوسط
(٥٥ ـ ٦٠ هـ/ ٦٧٥ ـ ٦٨٠ م)

كان معاوية بن أبي سفيان يدرك تماماً أهمية ولاية أفريقية إذا ما تم فتح المغرب، لذلك فصلها عن مصر بعد وفاة عمرو بن العاص سنة ٤٣ هـ/ ٦٦٤م وجعلها تابعة له مباشرة حتى لا يزداد نفوذ والي مصر ويفكر بالانفصال والاستقلال. وعندما أنشأ عقبة بن نافع مدينة القيروان، أدرك معاوية أيضاً أن

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٢٠، ٢١.
ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٢٦٤، ٢٦٥.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١ ص ٢٦٩ .
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٣ ص ٢٠٠.

عقبة لا يقل طموحاً عن ابن خالته عمرو بن العاص، وكان قد اشترك معه في الفتح قبل وفاته، لذلك تخوف من سياسته الرامية إلى الاستقلال كما تراءى له. وكان مسلمة بن مخلد الأنصاري والياً على مصر ويحسد عقبة، على انتصاراته، كما كان يحظى بمكانة كبيرة لدى معاوية، وأدرك تخوفه من سياسة عقبة، فسعى لتحقيق هدفه بضم أفريقية إلى مصر، وقد تم له ذلك بعد عزل عقبة بن نافع سنة ٥٥هـ/ ٦٧٥ م.

وعندما تولى مسلمة بن مخلد مصر وأفريقية، أرسل مولاه أبا المهاجر دينار الأنصاري في حملة من أهل الشام ومصر سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٥ م، لمتابعة فتح المغرب. وعندما وصل أبو المهاجر إلى القيروان أساء عزل عقبة «فسجنه وأوقره حديداً»، ثم أمر معاوية بن أبي سفيان بإطلاق سراحه والاعتذار إليه[1]. وهذا أسلوب في غاية الدهاء والذكاء في مواجهة القواد العظام حتى لا ترتفع مكانتهم وتتخطى حاكم الدولة.

ومع ذلك كان أبو المهاجر دينار أول فاتح عربي يتوغل في المغرب الأوسط (الجزائر)، وكانت أعماله لا تقل خطورة عما قام به عقبة بن نافع. وإن كان عقبة محارباً عنيفاً، فإن أبا المهاجر لجأ إلى سياسة اللين والحسنى في استمالة البربر عن طريق نشر الإسلام بين جموعهم. وبهذه السياسية تفوق على عقبة، واستمال إليه زعيم قبيلة أوربة من البربر البرانس ويدعى كسيلة بن لمزم، وكان نصرانياً متحالفاً مع البيزنطيين، فأصبح مسلماً حليفاً للعرب في حربهم ضد البيزنطيين. وبهذه السياسة البارعة استولى أبو المهاجر على تلمسان[2]، ثم قام بهجوم كبير على العاصمة الأفريقية البيزنطية «قرطاجنة» في سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٩ م، ثم تراجع عنها مقابل تخلي البيزنطيين عن شبه جزيرة شريك جنوب قرطاجنة.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٢٢.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، في تاريخ العرب والعجم والبربر جـ ٦ .
السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٣٧.

(جـ) حملة عقبة بن نافع نحو المغرب الأقصى
(٦٠ ـ ٦٣ هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣م

بوفاة معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م، تحول الحكم العربي الإسلامي إلى ملك قبلي وراثي، مخالفاً الشورى وحكمة الله تعالى من وفاة الأبناء الذكور في حياة النبي العربي ﷺ حتى لا تتحول الخلافة بعده إلى وراثية. وتولى الحكم الأموي يزيد بن معاوية الذي بادر إلى فصل ولاية أفريقية عن مصر، وأعاد إليها عقبة بن نافع بعد أن تم عزل أبا المهاجر دينار. وفور قدوم عقبة إلى القيروان، قيل أنه عامل أبا المهاجر بالمثل فأساء عزله بعد أن قبض عليه وأوثقه بالحديد[1]. وكأن التنافس قائم بينهما حول من يكون الفاتح العربي الأول لبلاد المغرب، فإذا كان أبو المهاجر أول فاتح يتوغل في المغرب الأوسط، فإن عقبة كان أول من توغل في المغرب الأقصى حتى وصل المحيط الأطلسي، وكان أبو المهاجر برفقته، مما يثير الشك حول المبالغة في إساءة العزل والسجن. ولعل عقبة اكتفى بتلقين أبا المهاجر درساً، ثم اعتبره أحد قواده في حملته الكبرى التي أدت في النهاية إلى استشهادهما معاً في تهودة.

خرج عقبة بن نافع من القيروان بعد أن ترك عليها زهير بن قيس البلوي. واتجه بحملته الكبرى نحو المغرب الأقصى، ومعه جماعة من البربر من قبيلة أوربة لترشده إلى المسالك في هذه البلاد النائية التي يدخلها العرب لأول مرة. وكان عليه أن يواجه التحالف البيزنطي ـ البربري، وقد انتصر عليهم عند باغاية (بجاية) غرب قرطاجنة[2]، ثم حاصر المنستير ودخلها كما دخل بلاد الزاب في المغرب الأوسط وفتح المسيلة، وأنزل الهزيمة بالبيزنطيين وحلفائهم من بربر لواته وهوارة ومكناسة عند تاهرت[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ١٠٥.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٤ ص ٥٣.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٢٤.

ثم اتجه عقبة بن نافع من تاهرت نحو المغرب الأقصى، فغزا بلاد قبائل أوربة وهو في طريقه إلى طنجة، بالرغم من معارضة أبو المهاجر لهذا الأمر. وعندما وصل إلى طنجة صالحه حاكمها البيزنطي «يوليان»، مما مهد له الطريق ليتابع زحفه جنوباً نحو المناطق الداخلية، حيث أنزل الهزائم بقبائل البربر المصامدة وطاردهم حتى بلاد درعة. ثم اتجه نحو السوس الأقصى، وافتتح في طريقه اغمات وريكة حتى انتهى به الزحف عند مدينة إيفيران يطوّف على ساحل المحيط الأطلسي. وقيل أنه اقتحم بفرسه مياه المحيط، ورفع يديه إلى السماء قائلاً: «يا رب لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرنين، مدافعاً عن دينك، مقاتلاً من كفر بك وعبد غيرك»[(١)].

وفي طريق العودة إلى القيروان، بلغ عقبة مدينة طنجة واتجه منها إلى المغرب الأوسط حتى وصل إلى طنبة. ولعله أدرك خطورة التحالف البيزنطي - البربري بعد أن انقلب عليه كسيلة بسبب غزوة بلاد قبائل أوروبة وعدم اتباعه نصيحة أبو المهاجر بعدم التعرض لهذه البلاد، كما قيل أن عقبة أساء معاملة كسيلة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن سياسة العنف والشدة لا تكفي وحدها في إخضاع قبائل البربر من أجل فتح المغرب. ولو أضاف عقبة إلى سياسته هذه، السياسة التي برع فيها أبو المهاجر وكان يقاتل إلى جانبه، لما انقلب عليه كسيلة، وكان الفتح العربي لبلاد المغرب قد تحقق نهائياً معه وهو يغوص بفرسه مياه المحيط الأطلسي.

ولكن الحقيقة أن البيزنطيين شعروا بالخطر العربي الإسلامي على نفوذهم في ولاية أفريقية التي أوشكت أن تفلت من أيديهم، فسعوا إلى إيجاد تحالف بيزنطي - بربري لمحاربة العرب، وقد نجحوا في ذلك. وكان على عقبة أن يتصرف بسرعة، فدخل مع خمسة آلاف مقاتل إلى مدينة طنبة، وسمح

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٢٧.

لجميع فرق الجيش الأخرى بالإسراع في العودة إلى القيروان. ثم خرج من طنبة نحو تهودة ليتخذها قاعدة له في الأوراس، وهو لا يدرك أن كسيلة قد استدرجه بجموع هائلة من البربر بلغت الخمسين ألفاً طوقت عقبة وجيشه في أواخر سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٣م، وذلك بمساندة البيزنطيين. فكانت مواجهة غير متكافئة استشهد خلالها عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار وعدد كبير من المسلمين في تهودة، بينما أسر الباقون، ففداهم صاحب قفصة وبعث بهم إلى زهير بن قيس في القيروان[1].

(د) سقوط القيروان بيد كسيلة بن لمزم البربري
(٦٤ ـ ٦٩ هـ/ ٦٨٤ ـ ٦٨٨م)

كان لهزيمة العرب المسلمين في تهودة نتائج سريعة، حيث انسحب زهير بن قيس البلوي نائب عقبة على القيروان، واتجه بمن تبقى من الجيش إلى برقة[2]، ليتجنب أي هجوم مفاجىء قد يقوم به كسيلة. وعندما أقبل كسيلة بجموع البربر سقطت القيروان بسهولة وقد خلت من الجند سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٤م. وهكذا عاد العرب إلى برقة بعد أن وصلوا إلى ساحل المحيط الأطلسي، وتقهقروا وكأن شيئاً لم يتم فتحه في ولاية أفريقية، وحتى القيروان التي أنشأها عقبة أصبحت بيد كسيلة البربري الذي حكمها مدة خمس سنوات (٦٤ ـ ٦٩ هـ/ ٦٨٤ ـ ٦٨٨ م)، وكأنه قام بأول ثورة أو حركة تمرد على الحكم العربي الإسلامي الجديد الذي لم يألفه البربر من قبل رغم اصطناعهم الإسلام أول الأمر ولكن عن غير اقتناع، ووجد في هذا الحكم ضربة قاصمة لزعامته، فهو زعيم قبيلة أوربة، أكبر قبائل بربر البرانس في المغرب.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٧٠ ـ ٧٤.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١، ص ٢٨ ـ ٣٠.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٣١.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٣٩.

وفي تلك الفترة التي توقف فيها الزحف العربي نحو المغرب، كان زهير بن قيس لا يزال في برقة ينتظر الفرصة لاسترجاع القيروان ومتابعة الفتح العربي. وكان يزيد بن معاوية قد توفي سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٤م، فخلفه مروان بن الحكم مدة قصيرة، ثم ابنه عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٥ م.

(هـ) حملة زهير بن قيس واسترجاع القيروان (٦٩ هـ/ ٦٨٨ م)

بدأت مرحلة حاسمة في تاريخ الفتح العربي للمغرب، لأن عبد الملك بن مروان نفسه كان قد شارك في حملة معاوية بن خديج الكندي سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م وتمكن من احتلال جلولاء قبل ربع قرن تقريباً. لذلك خشي أن تضيع كل الجهود العربية سدى أمام كسيلة الذي أصبح الآمر الناهي في القيروان، وأمام البيزنطيين الذين تحصنوا في قرطاجنة وساحل المغرب الأدنى.

أرسل عبد الملك بن مروان جيشاً من الشام إلى برقة، وزحف زهير بن قيس سنة ٦٩ هـ/ ٦٨٨ م نحو القيروان. فلما علم كسيلة بقدومه رحل منها إلى ممس، وهي موضع حصين فوق هضبة مرتفعة تتصل بجبال الأوراس، وكأنه أدرك أن الحملة جاءت انتقاماً لمقتل عقبة ودخوله القيروان، لذلك اختار هذا الموضع استعداداً للتحصن في الجبال إذا ما حلت به الهزيمة. ولكن زهير بن قيس لم يتح له هذه الفرصة، فقد أنزل به هزيمة ساحقة في ممس Mamma[1] التي تعتبر من أهم المعارك الحاسمة في المغرب حيث قتل كسيلة وعدد كبير من البربر. وكسرت شوكة قبائل «أوربة» عندما طارد زهير فلول البربر حتى وادي ملوية، فأذل البربر وأبقى الرعب في قلوبهم ليلتجئوا إلى القلاع والحصون بعد أن فرط التحالف البيزنطي ـ البربري. ولكن الدولة

---

(١) البكري: المغرب في أخبار أفريقية والمغرب، ص ١٤٦.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، جـ ١ ص ٣٢، ٣٣.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٤٢.

البيزنطية خشيت من تطور الأحداث على هذا الشكل، فأرسلت قوة بحرية من صقلية، فنزلت الساحل وقطعت على زهير بن قيس طريق العودة نحو برقة، وأحاطت بقواته في درنة قرب طيرق فقتل زهير ومعظم أصحابه في هذه الموقعة سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨ م.

(و) حملة حسان بن النعمان الغساني «الأولى» (٧٣ ـ ٧٥ هـ/ ٦٩٢ ـ ٦٩٤ م)

توقف الزحف العربي نحو المغرب زهاء أربع سنوات (٦٩ ـ ٧٣ هـ/ ٦٨٨ ـ ٦٩٢م)، لأن عبد الملك بن مروان وجه جهده للقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وقتله سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م. ثم تفرغ لمتابعة الفتح، فجهز سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢م، وقيل سنة ٧٤ هـ/ ٦٩٣م[1]، حملة من ستة آلاف مقاتل بقيادة حسان بن النعمان الغساني.

اتبع حسان سياسة جديدة تقضي باستمالة البربر البرانس الذين أخضعوا تماماً بعد القضاء على كسيلة، لمواجهة الأعداء من البيزنطيين والبربر البتر منفردين. وكان حسان سياسياً بارعاً، سار بمن انضم إليه من البربر للقضاء أولاً على البيزنطيين، فهاجم أكبر تجمع لهم في قرطاجنة التي دمرها وخربها، فهرب من فيها بحراً إلى صقلية وإسبانيا. ثم استولى على بنزرت وعاد إلى القيروان.

ويبدو أن حسان لم ينجح في استمالة البربر البتر إلى جانبه، وقد اشتدت شوكتهم في جبال الأوراس بعد أن التفوا حول زعيمة لهم من قبيلة جراوة يقال لها داهية بنت ماتية بن تيغان، وتعرف بالكاهنة لأنها كانت تتنبأ أو تتكهن

---

(١) اختلف المؤرخون حول تاريخ سير هذه الحملة، فابن عبد الحكم يحدد سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢م، وابن الأثير وابن خلدون سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م.
ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٢٦٩؛ ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٤ ص ١١٣؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٤ ص ١٨٧.

بالغيب، مما يعني علو مركزها الروحي لدى البربر البتر وقدرتها على استمالتهم إلى زعامتها.

توجه حسان نحو باغاية، فسبقته الكاهنة إليها عند مدخل الجبال حتى لا يتخذها قاعدة للهجوم[1]، ثم هدمت المدينة وتراجعت عنها إلى موضع يقال له نهر البلاء[2] (قرب قسنطنية)، وأنزلت الهزيمة الساحقة بجيش حسان وأسرت ثمانين من رجاله بعد أن قتلت عدداً كبيراً. فانسحب حسان إلى برقة، حيث قضى خمس سنوات ينتظر الفرصة لمعاودة الفتح، وأقام في هذه الأثناء قصوراً في موضع ما زال يعرف باسم قصور حسان.

(ز) سيطرة الكاهنة على المغرب الأدنى (٧٥ ـ ٨٠ هـ/ ٦٩٤ ـ ٦٩٩ م)

تراجع العرب ثانية إلى برقة وكأن شيئاً لم يحدث من الفتوحات العربية، وحتى تقضي الكاهنة تماماً على آثار هذه الفتوحات، وتقطع طريق العودة على العرب، اتبعت سياسة الأرض المحروقة. فقد تهيأ لها أن العرب توجهوا إلى هذه البلاد طمعاً بمدنها العامرة ومزارعها الخيرة[3]، فإذا ما قضت على هذه المدن والخيرات فلن يفكر العرب في العودة ثانية. وهكذا اندفعت الكاهنة تدمر المدن وتخرب الحصون وتحرق أشجار الزيتون والكروم، وانتهز البيزنطيون الفرصة وعادوا إلى قرطاجنة سنة ٧٨ هـ/ ٦٩٧ م[4].

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٣٥.

(٢) ويسمى نهر نيني عند ابن الأثير، ووادي مسكيانة عند ابن عذارى والبكري وابن خلدون. ويسمى ابن عذارى موضع المعركة أيضاً اسم وادي العذارى.
ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٢٧٠ .
ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٤ ص ١٤٤.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس المغرب، جـ ١ ص ٣٦؛
البكري: المغرب في أخبار أفريقية والمغرب، ص ٥٠.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٣٦.

(٤) البكري: المغرب في أخبار أفريقية والمغرب، ص ٣٨.

ولكن سياسة الكاهنة لم تؤت ثمارها، فقد انقلب عليها سكان البلاد من البربر البرانس والبيزنطيين، ففي حين فر البعض إلى صقلية وإيطاليا، فإن الأحداث أسفرت عن صراع بين البربر البتر بزعامة الكاهنة والبربر البرانس الذين استنجدوا بالقائد حسان بن النعمان لينقذهم من هذه الكاهنة.

٤ ـ الفتح النهائي (٨٠ ـ ٩٠ هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٠٩ م

تعتبر مرحلة الفتح النهائي أهم مرحلة في تاريخ الفتح العربي للمغرب، وكأن المرحلتين السابقتين تمهيد طويل استغرق ستين سنة. وهي مرحلة متواصلة، لا يمكن تقسيمها إلى فترات، وقد استمرت عشر سنوات تم خلالها حشد الجيوش العربية الكثيفة بقيادة حسان بن النعمان ثم موسى بن نصير. حتى تحقق فتح المغرب من أدناه إلى أقصاه عند ساحل المحيط الأطلسي والمضيق الذي يفصل المغرب عن جنوب إسبانيا.

(أ) حملة حسان بن النعمان الغساني «الثانية» وإخضاع المغرب الأدنى (٨٠ ـ ٨٥ هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٠٤ م)

أدرك حسان بن النعمان أن الفتح النهائي يتطلب جيشاً كثيفاً، لذلك طلب الإمدادات، ولم يبخل عليه عبد الملك بن مروان. فأعد جيشاً من أربعين ألفاً مزوداً بأسطول بحري، وانضم إليه البربر البرانس الموالين له والناقمين على الكاهنة، وخرج في أضخم حملة عرفها الفتح العربي للمغرب.

شعرت الكاهنة بقرب الهزيمة، لذلك أرسلت ولديها إلى حسان للانضمام إليه بعد طلب الأمان، وتراجعت هي موغلة في جبال الأوراس بعد أن اختارت القتال على الاستسلام. وأخذ حسان يطارد الكاهنة، حتى كانت المواجهة الحاسمة عند بئر الكاهنة وقيل عند طبرقة، حيث هزمها وقضى على جيشها وقتلها سنة ٨٢ هـ/ ٧٠١ م[١]. وبذلك أخضع البربر جميعاً سواء

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٣٨.

البرانس أو البتر، ولم يبق منهم إلا القليل يساند البيزنطيين الذين استعادوا مواقعهم في قرطاجنة أثناء سيطرة الكاهنة على المغرب الأدنى، واسترد حسان بسهولة مدينة قرطاجنة بعد فرار الحامية البيزنطية بحراً.

ولترسيخ دعائم الفتح العربي للمغرب، عمل حسان على إنشاء قاعدة بحرية عربية إسلامية تكون حصينة لمقاومة الحظر البيزنطي من البحر، ولحماية «القيروان» التي أنشأها عقبة بن نافع والتي كان يسهل على البربر دخولها كلما تراجع العرب. لذلك أمر حسان ببناء تونس وكانت عبارة عن قرية صغيرة عرفت قديماً باسم «تنيس» أو «ترشيش»[1]، فحولها إلى ثغر بحري فيه دار لصناعة السفن بعد أن استعان بألف أسرة من أقباط مصر خبيرة بشؤون الملاحة وبناء السفن[2]، ويشتمل على دار الإمارة ودور الجند والمسجد الجامع. وقدر لهذا الثغر، أن يتحول إلى أعظم الثغور العربية على ساحل المغرب الأدنى، يقلع منه الأسطول العربي تحت راية الإسلام في غرب البحر المتوسط.

وبهذه القاعدة البحرية الحصينة «تونس»، تمكنت «القيروان» من القيام بالدور السياسي والديني لإعطاء المغرب طابعاً عربياً إسلامياً. فقد شرع حسان بتعريب الدواوين وتنظيم الخراج، ونشر الإسلام واللغة العربية لغة القرآن الكريم، فتحول عدد كبير من البربر إلى الإسلام وانخرطوا في الجيش العربي الإسلامي وتبوأ زعماؤهم بعض المناصب الكبرى، فاستمالهم بهذه السياسة الحكيمة التي مكنته من إخضاع المغرب الأدنى وإنشاء تونس[3] وهذه السياسة أرسى قواعدها النبي العربي ﷺ في داخل شبه الجزيرة العربية، واعتمدها القادة العرب أثناء نشر العروبة والإسلام خارج شبه الجزيرة العربية. أما في

---

(١) البكري: المغرب في أخبار أفريقية والمغرب، ص ٣٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٣٨.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٤٣.

المغرب فقد اتبعها أبو المهاجر دينار ثم حسان بن النعمان الغساني وموسى بن نصير الذين يعتبرون قادة الفتح الحقيقي للمغرب، دون أن تنكر الجهود التي بذلها عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد وعقبة بن نافع ومعاوية بن خديج وزهير بن قيس، والتي توجها موسى بن نصير بإخضاع المغرب الأقصى والوصول إلى طنجة عند ساحل المحيط الأطلسي.

(ب) حملة موسى بن نصير وإخضاع المغربين «الأوسط» و«الأقصى» (٨٥ ـ ٩٠ هـ/ ٧٠٤ ـ ٧٠٩ م)

أخضع حسان بن النعمان المغرب الأدنى، ولم يبق أمامه سوى التوجه نحو المغرب الأقصى بعد أن استقامت له الأمور. لكن والي مصر عبد العزيز بن مروان حرمه من هذه الفرصة التاريخية، فعزله وعين مكانه موسى بن نصير سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤ م.

اتجه موسى بن نصير إلى القيروان ومعه أبناؤه الأربعة عبد الله وعبد الملك وعبد العزيز ومروان. وكان أول عمل قام به هو توطيد الحكم العربي الإسلامي في المغربين «الأدنى والأوسط»، متبعاً في ذلك سياسة التقرب من البربر لاستمالتهم، فدخل معظمهم تحت راية الإسلام وتعزز بهم الجيش العربي في إخضاع من تبقى منهم، وبخاصة في المغرب الأقصى.

وسنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م، توفي عبد الملك بن مروان فخلفه ابنه الوليد الذي أعجب بما قام به موسى بن نصير، فجعله تابعاً له مباشرة بعد أن كان يتبع والي مصر وأصبح يعرف بـ«أمير القيروان».

اتبع موسى بن نصير خطة عسكرية جديدة، مستفيداً من التجارب السابقة لفتح المغرب، وتقضي هذه الخطة بإرسال الحملات الكثيرة هنا وهناك بقيادة أبنائه الأربعة والقادة الذين يعول عليهم، مع الحرص الشديد على سلامة أرواح المسلمين، والاستعانة بالأسطول البحري. وبذلك يتفادى المواجهة المباشرة في معركة واحدة وفاصلة، ويبقى هو أي «أمير القيروان» في منأى عن الخطر وغدر القبائل.

قام موسى بغزو المغرب الأقصى، مستهلاً عملياته العسكرية بإرسال حملة بقيادة عبد الله الخشيني إلى قلعة زغوان بين تونس والقيروان، فافتتحها[١]. ثم تابع موسى الزحف حتى بلغ طنجة على ساحل المحيط الأطلسي، فافتتحها وترك فيها حامية عربية. وبعد ذلك عبر نهر درعة وأخضع قبائل البربر في المناطق الجبلية المشرفة على المحيط الأطلسي. كما أرسل ابنه مروان في حملة تضم ألفاً وسبعماية من العرب وألفاً من البربر لإخضاع قبائل السوس الأقصى. ثم وجه حملة تأديبية نحو سجوما بقيادة الأخوة عياض وعثمان وأبو عبدة للانتقام من أهلها الذين اشتركوا في مقتل أبيهم عقبة بن نافع وأصحابه عند تهودة[٢].

وصل موسى بن نصير إلى ساحل المحيط الأطلسي، وقد تم إخضاع المغرب بأسره من أدناه إلى أقصاه باستثناء مدينة سبتة. ولم يعد يفصل المغرب عن إسبانيا في أوروبا سوى مضيق صغير.

كان جوليان Julian (يوليان أو اليان في المصادر العربية)[٣] يحكم سبتة، وقد اختلف المؤرخون حول هويته[٤]. ويبدو أنه كان حاكماً بيزنطياً على الشريط الساحلي بين طنجة وسبتة في داخل إقليم موريتانيا أحد الأقاليم السبعة التي أوجدتها بيزنطة في المغرب، واستطاع بمهارته أن يكتسب صداقة البربر حتى اعتبروه واحداً منهم، وعندما لاح له الفتح العربي واضطراب أحوال بيزنطة البعيدة عنه، أقام في سبتة حكماً شبه مستقل، متوجهاً شطر إسبانيا القوطيةالتي أصبح يدين لها بالولاء، فأمدته بالمساعدات عن طريق البحر لمواجهة موسى بن نصير.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٤١.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١ ص ٤٢.
(٣) البكري: المغرب في أخبار أفريقية والمغرب، ص ١٠٤.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٢٠٣.
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، في تاريخ العرب والعجم والبربر جـ ٤ ص١١٧.

وكان بإمكان موسى بن نصير دخول سبتة بالقوة، ولكن بعد تعريض العرب والبربر المسلمين للخطر، وهذا مناهض للسياسة التي اتبعها، حيث كان يستعد على ما يبدو لمتابعة الزحف نحو أوروبا بعبور المضيف. لذلك اكتفى بترك مولاه طارق بن زياد في طنجة[١] القريبة من سبتة، على رأس حامية تتجاوز تسعة وعشرين ألفاً لتشديد الحصار حول سبتة حتى تسقط بدون قتال. وقد نجح في ذلك، ورضخ يوليان للأمر الواقع فكان عوناً للعرب في فتح إسبانيا (الأندلس).

وإذا كان عقبة بن نافع، قد وصل المحيط الأطلسي واقتحم المياه بفرسه وما لبث أن تراجع ليلقى مصيره في تهوده، إلاّ أن موسى بن نصير أدرك ضرورة بناء أسطول بحري قوي لضمان سلامة خطوط مواصلاته الطويلة من خطر الأسطول البيزنطي، وهو على وشك فتح إسبانيا. وبسرعة تم بناء أسطول عربي من مائة سفينة في ثغر تونس وغيرها من ثغور المغرب حيث تتوفر الأخشاب، وأخذ يهاجم القواعد البحرية البيزنطية في جزر البحر المتوسط مثل صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار، بدل أن يهاجمه الأسطول البيزنطي على سواحل المغرب.

وكثر الحديث عن تمادي موسى بن نصير في قتل وسبي البربر أثناء زحفه نحو المغرب الأقصى، وأنه كان يهتم بالسبي والغنيمة، مما أدى إلى غرس عوامل الحقد في نفوس البربر وإقامة حواجز فاصلة بين العرب والبربر، وانحراف كثير من السكان إلى تقبل مذاهب ثورية من خارجية وصفرية وشيعية[٢].

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٢٧٥.

(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٤٧.

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤٦.

والحقيقة أن موسى بن نصير اتبع سياسة واضحة في استمالة البربر، ولولاهم لما تم له إخضاع المغرب الأقصى نهائياً سنة ٩٠ هـ/٧٠٩م، ثم عبور المضيق نحو إسبانيا سنة ٩٢ هـ/ ٧١١م. وإذا كان قد استعمل الشدة والقسوة أحياناً فحتى يلقي الهلع والخوف في صفوف هذه القبائل التي طالما ارتدت عن العرب من وقت لآخر، وحتى يضمن ولاءها للجيش العربي. وأما الغنائم التي كان يحصل عليها، فكان يبعث بها إلى والي مصر عبد العزيز بن مروان وكان تابعاً له، وإلى عبد الملك بن مروان في دمشق حتى يرضى عنه بعد أن أساء به الظن[1]. وعندما استقل في ولاية المغرب زمن الوليد بن عبد الملك، التف البربر حوله، وعمل على اكتساب قلوبهم عن طريق نشر الإسلام واللغة العربية. فبدأت عملية التحول والنقلة التاريخية بتعريب البربر ونقلهم من حال إلى حال، وهذا ما عجز عنه الفينيقيون والرومان والبيزنطيون من قبل، واندمج المغرب في الدولة العربية الإسلامية وتحول إلى الإسلام والعروبة حتى يومنا هذا.

وإذا كان سكان المغرب من قبائل البربر قد تقبلوا مذاهب ثورية انقلابية من خارجية وصفرية واباضية، فإن ذلك لا يرجع إلى سياسة موسى بن نصير في القتل والسبي، بقدر ما يرجع إلى تعريب البربر فنبغ منهم الفقهاء والشعراء والخطباء، وأقبلوا على المذاهب السياسية والدينية مثل العرب تماماً، فتحول بعضهم إلى الشيعة والخوارج والمعتزلة. ذلك أن الروح القبلية المتشابهة عند العرب والبربر، لم تمت تماماً رغم قضاء الإسلام عليها، وبقيت النزعة الاستقلالية أو التنافس حول الحكم قائمة حتى بين أبناء البيت الواحد.

وكان موسى بن نصير خبيراً بنفسية البربري، المتعطش للحرب والقتال، فبعد تحويله إلى الإسلام حرص على إشباع رغبته هذه بدفعه إلى عبور المضيق ومحاربة الإسبان. لذلك جمع منهم جيشاً بقيادة مولاه طارق بن زياد، وكان

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٢٧٧ .

بربرياً أيضاً[1]. وتألف هذا الجيش من إثني عشر ألفاً بينهم ثلاثمائة فقط من العرب، والباقون جميعاً من البربر، وقد عبر طارق بهم المضيق الذي حمل إسمه، وتقدم نحو إسبانيا سنة ٩٢ هـ/ ٧١١ م، وهذا ما لم يحدث في تاريخ الفتوحات العربية حتى هذا التاريخ، حيث كان العنصر العربي هو الغالب جنداً وقادة على جيوش الفتح. أما فتح إسبانيا (الأندلس) فتولاه جيش كامل من البربر، مما يعني أن هؤلاء البربر كانوا قد أسلموا وبدأوا في مرحلة النقلة التاريخية نحو العروبة، فلا غرو أن تكون الخطوة الأولى في هذا الفتح قد تمت على أيديهم، وهم أكثر معرفة بطبيعة بلاد إسبانيا من العرب.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٤٣.

المرحلة الأولى

الفتح العربي الإسلامي للأندلس وجعله ولاية تابعة للخلافة الأموية بدمشق

(٩١ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٠ ـ ٧٥٦ م)





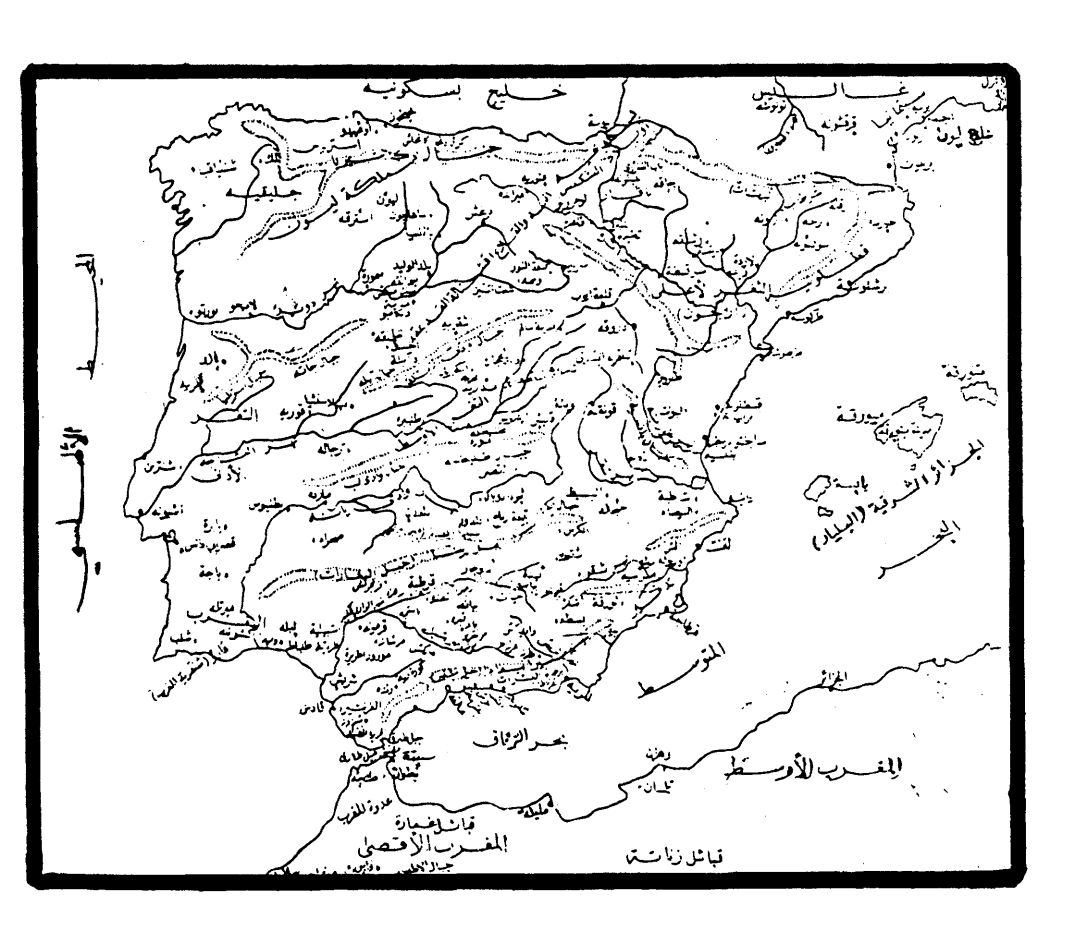
www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الأول

الفتح العربي الإسلامي للأندلس

(٩١ ـ ٩٧ هـ/ ٧١٠ ـ ٧١٦ م)

ما إن تم الفتح العربي الإسلامي للمغرب سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٩ م، حتى أصبح الطريق مفتوحاً لعبور المضيق نحو جنوب غرب أوروبا. ففي مراحل أربع قصيرة لا تتعدى الست سنوات من الغارة الاستطلاعية التي قام بها طريف بن مالك المعافري، إلى حملة طارق بن زياد، وحملة موسى بن نصير، ثم حمله ابنه عبد العزيز بن موسى، استكمل الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا أو شبه جزيرة ايبيريا، لتحمل اسم الأندلس، قبل أن يقتصر هذا الاسم الجديد على جنوب إسبانيا، ثم على مملكة غرناطة الصغيرة في الجنوب الشرقي. وهي المملكة التي سقطت سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م، لتضيع معها الأندلس نهائياً بعد ٨٠٠ سنة هجرية/ ٧٧٦ سنة ميلادية، أي بعد ثمانية قرون هجرية/ سبعة قرون وثلاثة أرباع القرن ميلادية.


خليج بسكونيه
الجزائر الشرقية (البليار)
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
قبائل غمارة
المغرب الأقصى
قبائل زناتة

الأندلس

١ ـ الأندلس قبل الفتح العربي الإسلامي

قبل التطرق إلى المراحل الأربع التي مر بها الفتح العربي الإسلامي للأندلس، يجدر التوقف قليلاً عند الأوضاع الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، التي كانت تميز هذه البقعة المنزوية في جنوب غرب أوروبا، إضافة إلى الدوافع التي حثت العرب المسلمين على عبور المضيق في فتح جديد يخترق أوروبا لأول مرة في تاريخ الفتح العربي الإسلامي.

(أ) الموقع الجغرافي

أطلق لفظ الأندلس، أول الأمر، على شبه جزيرة ايبيريا كلها، أو إبارية[١] كما ورد في المصادر العربية، عندما كانت بيد العرب المسلمين. وهي تقع في جنوب غرب أوروبا، ويحدها من الشرق البحر المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ويفصلها عن فرنسا شمالاً سلسلة جبال البُرت التي جعلتها في شبه عزلة عن سائر دول القارة الأوروبية. في حين لا يفصلها عن السواحل الشمالية للمغرب، سوى بحر الزقاق، أو مضيق جبل طارق، وهو الإسم الذي غلب عليه منذ الفتح العربي الإسلامي.

ويعتبر مضيق جبل طارق بمثابة حلقة الوصل بين المغرب والأندلس. فالجبل يقع في أقصى جنوب إسبانيا، ويصل ارتفاع بعض قممه إلى ٤٣٨ متراً، وأسماه الفينيقيون «الجبل المجوف» Mons Calpe نظراً لوجود مغارة كبيرة فيه[٢]. وبعد الفتح العربي الإسلامي، أطلق عليه اسم الصخرة وجبل الفتح لتغلب عليه تسمية جبل طارق في جميع اللغات Gibraltar نسبة إلى فاتح الأندلس طارق بن زياد. أما المضيق فيبلغ طوله حوالى ثمانين كيلومتراً، ولا يزيد عرضه في أضيق جهاته عن خمسة عشر كيلومتراً. لذلك يمكن القول

---

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢١.

أن مسافة مضيق جبل طارق التي تفصل المغرب عن الأندلس، مسافة ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي أو الاقتصادي بينهما. ومن هنا نشأ صراع تقليدي مستمر بين الشاطئين الأفريقي والأوروبي حول السيطرة على المنطقة المحيطة بالمضيق والمعروفة باسم العدوتين: عدوة المغرب وعدوة الأندلس، والعدوة معناها الجانب أو الشاطىء[1]. وهذا يعني أن إسبانيا أو الأندلس، هي أكثر انفتاحاً على المغرب، منها على فرنسا وبقية الدول الأوروبية.

أما كلمة «الأندلس»، فاشتقها العرب المسلمون من كلمة «واندلوس»، وهي اسم إحدى قبائل الجرمان المعروفة بـ «الوندال»، تحركت في هجرة كبيرة عبرت جبال البرت في شمال إسبانيا سنة ٤٠٩ م، لتستقر في سهولها الجنوبية التي ما لبثت أن حملت إسمها، أي واندلوس، وهي التسمية التي عرِّبت مع الفتح العربي الإسلامي إلى «الأندلس» أو «الأندليش»[2].

ثم أخذ المدلول الجغرافي للفظ الأندلس، يقل شيئاً فشيئاً مع تراجع السيادة العربية الإسلامية، حيث أصبح هناك إسبانيا الإسلامية أو الأندلس في المناطق الجنوبية، وإسبانيا المسيحية في المناطق الشمالية. وبعد سقوط مملكة غرناطة، وهي آخر مملكة إسلامية في جنوب شرق إسبانيا، ضاعت الأندلس نهائياً سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م، ليطلق الإسبان، منذ ذلك التاريخ، إسم اندالوثيا Andalucia على الولايات الجنوبية التي تشمل قرطبة وأشبيلية وغرناطة.

(ب) أصل السكان

مهما اختلف المؤرخون حول تحديد أصل سكان إسبانيا التي حملت

---

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٢.
(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٢.

اسم الأندلس، فإنه لا يمكن إغفال أهمية العنصر السامي «الآسيوي»، منذ أن أسس الفينيقيون مستعمراتهم على الساحل الغربي لحوض البحر المتوسط، وكشفوا المحيط الأطلسي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. فكان الفينيقيون، وأصلهم بالطبع سامي يعود إلى شبه الجزيرة العربية، أولى الموجات البشرية التاريخية التي وفدت على المغرب وإسبانيا من الساحل الشرقي لحوض البحر المتوسط. ومن أهم المستعمرات التجارية الفينيقية في إسبانيا: مدينة سكسي Sexi التي سماها العرب «المنكب» Almunecar، ومدينة مالحة (مالقة Mâlaga اليوم)، ومدينة غادير التي سماها العرب قادس (غاديز Cadiz اليوم)، فضلاً عن جبل قلب Calpe وهي التسمية الفينيقية القديمة لجبل طارق. أما أهم المستعمرات التجارية الفنيقية في المغرب، المقابل لإسبانيا، فهي مدينة لكسوس Lixus (العرائش اليوم)، ومدينة Tingi (طنجة اليوم)، ومدينة روسادير (مليلة اليوم).

وتحول العنصر السامي «الآسيوي» إلى العنصر السامي «الأفريقي»، منذ أن أسس الفينيقيون مستعمرة قرطاجة Quart Hadasht أي المدينة الجديدة في المغرب الأدنى (تونس اليوم) سنة ٨٠٣ ق. م، لتسيطر على شمال أفريقيا وجنوب إسبانيا طيلة أكثر من خمسة قرون متتالية، حتى اصطدمت مصالحها بمطامع روما، لتنشب الحروب بينهما، ويحل الرومان محل الفينيقيين في إسبانيا سنة ٢٠٥ ق. م.

(جـ) تحت حكم القوط الغربيين

يرتبط تاريخ الأندلس، قبل الفتح العربي الإسلامي، بهجرات القبائل الجرمانية. فمع هجرة الوندال إلى جنوب إسبانيا سنة ٤٠٩ م، انتهى الحكم الروماني لإسبانيا، بعد أكثر من ستة قرون، وتحديداً ٦١٤ سنة (٢٠٥ ق. م - ٤٠٩ م)، كانت كافية لانتشار اللغة اللاتينية والديانة المسيحية التي تركزت بشكل واضح في جنوب إسبانيا، قبل أن تنتشر في سائر أنحاء إسبانيا.

كان الوندال، أشد القبائل الجرمانية تخريباً وتدميراً[1]، وأمام ضغط القوط الغربيين، عبروا إلى المغرب سنة ٤٢٩م. وبذلك سيطر الوندال على المغرب الكبير، بينما سيطر القوط الغربيون على إسبانيا، حتى تمكنت بيزنطة من السيطرة على المغرب وإنهاء حكم الوندال سنة ٥٣٣ م، كما سيطرت على منطقة الوادي الكبير في جنوب إسبانيا سنة ٥٥٤ م. وبعد سبعين سنة من الحكم البيزنطي، تمكن القوط الغربيون من طرد البيزنطيين من الوادي الكبير سنة ٣ هـ/ ٦٢٤ م[2]، ليحكموا إثنتين وتسعين سنة، قبل أن ينتهي حكمهم نهائياً مع الفتح العربي الإسلامي سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م.

وعشية الفتح العربي الإسلامي، كان المجتمع الإسباني تحت حكم القوط، يعاني من تناقضات سياسية واجتماعية ودينية، تجلت بصورة واضحة في الفترة القصيرة التي بدأت مع اعتزال الملك وامبا Wamba الحكم سنة ٩١هـ/ ٧٠ م، أي طيلة ثلاثين سنة مهدت لسقوط دولة القوط نهائياً سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م.

فعلى الصعيد الاجتماعي، كان المجتمع القوطي يتألف من خمس طبقات جعلته منقسماً إلى وحدات غير متماسكة تتصارع في ما بينها، وهي: طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين وطبقة التجار والزراع وصغار الملاك وطبقة العبيد وطبقة اليهود. والحقيقة أن القوط الغربيين، عندما استقروا في جنوب إسبانيا، لم يغيروا كثيراً من نظم المجتمع التي كانت سائدة زمن الحكم الروماني[3]، فظلت طبقة النبلاء على ما كانت عليه من الغنى والنفوذ، وكان مجلس النبلاء يقوم باختيار الملك من هذه الطبقة عن طريق الانتخاب لا

---

(١) إبراهيم طرخان: دولة القوط الغربيين، ص ٨٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٨.
(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٦٢.

الوراثة على شرط أن يكون قائداً شجاعاً[١]. ومن هذه الطبقة أيضاً، يتم اختيار حكام الأقاليم والمدن، فقد كانت إسبانيا القوطية تضم عدة أقاليم Provinciae يحكم منها دوق Dux، وكل إقليم يشتمل على عدد من المدن Civitates يحكم كل منها قومس Comes[٢]، ويعاونهم طائفة من الموظفين[٣]. وظلت طبقة التجار والزراع وصغار الملاك تعيش تحت رحمة طبقة النبلاء التي تتحكم بالإقطاعيات الكبرى، بعد أن اغتصب القوط من الزراع الأحرار أراضيهم واستقروا فيها[٤].

أما طبقة العبيد «الأرقاء»، فهي أكبر الطبقات عدداً، تعد بالآلاف، ويعمل أفرادها في فلاحة أراضي الأغنياء والنبلاء الذين يسيئون معاملتهم، ويعتبرونهم جزءاً من ممتلكاتهم، حيث لا يوجد لهم حقوق، فلا غرو أن يتحين هؤلاء العبيد الفرصة للتخلص من هذا الوضع[٥]. وبذلك يمكن أن نحصر هذه الطبقات الثلاث في طبقتين هما: طبقة الأحرار وطبقة العبيد، وهما طبقتان متحاجزتان لا يمكن الربط بينهما حتى عن طريق الزواج[٦].

ولا يمكن إغفال دور طبقة رجال الدين التي أصبح لها شأن كبير بعد تحول القوط إلى الكاثوليكية، ونبذهم المذهب الأريوسي. فسيطرت هذه الطبقة روحياً ومادياً، فهي تملك الأراضي الواسعة المعفاة من الضرائب

---

(١) إبراهيم طرخان: دولة القوط الغربيين، ص ١٣٤.

(٢) Aguado Bleye: Manuel de la historia de Espana, T1, P. 361.

(٣) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٢١، ٢٢.

(٤) Reinhart Dosy: Histoire des Musulmans d'Espagne, T1 P. 265.
Aguado Bleye: Manuel de la historia de Espana, T1, P. 362.

(٥) Reinhart Dosy: Histoire des Musulmans d'Espagne, T1 P. 265.

(٦) Julian Marie Rubio: Historia de Espana, T2, P. 15.
Aguado Bleye: Manuel de la historia de Espana, T1, P. 361.

والأوقاف التابعة للكنائس والأديرة، وأخذت تعمل لمصالحها الخاصة دون النظر لمصالح الشعب[1]. وشكل كبار القساوسة الكاثوليك مجلساً يعقدونه في طليطلة للنظر في أمور الكنيسة، ما لبث أن تحول إلى مجلس سياسي ديني، ثم إلى مجلس طليطلة الذي يضم النبلاء والأساقفة ولا يجتمع إلا إذا دعاه الملك للانعقاد، وقراراته تؤلف القانون المدني لدولة القوط[2].

وكذلك يجدر التوقف قليلاً، عند طبقة اليهود التي كانت مكروهة من سائر الطبقات، وبخاصة النبلاء ورجال الدين الكاثوليك الذين اضطهدوهم، بسبب اختلاف الدين من جهة، وبسبب سيطرة اليهود على الحياة الاقتصادية وتعاطيهم الربا من جهة ثانية، كذلك أخذ اليهود، وهم كثرة في إسبانيا، يعملون على إسقاط دولة القوط، والاستعانة بالعرب المسلمين الذين يحكمون المغرب، حيث يتمتع فيه اليهود بالحرية الدينية.

وعلى الصعيد السياسي، ضعفت الروح الحربية عند القوط الذين استغرقوا في حياة الترف، في الوقت الذي كثرت فيه المؤامرات والمنافسات الدموية بين المرشحين للعرش، كما نمت فيه قوة الكنيسة التي أخذت تتدخل في الشؤون السياسية للدولة. فلا غرو أن تبلغ إسبانيا غاية السوء في نهاية عهد إخيكا Egica (٦٨ ـ ٨١ هـ/ ٦٨٧ ـ ٧٠٠ م)، وبداية عهد ابنه ويتيزا Witiza، أو غيطشة حسب التسمية العربية، الذي تولى الحكم منذ شوال ٨١ هـ/ تشرين الثاني ٧٠٠ م حتى وفاته سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٨ م، تاركاً ثلاثة أبناء صغار، أكبرهم المند Olmundo وأرطباس Artavasdes ووقلة Achila[3]. ويبدو أن مجلس

---

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٢٦.
(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٦٤.
(٣) أطلق ابن القوطية عليه اسم رمله Romulo، والصواب وقلة.
ابن القوطية القرطبي: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٢.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٤٠.

طليطلة أفتى بخلع ويتيزا عندما أقدم على تعيين إبنه الطفل وقلة ولياً للعهد من بعده تحت وصاية عمه رخشندش Rechesindo، واتفق صدرو القرار قبل وفاة غيطشة مباشرة، مما أدى إلى تحرك قادة الجيش وكبار النبلاء الطامعين في العرش، لاستصغارهم أبناء ويتيزا الثلاثة. والأرجح أن الكنيسة أطاحت بالملك ويتيزا بسبب موقفه المتشدد من امتيازات رجال الدين وسياسته المتسامحة مع أصحاب الأديان والمذاهب المخالفة لمذهب الدولة(١)، فاعتبرته ملكاً سيئاً مشغولاً بأموره الخاصة(٢). وعندما اندلعت الثورة في طليطلة، اضطر أبناء ويتيزا الثلاثة للفرار مع الوصي إلى جليقية. وهذا ما سهل الأمر، أمام رودريق Rodrigo أو لذريق حسب التسمية العربية، وهو دوق باطقة وحاكمها بقرطبة، أن ينتزع الملك من وقلة بعد إنزاله الهزيمة في الوصي رخشندش(٣) الذي قتل في المعركة وتفرق أتباعه. فالتجأ وقلة عند يوليان حاكم سبتة، بينما استبقى رودريق ولدي ويتيزا الآخرين إلى جانبه، وهما المند وأرطباس.

وبذلك انقسم الجيش والمجتمع الإسباني فريقين، أحدهما يوالي الملك الجديد رودريق، والآخر يؤيد الملك المخلوع وقلة(٤)، فدخلت البلاد في فوضى فقدت معها وحدتها السياسية، وفسدت حياتها الاجتماعية. في حين كان المغرب تحت الحكم العربي الإسلامي، يمثل قوة متماسكة عمادها البربر والعرب تحت راية الإسلام، وينتظر الفرصة السانحة لعبور المضيق وفتح الأندلس.

٢ ـ الدوافع العربية الإسلامية لفتح الأندلس

تتعدد الدوافع العربية الإسلامية التي عجلت بفتح الأندلس في فترة

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٤.
(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، جـ ١ ص ٣٢.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٣٥.
(٤) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٨.

قصيرة لم تتجاوز الست سنوات، من الدافع الاستراتيجي وحث البربر على الحرب والجهاد، إلى نمو البحرية العربية الإسلامية، والتحالف مع يوليان حاكم سبته.

(أ) الدافع الاستراتيجي

إن الجوار الجغرافي بين المغرب والأندلس، والتقارب العنصري بين الشعبين، والتجانس التاريخي منذ التوسع الاستعماري الفنيقي، جعل من هاتين المنطقتين اللتين لا يفصل بينهما سوى مضيق جبل طارق، بمثابة منطقة استراتيجية واحدة وهامة كل منهما، ولكل من سنحت له الفرصة لدخول إحداهما، إذ يصبح دخول الثانية ضرورة حتمية لحماية وجوده.

(ب) حث البربر على الحرب والجهاد

استغرق الفتح العربي الإسلامي للمغرب سبعين سنة، كانت كافية لتعريب قبائل البربر مع دخولهم الإسلام. فإذا كان الرومان والبيزنطيون قد سيطروا طيلة ثمانية قرون ونصف، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحويل المغرب إلى إقليم روماني أو بيزنطي، بل ظلوا مجرد جيوش احتلال. في حين اندمج المغرب في الدولة العربية الإسلامية، وصار له الطابع العربي الإسلامي حتى يومنا هذا. فلا غرو أن تتوق قبائل البربر، بعد تعريبها واعتناقها الإسلام، إلى الحرب والجهاد على غرار العرب المسلمين، ولم يكن أمامهم سوى عبور مضيق جبل طارق لإشباع هذه النزعة نحو الجهاد وكسب الغنائم[١]. لذلك لا يضير أن يكون الدافع الاقتصادي مكملاً للجهاد، فتثير كنوز طليطلة شهية المقاتلين سواء البربر أو العرب الذين انضموا معاً تحت راية الإسلام، وبخاصة أن إسبانيا كانت تعاني من الصراع الداخلي نتيجة الضعف السياسي والاجتماعي، مما جعلها فريسة سهلة لأي فاتح يقبل عليها من الشمال أو من

---

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٨.

الجنوب[1].

(جـ) نمو البحرية العربية الإسلامية

إن مجرد التفكير في عبور مضيق جبل طارق لفتح الأندلس، يقتضي عدم إغفال أهمية وجود أسطول بحري عربي إسلامي. وبالفعل تحولت تونس إلى قاعدة بحرية حصينة، يقلع منها الأسطول العربي تحت راية الإسلام في غرب البحر المتوسط، وهي التي مكنت العرب المسلمين من إنجاز المرحلة الأخيرة من مراحل فتح المغرب.

ورغم عدم تركيز المصادر العربية على الدور الذي لعبته البحرية العربية الإسلامية في فتح الأندلس، إلا إنه من المؤكد أن العرب المسلمين بذلوا نشاطاً بحرياً استعداداً لمثل هذا الفتح الذي يتطلب إنشاء القواعد وبناء الأساطيل البحرية وإرسال السرايا الاستطلاعية. ولا يضير إن استعانوا ببعض سفن حليفهم يوليان حاكم سبتة، ولكن مما لا شك أنهم اعتمدوا في الدرجة الأولى على القوى البحرية الذاتية في سبيل تحقيق هذا الفتح الكبير الذي اقتحم أوروبا لأول مرة في تاريخ الفتح العربي الإسلامي.

اعتمد العرب المسلمون في مساندة الحملات البرية لفتح المغرب، على سفن مصر، حتى سنة ٨٩ هـ/٧٠٨ م، عندما أسسوا داراً لصناعة الأسطول في تونس، بفضل الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أوعز إلى حسان بن النعمان[2]. ثم استكمل موسى بن نصير بناء دار الصناعة[3]، وقد ساعده في ذلك جماعة من أقباط مصر[4].

---

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1, P. 3.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، جـ ٢، ص ٦٢٨.

(٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٣٨، ٣٩.
ابن أبي دينار: المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس، ص ١١.

(٤) السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ٣٢.

(د) التحالف مع يوليان حاكم سبتة

يعتبر تحالف يوليان مع القائد العربي موسى بن نصير، من أهم الدوافع التي شجعت على فتح الأندلس. وهناك روايتان، إحداهما عربية والثانية إسبانية، حول السبب الحقيقي لتحالف يوليان مع العرب المسلمين.

فالرواية العربية الأصل[(١)]، يبدو فيها الخيال بشكل واضح، ليتخذ شكل الأسطورة. فهي تقوم على وازع الانتقام الشخصي، حيث تروي أن يوليان أرسل إبنته الجميلة فلورندا إلى القصر الملكي القوطي في طليطلة لتتعلم وتتأدب جرياً على عادة طبقة النبلاء. وعندما رآها الملك رودريق أعجب بجمالها واعتدى على شرفها، فأعلمت والدها بما جرى، فأخرجها من القصر، وعزم على الإنتقام قائلاً: «ودين المسيح لأزيلن ملكه ولأحفرن تحت قدميه». وتضيف الرواية أن رودريق طلب من يوليان أن يرسل إليه صقوراً للصيد جرياً على عادته، فرد عليه يوليان بقوله: «أيها الملك وحق المسيح، لئن بقيت لأدخلن عليك شذا نقات ما دخل عليك مثلها قط»، ويقصد بذلك عزمه على إدخال العرب المسلمين إلى الأندلس.

أما الرواية الإسبانية، وهي الأقرب إلى الحقيقة والواقع، فتذكر أنه بعد سيطرة رودريق على الحكم، التجأ الملك المخلوع وقلة بن ويتيزا مع أتباعه إلى يوليان حاكم سبتة الذي يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة ويتيزا[(٢)]، وطلب منه الاتصال بالعرب لفتح الأندلس، ظناً منه أن العرب سيكتفون

---

(١) Edouardo Saavedro: Esrudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, P. 53.

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٩.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٧.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص ٢٣٦.
مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٥.

بالغنائم وينسحبوا بعد التخلص من رودريق وتسليم الحكم إلى وقلة.

ويبدو أن الرواية العربية، هي من نسج خيال القصاص العرب، لأننا لم نعثر عليها في المصادر الإسبانية المعاصرة، رغم أنها دخلت في الأغاني الشعبية الإسبانية لتختلط بالتاريخ الإسباني كما لو كانت حقيقة تاريخية. بدليل أن يوليان لم يكن على علاقة طيبة برودريق حتى يرسل إليه إبنته فلورندا، كما أن سبته التي يحكمها يوليان تحولت إلى ملجأ للساخطين على حكم رودريق وفي طليعتهم الملك المخلوع وقلة. ورغم ذلك، فإننا لا نقلل من أهمية الرواية العربية، فلعل الهدف من نسجها، هو إذكار نار العامل النفسي، وإظهار مدى فساد رودريق، وتجييش سبتة وطليطلة معاً ضد حكمه قبل إنزال الهزيمة العسكرية به.

وعليه، فإن انتفاء أسطورة فلورندا، لا يعني غياب دور يوليان في عملية الفتح، لأن إتصالاته مع خصوم الملك رودريق في طليطلة وحملهم على التعاون مع العرب المسلمين، كان لها صداها النفسي المؤثر، حيث اعتقد هؤلاء أن دخول الحلفاء العرب، لن يكون أكثر من حملة تأديبية سرعان ما تنتهي لمصلحتهم. كما أن يوليان، كان حريصاً على الحفاظ على حكمه، بعد الفتح العربي الإسلامي لساحل شمال أفريقيا بأسره، باستثناء سبتة التي تركوه حاكماً عليها، فأراد التودد واكتساب ثقة العرب.

وتتفق المصادر العربية، على أن يوليان حاكم سبتة توجه بنفسه للقاء طارق بن زياد حاكم طنجة، وعرض عليه المساعدة في دخول الأندلس. فقاده على الفور إلى موسى بن نصير وكان مقيماً في القيروان، فرحب بهذا العرض[1]، وتم الاتفاق على أن يجهز موسى جيشاً ليرد إلى الملك المعزول وقلة عرشه مقابل جزية سنوية يؤديها للعرب.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٩٠.
ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٦.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٨.

ورغم ذلك، لم يكن موسى بن نصير قد وثق بيوليان، فكتب إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يستأذنه، فرد الوليد يأمره بأن يخوض الفتح أولاً بالسرايا حتى يختبرها، وألا يغرر بالمسلمين في بحر الزقاق الشديد الأهوال[1].

٣ ـ الغارة الإستطلاعية بقيادة طريف بن مالك المعافري (٩١ هـ/ ٧١٠م)

عمل موسى بن نصير بنصيحة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، فطلب من يوليان أن يشن الغارة على ساحل جنوب الأندلس، ليتأكد من صدق نواياه. وبالفعل عبر يوليان المضيق في مركبين، وشن الغارة، فقتل وسبا وغنم، وشاع الخبر فتحمس المسلمون للفتح[2].

ولم يكتف موسى بن نصير بهذه الغارة الاستطلاعية، فأرسل أحد كبار قواده طريف بن مالك ويكنى بأبي زرعة في غارة استطلاعية أخرى. فعبر المضيق في أربع سفن على رأس سرية مؤلفة من خمسمائة مقاتل، بينهم مائة من الفرسان وأربعمائة من المشاة، وذلك في رمضان ٩١ هـ/ تموز ٧١٠ م. ثم نزل مع سريته في المكان الذي حمل إسمه في ما بعد، أي مدينة طريف Tarifa، ومنه شن سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبي للأندلس، بين طريف والجزيرة الخضراء.

وعاد طريف بن مالك إلى طنجة سالماً، بعد أن سبى وغنم المال الكثير. وعندها وثق موسى بن نصير بحليفه يوليان وتأكد من ضعف المقاومة الإسبانية، واشتد عزمه على فتح الأندلس.

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٣٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٤، ٢١٧ .

وإذا كان بعض المؤرخين العرب، يعتبرون طريف بن مالك من البربر، فإن الحميري والمقري يسميانه طريف بن ملوك المعافري[1]، والرازي يسميه طريف بن مالك المعافري، وابن خلدون يسميه طريف بن مالك النخعي، مما يعني أنه عربي ينتسب إلى معافر أو نخع اليمنية. ومن المستبعد أن يبعث موسى بن نصير الطليعة الاستطلاعية الأولى تحت قيادة قائد غير عربي، وإن بعث بعده مباشرة حملة كبرى لفتح الأندلس بقيادة القائد البربري طارق بن زياد، وجلّ جنودها من البربر.

٤ ـ حملة طارق بن زياد (٩٢ ـ ٩٣ هـ/ ٧١١ ـ ٧١٢م)

أعدت الخطة لفتح الأندلس بدقة متناهية، فبعد الغارة الاستطلاعية بقيادة طريف بن مالك المعافري، وهو عربي الأصل، اختار موسى بن نصير قائداً بربرياً من نفرة[2] هو طارق بن زياد على رأس حملة من سبعة آلاف[3] جلهم من البربر، باستثناء ثلاثمائة من العرب. ومثل هذا الاختيار يحدث لأول مرة في تاريخ الفتح العربي الإسلامي، حيث تشكل جيش من سكان المناطق المفتوحة لفتح قطر كبير هو الأندلس. ومع ذلك، فإن موسى بن نصير، شكل مجلساً قيادياً معظم عناصره من العرب مثل: عبد الملك بن أبي عامر المعافري، ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك، وعلقمة اللخمي. وهذا ما يؤكد حرصه على نجاح خطة الفتح، فالبربر هم أكثر معرفة من العرب

---

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٨.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢١٤.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٧.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٩.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٣٨.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٦.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٣٨.

بلاد الأندلس التي لا يفصلها عن بلادهم «المغرب» سوى مضيق بحر الزقاق، ومثل هذه الحملة تزيد من ثقتهم بالعرب بعد انضوائهم معاً تحت راية الإسلام.

كما أن موسى بن نصير، لم يأذن لحملة طارق بن زياد، بعبور المضيق، إلا بعد أن أيقن من الدور الخطير الذي يقوم به يوليان بتوفير الأخبار الدقيقة بسرعة متناهية عن الأوضاع الداخلية في مملكة القوط، وتأكد من خروج الملك روردريق من عاصمته طليطلة التي تعج بالمتآمرين، لقمع تمرد الباسك في بنبلونة شمال إسبانيا[1].

(أ) معركة جبل طارق (٥ رجب ٩٢ هـ/٢٨ نيسان ٧١١م)

أبحرت حملة طارق بن زياد من ميناء طنجة في يوم الجمعة ٥ رجب ٩٢ هـ/٢٨ نيسان ٧١١ م، على متن بعض سفن الأسطول العربي الإسلامي. ولا يعقل، كما تذكر المصادر، أن تكون أربع سفن فقط تابعة ليوليان[2]، أو بعض مراكب تجار الروم «البيزنطيين» التي تتردد على الساحل الجنوبي للأندلس[3] استخدمها يوليان، كافية لنقل سبعة آلاف مقاتل عدا الخيل والعتاد. كما لا يعقل أن يعهد موسى بن نضير مثل هذه المهمة، إلى حليفة الأجنبي يوليان، مهما عظمت ثقته به، ويجعل مصير الحملة يتوقف عليه. وإذا اعتبرنا أن السفينة الواحدة تتسع لمائتي جندي، فإن عبور الحملة يحتاج إلى خمس وثلاثين سفينة إضافة إلى سفن أخرى لنقل المعدات والأقوات. أما السفن

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٧.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ١ ص ٢٣٩.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٦.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٣٨.
ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٩٠.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٨.

الأربع، فتحتاج إلى أكثر من يومين لتأمين عبور الحملة وهي تنقلها فوجاً بعد فوج مرات عديدة.

لا شك، أن موسى بن نصير، اعتمد على الأسطول العربي الإسلامي الذي يجوب ساحل المغرب انطلاقاً من قاعدته البحرية في تونس، لتسهيل عبور حملة طارق بن زياد. ولا يضير أبداً إن كان استعان بالسفن الأربع التي يملكها يوليان أو بعض سفن التجار البيزنطيين، إمعاناً في الحيلة والخداع، حتى لا يثير الريبة لدى ملك القوط رودريق أثناء إنشغاله بتأديب الباسك في شمال الأندلس. وهذا لا يعني، أن الحملة لم تلق مقاومة أثناء نزولها في الساحل الجنوبي للأندلس الذي يضم قاعدة استراتيجية هامة للقوط، متمثلة بالجبل الذي ما لبث أن حمل اسم جبل طارق نسبة إلى الفاتح طارق بن زياد.

ويصف ابن كردبوس عملية نزول الحملة عند سفح هذا الجبل، والمقاومة التي أبداها القوط، مما اضطر طارق بن زياد لتغيير خطة النزول المقررة، فنزل مع جنوده في مكان آخر صخري وعر، مستخدماً براذع الدواب ومجاذف السفن في خوض المياه وارتقاء الصخور، مما شكل حركة التفاف بارعة أثناء الليل حول جنود العدو المتحصنين في الجبل، فانقض عليهم فجأة وأوقع بهم وغنمهم.

وبذلك سيطر طارق بن زياد على الجبل الإستراتيجي الذي حمل اسمه منذ ذلك التاريخ «جبل طارق»، وأصبح المضيق الذي عبرته الحملة يعرف أيضاً بمضيق جبل طارق.

(ب) موقعة وادي لكة (٢٨ رمضان ٩٢ هـ/ ١٩ تموز ٧١١ م)

بعد سيطرته على الجبل الذي حمل اسمه، بنى طارق بن زياد سوراً

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٣.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢١٨.

حوله سمّاه «سور العرب»[١]. ثم استولى على قرية قرطاجنة الجزيرة والمنطقة المحيطة بها[٢]، وأقام قاعدة عسكرية على الساحل في موضع يقابل الجزيرة الخضراء لحماية ظهيره في حال قيام القوط بأي هجوم وانسحاب جيوشه، وتحولت هذه القاعدة في ما بعد، إلى مدينة الجزيرة الخضراء[٣]. وبالقرب من الجزيرة الخضراء، تمكنت حملة طارق بن زياد، من إبادة فرقة قوطية بقيادة بنشو Bancho[٤] الذي ذكرته المصادر العربية باسم «بنج»[٥]. وواصلت تقدمها حتى بلغت بحيرة لاخندا، في الوقت الذي كان فيه ملك القوط، رودريق منهمكاً في إخماد تمرد الباسك في بنبلونة شمال إسبانيا، مما حدا ببعض المؤرخين لاعتبار هذا التمرد خطة مفتعلة بإيعاز من معارضي الملك لالهائه عن عبور حملة طارق بن زياد للمضيق وزحفها داخل الأندلس. لذلك، فما إن علم روردريق بأخبار الحملة، حتى أسرع بالعودة إلى عاصمته طليطلة، وأعد جيشاً تقدم به نمو قرطبة بانتظار حشد جميع قواته التي بالغ المؤرخون العرب في تعدادها، فقيل أنه جمع مائة ألف[٦]، وقيل سبعين ألفاً[٧]، ليصل العدد إلى ستمائة ألف مع الحميري[٨]، وهذه مبالغة واضحة

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٥١.

(٢) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1, P. 19.

(٣) Edouardo Saavedra: Esrudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, P. 66.
حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٧٠.

(٤) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٧٥.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٤٢.

(٥) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٧.

(٦) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٢٥.

(٧) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٠.

(٨) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢١٦.

جداً. والأرجح، أن الجيش القوطي لم يتجاوز الأربعين ألفاً[١]، ومثل هذا العدد كاف لإنزال الهزيمة بحملة طارق بن زياد الذي كتب إلى موسى بن نصير يطلب المدد، فأرسل إليه خمسة آلاف بقيادة طريف بن مالك، عبروا المضيق، لتصبح الحملة إثني عشر ألفاً، مما يؤكد الدور الذي لعبه الأسطول العربي الإسلامي في التمهيد لفتح الأندلس.

دارت المعركة الفاصلة بين طارق بن زياد ورودريق في كورة شذونة جنوب غرب إسبانيا، وهي كورة واسعة جعلت المؤرخين يختلفون حول مكان المعركة بداخلها. فيرى البعض أنها حدثت في وادي لكّة Guadalete شمال كورة شذونة[٢]، في حين يرى البعض الآخر أنها حدثت في جنوب الكورة عند وادي برباط Rio Barbate أو وادي بكة[٣]، وهو النهر الذي يخترق بحيرة لاخندا Laguna de la Janda، وافترض هؤلاء أن إسم وادي لكة تحريف لإسم وادي بكة. أما ليفي بروفنسال فيرى أن المعركة وقعت عند البحيرة، مفسراً إسم وادي لكّة على أنه تعريب لكلمة Lago أو Locus ومعناها البحيرة[٤].

ورغم ذلك، يتفق المؤرخون على اسم المعركة، وهو معركة وادي لكّة، حتى ولو كان محرفاً من وادي بكة، وسواء أكان في شمال كورة شذونة أو في جنوبها، فقد وقعت المعركة في يوم الأحد ٢٨ رمضان ٩٢هـ/ ١٩ تموز ٧١١ م، أي بعد ثلاثة وثمانين يوماً من عبور حملة طارق بن زياد للمضيق الذي حمل اسمه. وتعتبر من المعارك الفاصلة في التاريخ، استمرت ثمانية

---

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٦٩.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢١٧، ٢١٨.

(٢) Edouardo Saavedra: Esrudio sobre la invasion de los Arabes en Espana. P. 60 - 68.

(٣) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1, P. 20, 21.

أيام[١]، لتنتهي يوم الأحد ٥ شوال ٩٢ هـ/٢٦ تموز ٧١١ م، بإنزال الهزيمة الساحقة بجيش رودريق[٢]. ولا يمكن إغفال الدور الذي لعبه يوليان ورجاله في إرشاد جيش طارق بن زياد وإمداده بالأخبار والمعلومات، فضلاً عن دور إبني الملك السابق ويتيزا اللذين استبقاهما الملك رودريق وقلدهما ميمنة الجيش القوطي وميسرته، فانتهزا الفرصة للانقلاب عليه أثناء المعركة، حسب اتفاقهما مع يوليان وطارق، وانضم إليهما عدد كبير من قادة الجيش اعتقاداً منهم أن هدف المسلمين الحصول على الغنائم والخيرات، ثم العودة إلى المغرب، بعد إسقاط حكم رودريق الذي قيل أنه قتل في المعركة على يد طارق بن زياد بعد أن أجتز رأسه بالسيف[٣] وبعث به إلى موسى بن نصير، وقيل أنه رمى نفسه في وادي لكة ولم يعثر له على أثر[٤]، وأن المسلمين وجدوا فرسه الأبيض وكان عليه سرج من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد[٥].

وهذا كله، لا ينفي بطولة حملة طارق بن زياد التي انضم إليها طريف بن مالك، فقضى منهم ثلاثة آلاف من أصل إثني عشر ألفاً، لأن الفيء قسم على تسعة آلاف[٦]. كما لا ينفي أهمية الدور الذي لعبه طارق بن زياد في

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٣٣، ٢٤٣.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص ١١.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٦٩.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٤ ص ٢٦٩.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٩٦.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٩٦.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٠.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٢٣، ٢٢٧.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٢٣.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٤٢.

(٥) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٩.

(٦) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٤٣.

قيادة الحملة، حتى دخل الأسطورة مع رواية حرق السفن والخطبة التي أصبحت وكأنها الحافز الرئيسي لتحقيق النصر في وادي لكة، ثم فتح الأندلس.

(جـ) رواية حرق السفن وخطبة طارق بن زياد

تحولت الرواية الشائعة عن إحراق طارق بن زياد للسفن، بعد نزوله الساحل الجنوبي للأندلس وسيطرته على الجبل الذي حمل اسمه، كي يقطع على جنوده أي تفكير في الانسحاب إلى المغرب فيقاتلوا حتى الموت، إلى ما يشبه الأسطورة التي دخلت فيها خطبته الشهيرة ومطلعها يقول[١]:

«أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...».

وتختلف الروايات الثلاث حول سبب إحراق السفن، فابن الكردبوس يرى فيها شحذاً للقتال بقول طارق لجنوده: «قاتلوا أو موتوا»[٢]. في حين تشير روايتا الإدريسي والحميري[٣] إلى خشية طارق من الجنود العرب الذين خالهم لن ينزلوا معه إلى الجبل، فيتخلص بذلك من التهم التي قد يوجهونها ضده لدى موسى بن نصير في حال انسحابهم بالسفن نحو المغرب.

ورغم ذلك كله، لا يمكن إثبات أو نفي رواية حرق السفن التي يميل المؤرخون المحدثون إلى إنكار صحتها من أساسها كحدث تاريخي. كما يدور

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٢٥.
ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، جـ ٢ ص ١١٧.
ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ ٤ ص ٤٠٤.
(٢) ابن الكردبوس: الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ص ٤٦، ٤٧.
(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٣٦.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٧٥.

الشك حول الخطبة الشهيرة التي تعتبر قطعة أدبية فريدة يعجز مثل طارق بن زياد البربري على صياغتها، كما يعجز جنوده البربر الذين دخلوا الإسلام حديثاً على فهمها لأنهم مثله من البربر. ولكن مثل هذا التحليل المنطقي، لا ينفي وجود خطبة لطارق بن زياد على عادة القادة الفاتحين، قالها باللسان البربري في هذا الموقف التاريخي لحث جنوده البربر على القتال.

ومما لا شك فيه، أن مثل هذه الرواية والخطبة، إن كانت حقيقة أو من نسج الخيال، تشير إلى الدور البطولي الذي قام به القائد البربري طارق بن زياد على رأس حملة جلّ عناصرها من البربر الذين كانوا حتى الأمس القريب تحت الحكم البيزنطي.

(د) فتح طليطلة عاصمة القوط

أدرك طارق بن زياد أهمية انتصاره في وادي لكّه، وضرورة الإسراع في القضاء على فلول الجيش القوطي. عملاً بنصيحة يوليان الذي حذره من خطورة تجمعهم في العاصمة طليطلة والتحصن فيها، وإمكانية تنصيب حليفه وقلة ملكاً على القوط، مما يعرقل فتح البلاد.

لذلك، اتجه طارق نحو قلعة استجة Ecija التي قاومت بشدة نتيجة تجمع فلول القوط فيها، فشكلت الخط الدفاعي الأول عن العاصمة طليطلة، لكنه ما لبث أن أرغم صاحب القلعة على الصلح، وفرض عليه الجزية[١]. ثم مضى طارق مسرعاً بمعظم جيشه نحو العاصمة طليطلة، بعد أن أرسل ثلاث فرق من أستجة، إحداها إلى مالقة Malaga، والأخرى إلى البيرة Elvira، وأبرزها الثالثة التي ضمت سبعمائة فارس وقادها مغيث الرومي مولى الوليد بن

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٩.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١، ص ٢٤٤.

عبد الملك، ثم اتجه بها نحو قرطبة فدخلها بسهولة[١]، بعد فرار حاكمها الذي تحصن مع فرسانه الأربعمائة في كنيسة شنت أجلح غرب قرطبة. وبعد حصار الكنيسة طيلة ثلاثة أشهر، تمكن مغيث الرومي من أسر الحاكم وفرسانه[٢].

دخل طارق بن زياد العاصمة طليطلة دون مقاومة تذكر سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م، فقد كانت شبه خالية «ليس فيها إلا اليهود في قوم قلة، وفر علجها مع أصحابه، ولحق بمدينة خلف الجبل، بعد أن ضم اليهود، وخلى معهم بعض رجاله وأصحابه بطليطلة»[٣]. وبعد مطاردة الفارين خلف جبل Cerro de San juan del Viso[٤] إلى طليطلة، حيث أصاب غنائم هائلة من الذهب والفضة والتحف والآثار النفيسة من كنائس العاصمة وقصورها[٥].

وهكذا، تمكنت حملة طارق بن زياد من إنزال الهزيمة الساحقة بجيش القوط الغربيين في وادي لكّة، والتوغل شمالاً، ودخول العاصمة طليطلة، في سرعة مذهلة، لتتحول المقاومة القوطية إلى المناطق الجبلية المهجورة في إقليم استرامادور غرب الأندلس. وهذا ما اقتضى تحرك حملة جديدة بقيادة

---

(١) Ocana Jiménez: La Basilica de San Vicente y la gran Mezquita de Cordoba, Al - Andalus, P. 347 - 366.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١٤.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٥.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٤٦.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٧.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٤٨.

(٤) Edouardo Saavedra: Esrudio sobre la invasion de Los Arabes en Espana, P. 79.

(٥) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٣١.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٧٠.

موسى بن نصير، تعبر المضيق، لاستكمال فتح جنوب الأندلس وغربه، حماية لخط الرجعة[1] على حملة طارق بن زياد التي غامرت بدخول الأندلس من وسطه قبل التمكن من السيطرة على غربه وشرقه.

٥ ـ حملة موسى بن نصير
(رمضان ٩٣ ـ ٩٥ هـ/حزيران ٧١٢ ـ ٧١٤م)

عبر موسى بن نصير مضيق جبل طارق، على رأس حملة من ثمانية عشر ألفاً، يقال إن عشرة آلاف منهم كانوا من العرب والباقين من البربر[2]. وذلك بعد أن أعد أسطولاً بحرياً كبيراً في دار الصناعة بتونس.

نزل موسى في الجزيرة الخضراء التي اتخذها يوليان مقراً له، فاطلع منه على المعاقل القوطية الهامة التي بقيت خارج السيطرة[3]، لذلك سلك الطريق الغربي الذي لم تسلكه حملة طارق بن زياد، فافتتح مدينة شذونة Sidona، ثم قلعة جابو، وقرمونة Carmona[4]، وهي جميعاً تمثل المراكز الدفاعية الأمامية لمدينة اشبيلية.

(أ) فتح اشبيلية

تعتبر مدينة اشبيلية من أعرق مدن الأندلس وأكبرها، ولم تسقط بيد موسى بن نصير إلا بعد حصار دام عدة أشهر، وبفضل مساعدة الأسقف دون أبه والجالية اليهودية[5]. وكما فعل مغيث الرومي في قرطبة، فإن موسى بن

---

(١) Edouardo Saavedra: Esrudio Sobre la invasion de los Arabes au Espana, P. 92.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١٥.

(٣) إبراهيم العدوي: موسى بن نصير، مؤسس المغرب العربي، ص ٩٢.

(٤) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١٦.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٢٠.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٥٢.

(٥) Reinhart Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne. T1, P. 274, 275.

نصير ضم يهود اشبيلية إلى قصبة المدينة مع جماعة من المسلمين لحفظها، ومضى مع معظم الجيش نحو مدينة ماردة Merida التي حاصرها حتى مستهل شوال ٩٤ هـ/ ٣٠ حزيران ٧١٣ م ليدخلها صلحاً. وأثناء حصار ماردة، ثار أهل اشبيلية على الحامية التي تركها موسى، فأرسل إبنه عبد العزيز بن موسى على رأس جيش، فتمكن من استرجاع اشبيلية.

(ب) اللقاء بين موسى بن نصير وطارق بن زياد

كان رودريق يتزعم المقاومة القوطية التي أخذت تتجمع في الجزء الشمالي من غرب الأندلس، وكادت أن تغير الوضع العسكري لصالحها لو تمكنت من إحكام سيطرتها على اشبيلية ومنع عبد العزيز بن موسى من إعادة فتحها. ومع ذلك، تحصن رودريق وجنوده في شعاب جبال سييرا دى فرانثيا Sierra de Francia، منتظراً الفرصة السانحة للانقضاض على الفاتحين المسلمين.

لذلك طلب موسى بن نصير لقاء طارق بن زياد، للتنسيق في هذه المرحلة من فتح الأندلس، وتم اللقاء عند نهر التاجو Tajo، في وسط الطريق ما بين طليطلة وطلبيرة Talavera. وقيل إن موسى بن نصير وبخ طارق بن زياد على مخالفته لرأيه، بتسرعه في اقتحام الأندلس من الوسط، فاعتذر إليه طارق، واصطلحا، وأمره، بالتقدم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه[1]. ومهما قيل عن الخلاف بين القائدين[2]، فإن خطة فتح الأندلس كانت معدة سلفاً ومدبرة تدبيراً محكماً بين موسى بن نصير وطارق بن زياد،

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٥٥.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص ٢٠٧.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٩٦ .
حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٨٤.
ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥، ٣٦.

بالتعاون مع يوليان. وهي خطة حربية تنم عن براعة، لأنها تؤدي إلى الإيقاع بالعدو بين فكي كماشة، فبعد أن اقتحم طارق الأندلس من الوسط تحرك موسى في طريق آخر نحو الغرب، لتنتهي خطة التطويق بالتقاء القائدين عند العاصمة القوطية طليطلة نفسها. وهذا ما حدث بعد إنزال الهزيمة بالقوط في معركة سيغويلا.

(جـ) موقعة سيغويلا «السواقي» (ذو الحجة ٩٤ هـ/ أيلول ٧١٣ م)

قاد موسى بن نصير الحملة الكبيرة بعد انضمام طارق بن زياد، ليطارد القوط خلف القمم الشمالية لجبال سييرا دى فرانثيا، عابراً الطريق الوعر فانتهز رودريق الفرصة للانقضاض على الحملة أمام بلدة سيغويلا دى لوس كورنخوس Seguela de los Cornejos، قرب بلدة تمامس Tamames، حيث وقعت المعركة الفاصلة الثانية في ذي الحجة ٩٤ هـ/ أيلول ٧١٣ م. وفي هذه المعركة، لقي رودريق مصرعه على يد مروان بن موسى بن نصير[١]، وتم دفنه في مدينة بيزو Viseo، لتدور حوله الكثير من الملاحم الإسبانية.

ثم دخل موسى مدينة طليطلة، فأقام بها طوال شتاء سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤م.

(د) فتح شمال الأندلس (٩٥ هـ/ ٧١٤ م)

وفي ربيع سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م، سار موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد نحو سرقسطة التي سماها العرب «المدينة البيضاء». ثم سلك كل منهما طريقاً، فسار طارق بحذاء الضفة اليسرى لنهر إبرو، فدخل إقليم شية Ejea في طاعة المسلمين، واستولى على أماية واستورقة Astorga. في حين سار موسى بحذاء الضفة اليمنى لنهر إبرو، وافتتح حصن بارو Villabaruz، ودخل

---

(١) Edouardo Saavedra: Esrudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana, P. 101.

اشتوريش واستولى على قلعة سانتا ماريا دى لوغو Santa Maria de lugo، ثم استولى على خيخون، وبلغ شاطىء البحر الشمالي عند حدود فرنسا الجنوبية.

(هـ) عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق (٩٥ ـ ٩٦ هـ/ ٧١٤ ـ ٧١٥م)

وأثناء تحرك موسى بن نصير لفتح شمال الأندلس، جاء مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك، يأمره بالخروج من الأندلس وإيقاف الفتح، والعودة إلى دمشق. وتمكن موسى من إقناع رسول الخليفة بالتمهل قليلاً ريثما يفتح جليقية[١]، وعندما تأخر في العودة، أرسل الخليفة رسولاً آخر يكنى أبا نصر، فلم يجد بداً من العودة، ووافاه طارق بن زياد في الطريق.

عاد موسى بصحبة طارق ورسولي الخليفة إلى جنوب الأندلس، فوصلوا طليطلة، ومنها إلى قرطبة، ثم إشبيلية التي اختارها عاصمة للأندلس واستخلف فيها إبنه عبد العزيز بن موسى في ذي القعدة ٩٥ هـ/آب ٧١٤م. ثم مضى إلى دمشق ومعه مائة من أشراف العرب ومائة من قادة البربر، ويجر وراءه الشيء الكثير من غنائم الأندلس، فمر بالقيروان ثم بمصر. وفي فلسطين، قيل وافاه الأمير سليمان بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد وولي عهده، كما قيل أنه كتب إليه، طالباً منه الإبطاء، لأن الخليفة مريض، فيدخل موسى دمشق بتلك الغنائم في أول خلافة سليمان، فيعظم بذلك مقامه. لكن موسى رفض هذا الطلب، ووصل دمشق في جمادى الأولى ٩٦ هـ/كانون الثاني ٧١٥م والخليفة يحتضر، فحقد عليه سليمان بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد أربعين يوماً من وصوله، وصب جام غضبه عليه[٢].

وفي رواية أخرى، أن موسى بن نصير وصل بعد وفاة الوليد بن عبد

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١، ص ٢٥٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١ ص٢٦٢.

الملك، وكان طارق بن زياد ومغيث الرومي قد سبقاه، ورمياه بالخيانة عند الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك، فتعرض للعزل والحبس[1].

ومع ذلك، لا يمكن الجزم بهاتين الروايتين. ولعل سليمان بن عبد الملك يعود إلى ما بلغه من سعي موسى بن نصير لفصل المغرب والأندلس عن الخلافة بعد أن ولى أولاده الثلاثة عليهما. فقبل خروجه من الأندلس استخلف عليها إبنه عبد العزيز بن موسى وترك معه حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع وزيراً له[2]، كما استخلف إبنه الأكبر عبد الله على أفريقية، وإبنه مروان على طنجة. دون إغفال العملة الذهبية والبرونزية التي ضربها في دار السكة القوطية بطليطلة[3] لصرف رواتب الجند سنة ٩٤هـ/ ٧١٣ م، وكانت العملة الذهبية تحمل نقوشاً كتابية لاتينية وعربية، في حين حملت العملة البرونزية إسم موسى بن نصير وصورة وجهين. ولا يستبعد أن يكون مغيث الرومي قد شكاه إلى الخليفة لطمعه في ولاية الأندلس التي عاد إليها في ما بعد[4]، حيث عاش حياة عادية.

وقيل أن موسى بن نصير مات فقيراً منسياً في بلاد الشام، وهو في طريقه إلى الحج سنة ٩٧ هـ/ ٧١٩ م. كما قيل أن سليمان بن عبد الملك عفا عنه بفضل تدخل عمر بن عبد العزيز، فاستبقاه إلى جانبه رحمة بشيخوخته وقد شارف الثمانين، وأنه كانت برفقته عندما مات وهو في طريقه إلى الحج[5].

ومما لا شك فيه أن طارق بن زياد قدم إلى دمشق مع موسى بن نصير،

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٢٠.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٦٢.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٠.
(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٩٩.
(٤) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٤ ص ١١.
(٥) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص ١٨٤.

لتنتهي قصته أيضاً في صمت. مما يستدعي التوقف قليلاً، عند نهاية معظم القادة الفاتحين الذين صنعوا الانتصارات التاريخية التي قامت عليها لدولة العربية الإسلامية، وهي نهاية تتطلب دراسة خاصة. فقد أثبت موسى بن نصير في المغرب والأندلس، كما أثبت طارق بن زياد في الأندلس، أنهما من أعظم قادة المسلمين، لا يقلان شأناً عن خالد بن الوليد سيف الله المسلول، ولم يمت الثلاثة في المعركة، بل على فراش الموت.

٦ ـ حملة عبد العزيز بن موسى (٩٥ ـ ٩٧ هـ/ ٧١٤ ـ ٧١٦ م)

تولى عبد العزيز بن موسى الأندلس، بعد رحيل والده موسى بن نصير برفقة طارق بن زياد إلى دمشق، فأعد حملة لفتح شرق الأندلس وجنوبه الشرقي، وهي المناطق التي لم يصل إليها الفاتحين الكبيرين، وذلك بعد استكمال فتح غرب الأندلس (البرتغال حالياً).

(أ) فتح شرق الأندلس

اتجه عبد العزيز بن موسى، نحو شرق الأندلس، عبر جنوبه الشرقي، فافتتح مالقة وغرناطة عنوة، قبل أن يتجه إلى كورة تدمير (مرسية زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط). فقد تركزت المقاومة القوطية في هذه الكورة التي سميت كذلك نسبة إلى أميرها تدمير بن عبدوش Teodomiro Ergobado الذي حلت به الهزيمة في قرطاجنة[١]، فالتجأ إلى حصن أوريولة، وهو يمثل حاضرة الكورة، في قلة من الرجال. ثم لجأ إلى الحيلة، وأمر النساء بقص شعورهن، والوقوف مع الرجال على أسوار الحصن وهن في زي القتال[٢].

---

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٥١.

(٢) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٤٧.
مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١٣.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٦.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٥٢.

فخيل لعبد العزيز بن موسى أن الحامية كبيرة العدد، فأخذ يفاوض الرسول وهو لا يدري أنه الأمير تدمير نفسه الذي ما لبث أن كشف عن شخصيته بعد عقد الصلح، وتبين للمسلمين حيلته بعد دخولهم الحصن.

وهذا هو النص الحرفي لكتاب الصلح الذي أرسله عبد العزيز بن موسى إلى تدمير بن عبدوش[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير، لتدمير بن عبدوش، أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه ﷺ، ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر، ولا ينزع من ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهوا على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن كنائسه ما يعبد، وذلك ما أدى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن: أوريوله وبلتنة ولقنت ومولة وبلانة ولورقة وأله، لا يأوي لنا آبقاً، ولا يأوي لنا عدواً، ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم خبر عدو علمه، وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط خل، وقسطي عسل، وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك. وكتب في رجب سنة ٩٤ من الهجرة».

ورغم أن المصادر العربية جعلت تاريخ عقد كتاب الصلح في رجب ٩٤ هـ/ نيسان ٧١٣ م، إلا إن الصواب هو محرم ٩٦ هـ/ أيلول ٧١٤ م[2]، لأن

---

(١) نص كتاب الصلح:
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٦٣.
الضبي: بغية الملتمس في تاريخ عظماء الأندلس، ص ٢٥٩.
ابن الدلائي «العذري»: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، ص ٤، ٥.

(٢) Edouardo Saavedra: Esrudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, P. 132.
Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1, P. 32, 33.

موسى بن نصير لم يغادر الأندلس إلا بعد استخلاف إبنه عبد العزيز في ذي القعدة ٩٥ هـ/ آب ٧١٤ م.

ويبدو أن عبد العزيز بن موسى، دخل برشلونة وجرندة دون مقاومة، قبل أن تصل حملته إلى أربونة[١] بين سنتي ٩٥ ـ ٩٧ هـ/ ٧١٤ ـ ٧١٦ م.

(ب) فتح غرب الأندلس

يرى البعض أن استكمال عبد العزيز بن موسى فتح غرب الأندلس، جرى قبل رحيل والده إلى دمشق[٢]. في حين يرى البعض الآخر أنه جرى بعد توليه الأندلس ورحيل والده[٣]، عندما زحف نحو يابرة Evora وشنترين Santaren وقلمرية Coimbra، ليتوقف عند استورقة، قبل أن يتوجه نحو جنوب شرق الأندلس ومنه إلى شرقيها.

وتبقى ثغرة هامة، أهملها عبد العزيز بن موسى، أثناء فتحه غرب الأندلس، حيث توقف عند استورقة، كما أهملها موسى بن نصير وطارق بن زياد قبله، فلم يسيطر العرب سيطرة تامة على إقليم اشتوريش Asturias في شمال غرب الأندلس. ويعود هذا الإهمال، إلى وعورة المسالك والبرد الشديد، مما ساعد بعض فلول الجيش القوطي بزعامة بلاي Pelayo (توفي سنة ١١٩ هـ/ ٧٣٧ م)، على الالتجاء إلى إحدى قمم الجبال الشامخة وتدعى أونجا Onga وبها مغارة حملت الاسم نفسه Cueva do Onga لتلفظ بكلمة واحدة كوفادونجا Cova donga، ودعاها العرب «صخرة بلاي» لأن بلاي

---

(١) Françisco Codera: Narbona ,Gerona y Barcelona bajo la dominacion musulman, en Estudios Criticos de la Historia Arabe. P. 293.

(٢) Edouardo Saavedra: Esridio sobre la invasion de los Arabes en Espana, P. 127.

(٣) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1, P. 30.

اختبأ بها وجنوده أثناء حصار المسلمين، وعاشوا على عسل النحل الذي وجدوه في خروق الصخر، قبل أن ينسحب المسلمون عن هذه المنطقة القاحلة الباردة، إهمالاً أو استخفافاً[1] بمثل هذه القوة العسكرية الصغيرة التي تمركزت داخل «كوفادونجا»، لتتحول إلى نواة حركة المقاومة المسيحية في الأندلس.

(جـ) اغتيال عبد العزيز بن موسى (٩٨ هـ/ ٧١٧م)

تعرض عبد العزيز بن موسى، لمؤامرة دبرها كبار قواده يتقدمهم حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع، وزياد بن عذرة البلوي، وزياد بن نابغة التميمي، فاغتالوه سنة ٩٨ هـ/ ٧١٧ م[2]. ثم أشاعوا أنه تنصر بعد زواجه من أيلة Egilona أرملة رودريق التي أصبحت تعرف بـ أم عاصم، وأنه بتأثير منها، وبعدما بلغته الأخبار عن المعاملة السيئة التي لقيها والده من الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، عازم على خلع الدعوة لبني أمية والاستقلال بالأندلس. وقيل أن الخليفة الأموي غضب لمقتل عبد العزيز بن موسى، فولى محمد بن يزيد على أفريقية وأمره بالتحقيق، فوجده بريئاً مما نسب إليه، وأسف على قتله[3].

ومهما يكن، فيبدو أن العلاقة بين عبد العزيز بن موسى وبين كبار قادة الجيش كانت سيئة للغاية. ولا يمنع أن تكون الشهرة التي نالها موسى بن نصير مع أولاده الثلاثة عبد العزيز الذي استخلفه على الأندلس وعبد الله الذي

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٦ ص ٨٢.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٢١.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣١.
ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١١.
ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس ،ص ٢١٣.
(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص ١٧٦.

استخلفه على أفريقية ومروان الذي ولاه طنجة، كافية لغيرة القادة وحسدهم، لأن كلاً منهم يطمع في ولاية الأندلس أو أفريقية. كما لا يمنع أن يثير مثل هذا الأمر خشية الخليفة الأموي نفسه من نفوذ موسى بن نصير وأولاده في منطقة واسعة داخل المغرب والأندلس، فاستبقى موسى إلى جانبه، وولى محمد بن يزيد على أفريقية مكان الإبن الأكبر عبد الله. وعندما تولى أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير، ولاية الأندلس بعد مقتل عبد العزيز، عزله سليمان بن عبد الملك بعد ستة أشهر من ولايته، فماذا يمنع لو كان الخليفة من دس على عبد العزيز بن موسى من قتله؟[1].

ولكن مما لا شك فيه، أن موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد العزيز بن موسى، هم القادة الثلاثة الكبار الذين يعود الفضل إليهم في فتح الأندلس. كما أن عبد العزيز بن موسى، رغم قصر ولايته، كان من أعظم ولاة الأندلس، ويعود له الفضل في استكمال فتح الأندلس وتثبيت دعائم السيادة العربية الإسلامية. وهو أول من نظم البلاد إدارياً، ومهد لاستعراب السكان القوط، وتزوج من القوطية أرملة رودريق ضمن هذا السياق.

وهكذا فتح العرب المسلمون البوابة الغربية للقارة الأوروبية، لتتحول سريعاً إلى ولاية عربية إسلامية تابعة للخلافة الأموية (٩٧ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٦ ـ ٧٥٦م). وبسقوط هذه الخلافة في دمشق، تمكن أحد الأمراء الأمويين من تحويل الأندلس إلى إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية في بغداد (١٣٨ ـ ٣١٦ هـ/ ٧٥٦ ـ ٩٢٩م). ثم أضحت هذه الإمارة خلافة أموية جديدة (٣١٦ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٢٩ ـ ١٠٣١م)، ما لبثت أن سقطت، ليبدأ عصر الطوائف (٤٢٢

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٢.
ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١١.
ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص ١٧٠ ـ ١٧٣.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٦٣.

ـ ٤٤٨هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٥٦م)، قبل أن تنضم الأندلس إلى المغرب على يد المرابطين ثم الموحدين (٤٤٨ ـ ٦٣٣ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١٢٣٥ م)، وتنكمش حدودها مع انحسار سلطان الموحدين، حتى اقتصرت على إمارة صغيرة هي «غرناطة» التي قاومت وحدها السقوط طيلة قرنين ونصف (٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٤٩٢ م)، وبسقوطها في أول ربيع الأول ٨٩٧ هـ/ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢م، ينطوي تاريخ الأندلس.



الفصل الثاني

الأندلس ولاية عربية إسلامية
تابعة للخلافة الأموية بدمشق

(٩٧ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٦ ـ ٧٥٦ م)

تحولت الأندلس، بعد استكمال فتحها سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م، إلى ولاية عربية إسلامية، غير مستقلة وغير وراثية، تابعة للخلافة الأموية بدمشق طيلة إحدى وأربعين سنة (٩٧ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٦ ـ ٧٥٦ م). وكان أمير القيروان هو الذي يعين ولاة الأندلس أغلب الأحيان[1].

وإذا كان عبد العزيز بن موسى بن نصير، قد استكمل فتح الأندلس، وهو أول والٍ عليها (٩٥ ـ ٩٨ هـ/ ٧١٤ ـ ٧١٧ م)، فإن ابن عمته أيوب بن حبيب اللخمي الذي خلفه سنة ٩٨ هـ/ ٧١٧م، نقل عاصمة الولاية من اشبيلية إلى قرطبة لحسن موقعها في قلب الأندلس. وتولى الأندلس بعدهما سبعة عشر والٍ، أربعة فقط منهم، تابعوا فعلياً الجهاد ما وراء جبال البرت (البيرينيه) لفتح بلاد الفرنجة أو غالة (فرنسا)، وهم: الحر بن عبد الرحمن الثقفي (٩٨ ـ ١٠٠ هـ/ ٧١٧ ـ ٧١٩م)، والسمح بن مالك الخولاني (١٠٠ ـ ١٠٢ هـ/ ٧١٩ ـ ٧٢١ م)، وعنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٣ ـ ١٠٧ هـ/ ٧٢٢ ـ ٧٢٥م)، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (١١٣ ـ ١١٤ هـ/ ٧٣١ ـ ٧٣٢م). علماً أن

---

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨١.

حملات الفتح توقفت طيلة السنوات الست التي سبقت ولاية الغافقي (١٠٧ ـ ١١٣ هـ/ ٧٢٥ ـ ٧٣١) تولى الأندلس خلالها ست ولاة، هم: عذرة بن عبد الله الفهري، يحيى بن سلمة الكلبي، حذيفة بن الأحوص الأشجعي، عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، الهيثم بن عبيد الكناني، ومحمد بن عبد الله الأشجعي.

وقد فشل فتح بلاد غالة، في الوقت الذي كانت تنمو فيه حركة المقاومة المسيحية من ثغرة كوفادونجا لتشمل شمال غرب الأندلس، مما يعني توقف عمليات الفتح واقتصار الأندلس على المناطق المفتوحة داخل شبه جزيرة إيبيريا، حيث أصبحت عرضة للانكماش شيئاً فشيئاً تبعاً لنمو حركة المقاومة المسيحية التي استفادت من اشتداد الصراع القبلي وثورات البربر مع غياب السلطة المركزية، منذ أن تولى الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري للمرة الأولى سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م وللمرة الثانية سنة ١٢١ هـ/ ٧٣٩ م، وعقبة بن الحجاج السلولي سنة ١١٦ هـ/ ٧٣٤ م، وبلج بن بشر القشيري سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م، وثعلبة بن سلامة العاملي سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣، وأبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م، وثوابة بن سلامة الجذامي سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥ م، ويوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة ١٢٩ هـ/ ٧٤٧ م، وهو آخر ولاة الأندلس قبل أن تتحول إلى إمارة أموية على يد عبد الرحمن الأول «الداخل».

١ ـ فشل فتح بلاد غالة (٩٨ ـ ١١٤ هـ/ ٧١٧ ـ ٧٣٢ م)

كان من الطبيعي أن لا يتوقف الفتح العربي الإسلامي عند الأندلس التي تمثل البوابة الغربية لأوروبا، لأن عبور جبال البرت (البيرينيه) وفتح بلاد غالة (فرنسا)، يعني فتح جنوب القارة الأوروبية بأسره وصولاً إلى القسطنطينية على ضفاف البوسفور، وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة عربية إسلامية.

وكانت بلاد غالة، منقسمة إلى إمارات مستقلة، ففي الجنوب المتاخم

للأندلس، توجد إمارة سبتمانيا Septimanie أي المدن السبع: العاصمة أربونة ونيم وآجد وبيزييه ولوداف وقرقشونة وماغليون، فضلاً عن دوقية أكيتانيا وعاصمتها برديل «بوردو». وفي الشرق على نهر الرون، تقع إمارة بروڤانس وعاصمتها أفينيون، وإمارة برغنديا وعاصمتها ليون، وكانت المنطقة الشمالية تابعة لمملكة الفرنجة «الميروفنجية»[1]. وعرفت هذه الأقاليم مجتمعة أيضاً باسم «الأرض الكبيرة»[2].

ولعل الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي تولى الأندلس طيلة سنتين وثمانية أشهر (٩٨ ـ ١٠٠ هـ/ ٧١٧ ـ ٧١٩ م)، هو أول من غزا بلاد غالة حتى مدينة أربونة[3]. ولكن مما لا شك فيه، أن المحاولة الفعلية لفتح هذه البلاد ارتبطت بجهود ثلاثة من كبار الولاة عبروا جبال البرت واستشهدوا جميعاً، وهم: السمح بن مالك الخولاني الذي استشهد في طلوشة (تولوز)، وعنبسة بن سحيم الكلبي الذي استشهد لدى بلوغه بلدة سانس، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي استشهد في بواتييه «بلاط الشهداء».

(أ) حملة السمح بن مالك الخولاني واستشهاده في طلوشه «تولوز»
(٩ ذو الحجة ١٠٢ هـ/ ١٠ حزيران ٧٢١ م)

تولى السمح بن مالك الخولاني الأندلس في رمضان ١٠٠ هـ/ نيسان ٧١٩م، فنظم إدارتها وأعاد بناء قنطرة قرطبة[4]، وهي القنطرة الرومانية التي امتدت كجسر على نهر الوادي الكبير، بين قرطبة على إحدى ضفتيه والربض على الضفة الأخرى. وتبقى أهم أعماله، حملته على بلاد غالة[5].

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٣٧.
(٢) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1, P56, 57.
(٣) Codera: Limites Probables de la Conquista arabe en la condillera pirenaica, P. 111.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والغرب، جـ ٢ ص ٢٦.
(٥) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٢٤.

تمكن السمح من فتح أربونة[1] Narbonne عاصمة سبتمانيا، فتحولت هذه المدينة إلى قاعدة عربية إسلامية للانطلاق نحو فتح بلاد غالة. ثم دخل دوقية اكيتانيا ليحاصر مدينة طلوشة Toulouse، فتصدى له الدوق أودو قرب أسوار المدينة، في موقعة كبيرة انتهت بهزيمة السمح واستشهاده في يوم الثلاثاء ٩ ذي الحجة ١٠٢ هـ/ ١٠ حزيران ٧٢١ م، ليقود عبد الرحمن الغافقي عملية الإنسحاب، وينقذ بقايا الحملة متراجعاً نحو أربونة.

(ب) حملة عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٧ هـ/ ٧٢٥ م)

اختار والي القيروان بشر بن صفوان الكلبي، أحد أقاربه عنبسة بن سحيم الكلبي والياً على الأندلس في صفر ١٠٣ هـ/آب ٧٢١ م[2]، فأمضى ثلاث سنوات في تنظيم الأندلس، قبل أن يقوم بحملته لمتابعة فتح بلاد غالة سنة ١٠٧ هـ/ ٧٢٥ م.

تمكن عنبسة من استكمال فتح إمارة سبتمانيا بمدنها السبع، فدخل قرقشونة عنوة، وفتح نيم دون مقاومة. ثم اتجه شرقاً حتى بلغ نهر الرون وفتح إقليم بروڤانس في الجنوب، وصعد مع النهر شمالاً حتى بلغ مدينة ليون وفتحها. لكنه لم يتوغل في اكيتانيا كما فعل السمح بن مالك، .ويعود ذلك إلى تحالفه مع الدوق أودو الذي ساعده في فتح إقليم برغندية حتى بلغ مدينة أوتون في أعالي الرون يوم الأربعاء ٧ ربيع الثاني ١٠٧ هـ/ ٢٢ آب ٧٢٥ م. ولعل هذا التحالف هو الذي حقق الانتصارات المتتالية التي لم تكن متوقعة من مثل هذه الحملة[3] والتي قيل أنها وصلت أمام بلدة سانس Sens، وهي لا تبعد أكثر من ثلاثين كيلومتراً جنوب باريس، وقد صمدت بسبب شجاعة

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P. 58.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٧٤.

(٣) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٢٥٣.

أسقفها إيبون Ebbon[1].

ولم يبادر عنبسة بن سحيم إلى ترك حاميات عسكرية في المدن التي فتحها، بل كان يغادرها بسرعة، وهذا ما حرم العرب المسلمين من إنجازات هامة. فعندما قرر عنبسة العودة إلى قرطبة التي كانت تشهد بعض الاضطرابات، حتى تصدى له الفرنجة في طريق العودة، واستشهد في إحدى المعارك[2]، ليقود عذرة بن عبد الله الفهري فلول الحملة متراجعاً إلى أربونة.

(جـ) حملة عبد الرحمن الغافقي واستشهاده في بواتييه «بلاط الشهداء» (١ ـ ٧ رمضان ١١٤ هـ/ ٢٥ ـ ٣١ تشرين الأول ٧٣٢ م)

مرت الأندلس، بعد استشهاد عنبسة بن سحيم، بفترة اضطرابات نتيجة الخلافات التي نشبت بين المسلمين. فقد تعاقب عليها ستة ولاة خلال ست سنوات فقط (١٠٧ ـ ١١٣ هـ/ ٧٢٥ ـ ٧٣١ م)، توقفت معها حملات الفتح، رغم الحملة العسكرية المحدودة التي اتجهت نحو بورغنديا زمن الوالي الهيثم بن عبيد الكناني سنة ١١١ هـ/ ٧٢٩ م.

تقلد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ولاية الأندلس من قبل أمير القيروان عبيد الله بن الحبحاب، فدخلها سنة ١١٣ هـ/ ٧٣١ م، وهو متحمس للجهاد والفتح، بعد طول انتظار. فهو لم ينس هزيمة تولوز واستشهاد السمح بن مالك في ٩ ذي الحجة ١٠٢ هـ/ ١٠ حزيران ٧٢١، عندما قاد بنفسه فلول الحملة منسحباً نحو أربونة.

لذلك، أخذ عبد الرحمن الغافقي، يعد العدة لفتح بلاد غالة، وفق خطة مدروسة ومنظمة، في وقت اشتد فيه الصراع القبلي بين العرب داخل

---

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, P. 59.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٢٦.

الأندلس، مما جعل غالبية الجيش الكبير الذي احتشد حوله من البربر. ومثل هذا الجيش الذي يتراوح بين خمس وسبعين ألفاً ومائة الف، كفيل بتحقيق النصر وفتح بلاد غالة فتحاً منظماً، إن لم يكن متابعة الفتح في سائر أوروبا.

ويبدو أن عبد الرحمن الغافقي، لم يستفد من تجربة عنبسة بن سحيم الكلبي الذي تحالف مع أودو دوق أكيتانيا. فقد كان فتح بلاد غالة بحاجة إلى مثل هذا الدوق، على غرار يوليان حاكم سبتة الذي قدم العون الكبير لطارق بن زياد حتى تم له فتح الأندلس. وزاد الأمر سوءاً أن أحد القادة المسلمين، وهو مونوسة البربري، كان عاملاً على شرطانية Cerdana، تزوج من لامباجي Lampegie إبنة الدوق أودو وأصبح حليفاً له. ولم يصغ عبد الرحمن الغافقي لنصيحة مونوسة بعدم التعرض لدوقية أكيتانيا، وعندما أدرك أنه لن يقاتل إلى جانبه، قبض عليه، واحتز رأسه، كما أسر زوجته لامباجي وأرسلها إلى الخليفة الأموي بدمشق[١].

وبمقتل مونوسة البربري وأسر زوجته الأكيتانية، تحالف أودو دوق أكيتانيا مع شارل محافظ القصر في مملكة الفرنجة «الميروفنجية»، ويعرف أيضاً باسم كارلو Karlo[٢]، وفي المصادر العربية قارلة.

كان هدف عبد الرحمن الغافقي الرئيسي، هو دوقية أكيتانيا ثم مملكة الفرنجة «الميروفنجية». لذلك لم تسلك حملته الطريق التقليدي الذي سلكته حملة السمح بن مالك أو حملة عنبسة بن سحيم عبر إقليم سبتمانيا، بل خرج من بنبلونه عاصمة نبرة صيف سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م، وعبر ممر الرونسفال في جبال البيرينيه[٣]، متجهاً رأساً نحو أكيتانيا، في الوقت الذي أرسل فيه فرقة

---

(١) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ص ١٤٨.

(٢) Lévi - Provençal: Histoire le l'Espagne Musulmane, T1, P. 55.

(٣) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٢٦٥.

إلى وادي الرون لاستعادة مدينة آرل جنوباً في عملية إلهاء عن هدفه الرئيسي شمالاً. وأنزل الهزيمة بالدوق أودو عند الدوردوني أحد روافد نهر الغارون، ليتقهقر شمالاً مستنجداً بشارل، في حين عبر عبد الرحمن الغافقي هذا النهر، وفتح عنوة العاصمة بوردو التي تقع عند مصبه. وتابع الزحف شمالاً نحو بواتييه فدخلها عنوة، ثم نشر جيشه في السهل الممتد بينها وبين تور على الضفة اليسرى لنهر اللوار، عندما علم بنبأ وصول شارل على رأس جيش كبير متماسك.

لقد أدرك شارل الخطر المحدق، بمملكة الفرنجة «الميرومنجية»، بعد سقوط أكيتانيا، فجمع الجيوش من سائر أنحاء غالة، وطلب الجند الشماليين من حدود الرين. وبذلك تلاحم الفرنجة ومن انضم إليهم من الألمان والسواڤ والسكسون، عندما شعروا بالخطر الكبير، ولبّوا نداء شارل الذي بدوره تناسى خلافه مع أودو دوق أكيتانيا، متحالفاً معه. في حين كان جيش عبد الرحمن الغافقي غير متماسك نتيجة نقمة البربر منذ مقتل زعيمهم مونوسة، والصراع القبلي بين العرب اليمنيين والقيسيين، مما ساهم في تفرق وحدة المسلمين[١].

التقى الجيشان في يوم السبت أول رمضان ١١٤ هـ/ ٢٥ تشرين الأول ٧٣٢ م، لتستمر المعركة سبعة أيام. ورغم بطولة عبد الرحمن الغافقي، وترجيح كفة المسلمين في البداية، إلا إنه عجز عن اختراق جيش شارل المتماسك. أما أودو دوق أكيتانيا، وهو الحليف السابق للعرب المسلمين ويعرف أن من عادتهم ترك الغنائم في مؤخرة الجيش، فقد التف مع فرقة وهاجم المؤخرة، فتراجع الكثير من المسلمين الذين يحاربون في الميمنة والميسرة لاستخلاص الغنائم، مما أحدث بلبلة في صفوف الجيش. وزاد الارتباك مع مقتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي بسهم أرداه على الفور، في يوم

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢١٩.

الجمعة ٧ رمضان ١١٤ هـ/ ٣١ تشرين الأول ٧٣٢ م. واستقر الرأي على الانسحاب ليلاً، والتسلل من المعكسر تاركين الخيل والغنائم التي لم يتمكنوا من حملها، وتراجعوا إلى أربونة.

اكتفى شارل بالنصر الذي أحرزه، ولم يطارد فلول المسلمين، خشية أن يكون وراء تراجعهم كميناً لجيشه، لذلك عاد شمالاً. وأطلق عليه البابا غريغوري الثالث لقب مارتل Martel أي «المطرقة»، لأنه سحق قوة الجيش الإسلامي، فأصبح يعرف بشارل مارتل. وعرفت المعركة في المصادر الأوروبية باسم موقعة تور أو بواتييه، في حين أطلقت المصادر العربية عليها إسم «بلاط الشهداء» وذلك لكثرة أعداد المسلمين الذين استشهدوا فيها، وفي طليعتهم قائدهم عبد الرحمن الغافقي. أما تسمية «بلاط»، فهي بسبب وقوع المعركة بالقرب من الطريق الروماني القديم المرصوف الذي يصل شاترلو ببواتييه، وليس كما يذكر البعض[1] بأنها وقعت قرب أطلال مقر قديم في المكان الذي يحمل حالياً اسم موسيه لاباتاي Moussais la bataille[2]. فالمعروف أن المعارك الفاصلة كانت تدور في السهول والمواضع المستوية البعيدة عن العمران.

ومع هزيمة «بلاط الشهداء» أو «بواتييه»، توقف الفتح العربي الإسلامي ما وراء جبال البيرينيه، لا بسبب قوة الفرنجة، بل نتيجة الفتن والاضطرابات التي حلت بالمغرب والأندلس، مما شجع شارل مارتل على الزحف جنوباً واسترداد ما فتحه العرب المسلمون. ورغم ذلك ظلت أربونة ثغرة عربية إسلامية في مملكة الفرنجة لم يتمكن شارل مارتل من إستعادتها، لكنها ما لبثت أن سقطت، رغم دفاعها المستميت، على يد إبنه ببان الثاني المعروف

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٢٧١.
(٢) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane. T1 P. 62.

ببان القصير Pepin de Bref سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥١ م[١]، وقيل سنة ١٤١ هـ/ ٧٥٩ م[٢]. وبذلك انقطع الاتصال بين الأندلس وسبتمانيا. وهذه هي النتيجة الحتمية للنزاعات الداخلية، سواء بين العرب والبربر، أو بين العرب أنفسهم، حيث لا يمكن لأي جيش أن يستمر في الجهاد والفتح في ظل الانقسامات، بل يجد نفسه في مواجهة أيضاً مع نمو حركة المقاومة المسيحية بين أهل البلاد المفتوحة.

٢ ـ نمو حركة المقاومة المسيحية (قيام مملكة ليون)

كانت ثغرة كوفادونجا التي أهملها الفتح العربي الإسلامي للأندلس، بمثابة نواة دولة إسبانيا المسيحية، فمنها انطلقت حركة المقاومة بقيادة بلاي (توفي سنة ١١٩ هـ/٧٣٧م) الذي تحول إلى ما يشبه الأسطورة لدى الإسبان في ما بعد. فقد تمكن من بث روح المقاومة لدى المسيحيين في شمال الأندلس، وهو يؤسس مملكة اشتوريش «استورقة» الصغيرة التي أخذت تنمو وتتسع، وهي تضم المناطق التي هجرها العرب المسلمون مثل جيليقية واستورقة والمدن الواقعة خلف الجبال، وذلك بسبب ثورة البربر. وأثناء الصراع بين أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي وثوابة بن سلامة الجذامي سنة ١٢٨ هـ/٧٤٥م، ضمت هذه المملكة مناطق جديدة هجرها المسلمون بما فيها مدينة ليون والركن الشمالي الغربي من الأندلس الذي صار يعرف بمملكة ليون، وذلك على يد حفيد بلاي الملك الفونسو الأول (١٢٢ ـ ١٤٠ هـ/ ٧٣٩ ـ ٧٥٧ م) ويسميه العرب أذفونش بن بطرة أو القاطوليقي، أي الكاثوليكي[٣].

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٥٠.
(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٢٩١.
(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص ٣٧٢.

وأقامت مملكة ليون سلسلة من القلاع والحصون، وعينت عليها أمراء يتمتعون بالاستقلال الذاتي ليتمكنوا من رد هجمات المسلمين، وعرفت باسم منطقة القلاع Castellas، وهي القلاع التي اتحدت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بزعامة أقوى أمرائها فرنان غونزالس Fernan Gonsales، وصارت تعرف بمملكة Castilla المستقلة عن مملكة ليون، أو «قشتالة» كما ورد في المصادر العربية.

وهكذا، فإن النزاعات الداخلية التي شهدتها الأندلس طيلة أربع وعشرين سنة (١١٤ ـ ١٣٨ هـ/ ٧٣٢ ـ ٧٥٦ م)، تعتبر العامل الرئيسي في توقف عمليات الفتح من جهة، وفي نمو حركة المقاومة المسيحية من جهة ثانية، مما نتج عنه قيام مملكة ليون ثم مملكة قشتالة.

٣ ـ النزاعات الداخلية (١١٤ ـ ١٣٨ هـ/٧٣٢ ـ ٧٥٦ م)

كانت النزاعات الداخلية، سواء بين العرب والبربر من جهة، أو بين العرب أنفسهم وقد انقسموا إلى حزبين قيسي ويمني، من العوامل التي أدت إلى هزيمة عبد الرحمن الغافقي في «بلاط الشهداء» واستشهاده في ٧ رمضان ١١٤ هـ/ ٣١ تشرين الأول ٧٣٢ م. كما كان سوء معاملة الولاة العرب للبربر، ضمن سياق السياسة الأموية القائمة على تفضيل الجنس العربي، دافعاً للبربر لاتباع مذهب الخوارج، وإعلان الثورة في المغرب ثم الأندلس.

(أ) ثورة البربر في المغرب (١٢٢ ـ ١٢٥ هـ/ ٧٤٠ ـ ٧٤٣ م)

بدأ النزاع بين العرب والبربر في المغرب، منذ ولاية يزيد بن أبي مسلم على أفريقية[١] (القيروان) في عهد الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك سنة

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٣٢.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٤٨.

١٠١ هـ/ ٧٢٠ م، وهو أول خليفة أموي يعلن تأييده المطلق للحزب القيسي (عرب الشمال) ضد الحزب اليمني (عرب الجنوب). فقد كانت سياسة الدولة الأموية تقوم على مبدأ سيادة الجنس العربي وتفضيله على بقية العناصر التي انضوت تحت راية الإسلام، حتى وصل الأمر إلى فرض الجزية على البربر على يد الوالي عبيد الله بن الحبحاب الذي وصل القيروان في ربيع الثاني ١١٦ هـ/ أيار ٧٣٤ م، وكان قيسياً متعصباً ضد اليمنية، كما كان متعصباً للعرب ضد البربر. هذا في الوقت الذي كان فيه مذهب الخوارج ينتشر في المغرب لبعدها عن مركز الخلافة في دمشق، فاعتنقه البربر، لأن من أهم مبادئه عدم حصر الخلافة في بيت معين كبني هاشم أي آل النبي العربي ﷺ، أو في جنس معين كالجنس العربي، وإنما الخلافة لله يتولاها من تختاره الأمة.

ثار البربر في المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م، بقيادة ميسرة المدغري[١] الذي اعتنق مذهب الخوارج ونشره بين قومه في طنجة، ونصب نفسه إماماً. فسيطر على طنجة ومنطقة السوس، وأنزل الهزيمة بالجيش الأموي بأحواز طنجة وبسط نفوذه على المغرب الأقصى. وما لبث ميسرة أن ادعى الخلافة وأساء السيرة بين اتباعه، فخلعوه وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي الذي هزم الجيش الأموي مرة ثانية قرب طنجة سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤١ م، وقتل في المعركة عدد كبير من أشراف العرب، لذا سميت بغزوة الأشراف[٢].

أوشك البربر أن يسيطروا على المغرب، لولا أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، أسرع بعزل عبيد الله بن الحبحاب، وأرسل جيشاً يضم سبعة

---

(١) ابن القوطية: تاريخ إفتتاح الأندلس، ص ١٤.
البكري: المغرب في أخبار إفريقية والمغرب، ص ١٣٤.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٥٢.
ابن عبد الحكم: فتوح مصر وإفريقية والأندلس، ص ٢١٨.

وعشرين ألفاً من عرب الشام[١]، بقيادة كلثوم بن عياض القشيري[٢] الذي ولاه على المغرب، في جمادى الثانية ١٢٣ هـ/ نيسان ٧٤١م، وهو من غلاة القيسية، ثم انضم إليهم ثلاثة آلاف من مصر، فأصبح عددهم ثلاثين ألفاً. علماً أن الحملة التي قادها موسى بن نصير واستكمل بها فتح المغرب سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦م، كان معظمها من عرب الحجاز الذين استقر بعضهم في المغرب والبعض الآخر في الأندلس، وجلّهم من اليمنية، وعرفوا باسم «البلديين» لأنهم أصبحوا من أهل البلاد، وكانوا ناقمين على الخلافة الأموية وأنصارها عرب الشام، لأنها استباحت الحجاز في وقعة الحرّة شرق المدينة المنورة عندما اندلعت ثورة عبد الله بن الزبير سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٢ م.

حلت الهزيمة بالجيش الشامي في بقدورة على ضفاف نهر سبو[٣] في ذي الحجة ١٢٣ هـ/ تشرين الأول ٧٤١ م، وقتل قائده كلثوم بن عياض القشيري، ليتراجع أحد أقربائه بلج بن بشر القشيري منسحباً بفلول الجيش، وهم حوالى تسعة آلاف، نحو سبتة، التي أحكم البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي الحصار الشديد حولها من جميع الجهات، باستثناء جهة البحر، حتى كادوا يهلكون جوعاً[٤]. وصمد بلج بن بشر ورجاله داخل سبتة الحصينة، ولم يتمكن البربر من دخولها، رغم سيطرتهم في جيشين كبيرين على الزاب وطنجة.

اضطر الخليفة هشام بن عبد الملك لإرسال حملة جديدة بقيادة واليه على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي، فوصل القيروان سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م،

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وإفريقية والأندلس، ص ٢١٨.
مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٣.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٥٤.
(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٥.
مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٣٧.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٤٢.

وهزم جيش الزاب بقيادة عكاشة النفزاوي عند القرن[١]، ثم عاد إلى القيروان لحمايتها من جيش طنجة بقيادة عبد الواحد الهواري، وعند أسوار القيروان حلت الهزيمة بالبربر، لتنتهي الثورة بعد ثلاث سنوات، ويعود المغرب إلى السيطرة الأموية سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م.

(ب) ثورة البربر في شمال الأندلس (١٢٤ هـ/ ٧٤٢م)

عندما اندلعت ثورة البربر في المغرب، كان عبد الملك بن قطن الفهري يتولى الأندلس منذ سنة ١٢١ هـ/ ٧٣٩ م، فاستنجد به بلج بن بشر القشيري لإنقاذه بحراً من الحصار الذي ضربه البربر حوله في سبتة أواخر سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤١ م. فرفض السماح له ولرجاله بالعبور إلى الأندلس، خشية أن يعزله ويتولى مكانه[٢].

وما لبث بربر الأندلس، أن أعلنوا الثورة، بعد وصول أخبار انتصارات الثوار البربر في المغرب، والتفوا حول أحد زعمائهم المعروف بـ ابن هدين[٣] وقيل زقطرنق[٤]. وتمكنوا من السيطرة على شمال الأندلس حيث مراكز تجمعهم الكبرى، باستثناء مدينة سرقسطة وفيها أغلبية من العرب. ثم أعدوا خطة عسكرية بارعة للسيطرة على الأندلس والاتصال بإخوانهم بربر المغرب، وذلك بتجهيز ثلاثة جيوش، الأول يهاجم طليطلة، والثاني يهاجم قرطبة، والثالث يتجه جنوباً للقضاء على القوة العربية الشامية المحاصرة في سبتة مع قائدها بلج بن بشر.

اضطر والي الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري، للاستعانة بقوة فرسان

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وإفريقية والأندلس، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٣٧.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٤٢.
ابن القوطية: تاريخ إفتتاح الأندلس، ص ١٦.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٣٩.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣١.

عرب الشام المحاصرين في سبتة، فسمح لهم بالعبور إلى الأندلس شرط مساعدته في القضاء على ثورة البربر ثم العودة ثانية إلى المغرب[١]. ولم يكن الخيار أمام بلج بن بشر سوى القبول بهذا الشرط، فحملت السفن جنوده العشرة آلاف إلى الجزيرة الخضراء لنجدة عرب الأندلس. وقد أدرك بسرعة خطة البربر، لذلك بدأ بمواجهة الجيش الثالث القادم نحوه، وانتصر عليه في شذونه وحال دون اتصاله ببربر المغرب.

وتوحدت جهود عرب الشام مع عرب الأندلس، في قيادة واحدة، وأنزلوا الهزيمة بجيش البربر الثاني الذي كان يحاصر العاصمة قرطبة. ثم اتجهوا نحو طليطلة، ليواجهوا التجمع الكبير للبربر في وادي السليط، عند أحد روافد نهر التاجو[٢]، وانتصروا عليهم، فانتهت بذلك ثورة البربر.

(جـ) النزاع بين عرب الشام وعرب الأندلس

أبلى عرب الشام في القضاء على ثورة البربر في الأندلس، وعندما طالبهم الوالي عبد الملك بن قطن الفهري بالخروج من الأندلس نحو المغرب، حسب الاتفاق المبرم بينهم، ثاروا عليه وأقاموا مكانه قائدهم بلج بن بشر. وما لبثوا أن قتلوا عبد الملك بن قطن الفهري، وهو شيخ تجاوز التسعين، مما أثار عرب الأندلس.

وبذلك انقسم العرب المسلمون في الأندلس إلى عرب الشام الذين سيطروا على الحكم في قرطبة بقيادة بلج بن بشر الذي جمع حوله إثني عشر ألفاً[٣]، وبين عرب الأندلس في سرقسطة بقيادة قطن وأمية إبني عبد الملك بن قطن اللذين تمكنا من جمع أربعين ألفاً[٤] بعد انضمام عبد الرحمن بن علقمة

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٠.

(٢) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane. T1 P. 36.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة، في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٤١.

(٤) Reinhart Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, P. 162.

اللخمي عامل عبد الملك في أربونة، كما انضم عبد الرحمن بن حبيب الفهري وهو من قادة القيروان الذين انضموا إلى بلج بن بشر وكان ناقماً عليه وبخاصة بعد قتل عبد الملك بن قطن.

التقى الجيشان في أقوة برطورة من نواحي قرطبة في شوال ١٢٤ هـ/آب ٧٤٢م. ولم يحقق التفوق العددي النصر لجيش تحالف عرب الأندلس، فقد أظهر جيش عرب الشام القليل العدد تماسكاً وصموداً، وأنزل الهزيمة بتحالف عرب الأندلس الذين فقدوا آلاف القتلى. بينما لم يخسر عرب الشام أكثر من ألف قتيل بما فيهم قائدهم بلج بن بشر(١) الذي ولوا مكانه في قرطبة ثعلبة بن سلامة العاملي.

استمر القتال بين الفريقين، وخرج ثعلبة نحو ماردة، فتمكن من إنزال الهزيمة بتحالف عرب الأندلس سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣م. وقيل أنه عاد إلى قرطبة يحمل ما يزيد على عشرة آلاف من السبي(٢)، ونزل في المصارة في أراضي قرطبة يبيع سبي ذرارى عرب الأندلس، وهذه سابقة خطيرة لم تحدث من قبل عند العرب المسلمين.

ولما بلغ الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، أخبار الحرب الأهلية التي تدور داخل الأندلس، ولى حنظلة بن صفوان الكلبي على إفريقية، وأمره أن يولي ابن عمه الشاعر أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي على الأندلس، ليضع حداً للفتنة القائمة، فوصلها في رجب ١٢٥ هـ/ أيار ٧٤٣م(٣) وفي رفقته ثلاثون رجلاً فقط. وقد ارتضى الفريقان المتصارعان بولاية أبي الخطار، فلم يرفضه عرب الشام لأنه مثلهم شامي وإن لم يكن قيسياً على غرار معظمهم،

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٢.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٤٥.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٣.

ولم يرفضه عرب الأندلس لأنه يمني على غرار معظمهم، وبذلك دانت له الأندلس لفترة قصيرة. وما لبث أبو الخطار أن أظهر تعصبه لليمنية منذ مقتل أحد أصحابه اليمنيين وهو سعد بن حواس، واتهم القيسيين من عرب الشام بمقتله[1]. ولم يتورع عن إهانة زعيم القيسية الصميل بن حاتم، وهو حفيد شمر بن ذي الجوشن أحد المشاركين بقتل الحسين عليه السلام في كربلاء، وقدم الأندلس مع بلج بن بشر[2].

نجح الصميل بن حاتم في استمالة ثوابه بن سلامة الجذامي من جند فلسطين، فأنزل الهزيمة بأبي الخطار قرب نهر شذونة، ودخل قرطبة، ليتولى الأندلس سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٥ م. وما لبث أن توفي في السنة التالية، في محرم ١٢٩ هـ/ أيلول ٧٤٦ م.

(د) ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتحول النزاع إلى قيسي ويمني (١٢٩ ـ ١٣٨ هـ/ ٧٤٧ ـ ٧٥٦ م)

عمل الصميل، بناء على طلب أهل الأندلس، على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري[3]، في جمادي الأولى ١٢٩ هـ/ كانون الثاني ٧٤٧م، وهو أحد أحفاد عقبة بن نافع الفهري. وقد امتدت ولايته طيلة تسع سنوات اندلعت خلالها الفتنة العظمى بين العصبية اليمنية بقيادة يحيى بن حريث وأبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي الذي أنقذه أصحابه من السجن[4]، وبين القيسية بقيادة يوسف بن عبد الرحمن الفهري والصميل بن حاتم، لينشب القتال بين الفريقين في شقندة جنوب قرطبة سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧م[5]، وحلت الهزيمة الساحقة

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٧.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٠٤.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٦٠.

(٣) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٢٣٣.

(٤) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٩٦، ٩٧.

(٥) الضبي: بغية الملتمس في تاريخ عظماء الأندلس، ص ٢٦١.

باليمنية وقتل يحيى بن حريث وأبو الخطار حسام بن ضرار[١].

وإمعاناً في قهر اليمنية، وحتى لا ينفجر الصراع داخل الحزب القيسي، انفرد يوسف بن عبد الرحمن الفهري في قرطبة، وأبعد الصميل بن حاتم مع رجاله إلى سرقسطة، وولاه عليها سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م، عله يتخلص منه إذا ما انقلب عليه أهلها وغالبيتهم من اليمنية[٢]. لكن الزعيم القيسي «الصميل»، عرف كيف يستغل المجاعة الكبرى التي اجتاحت الأندلس طيلة خمس سنوات (١٣١ ـ ١٣٦ هـ/ ٧٤٩ ـ ٧٥٤م)، ولم تفلت منها سوى مدينة سرقسطة، الغنية بمزارعها وخيراتها الوفيرة[٣]، فتقرب من أهلها، ولم يميز بين قيسي ويمني، في إغداقه العطايا والأموال. في حين عجز يوسف الفهري عن مواجهة المجاعة التي برزت في العاصمة قرطبة، مما ساهم في بروز زعيم قيسي جديد هو عامر بن هاشم الذي عرف كيف يستميل المعارضة اليمنية إلى جانبه، وأنشأ قلعة حصينة غرب قرطبة حملت إسمه «قناة عامر»، ثم تحالف مع زعيم قيسي آخر يمت إليه بصلة القربى هو الحبحاب بن رواحة[٤].

وبذلك بدأ الصراع بين زعماء القيسية، فحاصر الحليفان عامر بن هاشم والحبحاب بن رواحة مدينة سرقسطة طيلة سبعة أشهر، وجذبا إليهما جموع اليمنية والبربر. وأصبح الصميل في موقف حرج، فاستنجد بيوسف الفهري الذي تقاعس عن نجدته رغبة في التخلص منه[٥]. وما لبثت جموع القيسية أن تحركت لنجدته سنة ١٣٧ هـ/ ٧٥٥ م، وعندما وصلت أسوار سرقسطة، فك

(١) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٥٦.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٤.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٥٩.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٥٢.
(٤) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٦٤.
(٥) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٢٣.

الحليفان حصارهما وتراجعت قواتهما دون قتال. ثم استسلما إلى يوسف الفهري في قرطبة، وتم إعدامهما، بعد أن تلاقت مصالح الفهري والصميل، لتوحيد الجهود في مواجهة أمير أموي فرَّ إلى المغرب ومنها إلى الأندلس، إثر انهيار الخلافة الأموية في دمشق، ليؤسس إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية، وهو الأمير عبد الرحمن بن معاوية «الداخل».



المرحلة الثانية

الأندلس إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية

(١٣٨ ـ ٣١٦ هـ/ ٧٥٦ ـ ٩٢٩ م)

الفصل الثالث

عبد الرحمن الأول «الداخل» وتأسيس إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية

(١٣٨ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٨٨ م)

سقطت الخلافة الأموية، إثر هزيمة مروان بن محمد في الزاب يوم الأحد ١١ جمادى الثانية ١٣٢ هـ/ ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠م[١]، ثم دخول عبد الله بن علي عم العباس إلى دمشق والياً على الشام في يوم الخميس ٢٥ رمضان ١٣٢ هـ/ ٧ أيار ٧٥٠ م، ليجهز على من تبقى من أمراء بني أمية، باستثناء أمير واحد تمكن من الفرار إلى المغرب، ثم إلى الأندلس التي كانت تشهد النزاعات الداخلية بين العرب المسلمين، وهو عبد الرحمن بن معاوية، حفيد الخليفة الأسبق هشام بن عبد الملك بن مروان. فقد قضى هذا الأمير الأموي خمس سنوات، منذ فراره مع ابنه الصغير سليمان، وهو يتنقل بين فلسطين حيث التقى بغلامه بدر مولى أبيه، وبغلام شقيقته سالم أبي شجاع، وانطلق معهما إلى مصر ومنها إلى برقة ثم إلى القيروان حتى استقر به المطاف عند قبيلة نفزة البربرية التي تنتمي إليها أمه رداح[٢]، وذلك قرب سبتة[٣] معبر الأندلس، وقيل في سبرة[٤]. ثم عبر مضيق جبل طارق نحو الأندلس، فانتصر

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٩ ص ١٣.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٦١، ٧١.
(٣) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٦٦٤.
(٤) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٥٥.

على الفهري والصميل في موقعة المصّارة في ١٠ ذي الحجة ١٣٨ هـ/ ١٥ أيار ٧٥٦م. ودخل قرطبة، وهو في السابعة والعشرين من عمره، ليجعل من الأندلس إمارة أموية وراثية مستقلة عن الخلافة العباسية، لتستمر حوالى القرن وثلاثة أرباع القرن (١٣٨ ـ ٣١٦ هـ/ ٧٥٦ ـ ٩٢٩ م)، تعاقب خلالها ثمانية أمراء، هم: عبد الرحمن الأول «الداخل» سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٦ م، هشام الأول «الرضا» سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م، الحكم الأول «الربضي» سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٦م، عبد الرحمن الثاني «الأوسط» سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢٢ م، محمد الأول سنة ٢٣٨ هـ/ ٨٥٢ م، المنذر بن محمد سنة ٢٧٣ هـ/ ٨٨٦ م، عبد الله بن محمد سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م، وعبد الرحمن الثالث سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م. وهذا الأمير الأخير، تمكن من تحويل الإمارة إلى خلافة أموية سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م.

١ ـ موقعه المصّارة ودخول قرطبة
(١٠ ذي الحجة ١٣٨ هـ/ ١٥ أيار ٧٥٦م)

عبر عبد الرحمن بن معاوية مضيق جبل طارق، بعد مراسلات أجراها غلامه بدر، لينزل في ثغر المنكب Almunecar على الساحل الجنوبي الشرقي للأندلس، وذلك في آخر ربيع الثاني ١٣٨ هـ/ ١١ تشرين الأول ٧٥٥ م[١]، وقيل في غرة ربيع الأول ١٣٨ هـ/ ١٤ آب ٧٥٥ م[٢]. ثم اتجه نحو مدينة طرش[٣] Torrox في كورة البيرة لتتحول إلى معسكر للأمويين[٤]، يعد فيه الخطة للقضاء على يوسف الفهري والصميل بن حاتم.

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٧٥.
(٢) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane. T1 P.101.
(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٢٤.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٦٦، ٦٨.

ثم انتقل الأمير عبد الرحمن إلى كورة رية، فدخلها في ستمائة فارس وخرج منها في ألفي فارس، ليدخل أرشذونة. وأخذ جيشه في التضخم بعد دخول شذونة، ثم دخل إشبيلية في شوال ١٣٨ هـ/آذار ٧٥٦ م، وبايعه جميع أهل غرب الأندلس[١]، ثم تقدم نحو قرطبة.

توجه جيش الولاية بقيادة يوسف الفهري ومعه حليفة الصميل بن حاتم، نحو المصّارة، أو ألاميدا Alameda في المصادر الإسبانية، وهي مكان فسيح يجاور جنوب غرب قرطبة على الضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير، في محاولة لمنع عبد الرحمن بن معاوية من دخول قرطبة، بعد أن عسكر في بايش[٢] Bayex، وانضم إليه من أجناد اليمنية وبني أمية كل من استطاع اللحاق به من أهل قرطبة. فلجأ عبد الرحمن بن معاوية إلى الحيلة، وأوهم الفهري والصميل برغبته في الصلح يوم وقفة عيد الأضحى المبارك، أي الجمعة ٩ ذي الحجة ١٣٨ هـ/ ١٤ أيار ٧٥٦ م، ليعبر النهر ليلاً، ثم يعلن رفضه الصلح إلا بعد مبايعته بالإمارة، باعتبارة وريثاً لبني أمية على الأندلس.

وفي وقعة المصّارة يوم السبت ١٠ ذي الحجة ١٣٨ هـ/ ١٥ أيار ٧٥٦م، حلت الهزيمة بيوسف الفهري الذي التجأ إلى طليطلة، وبالصميل بن حاتم الذي فرَّ إلى جيّان. في حين دخل عبد الرحمن بن معاوية إلى قرطبة، ولقب بـ«الداخل»، ويعني الداخل إلى الأندلس التي تمكن من تحويلها إلى إمارة أموية وراثية مستقلة عن الخلافة العباسية، تحيي من جديد الدولة الأموية المنهارة في دمشق.

ورغم ذلك، فقد اكتفى الأمير عبد الرحمن «الداخل» بقطع الدعاء لبني العباس، ولم يعلن نفسه خليفة، لأن الأمويين في تلك الفترة كانوا يشعرون

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٢٥.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٨٦.

بأن الخلافة واحدة لا تتعدد، وأن الخليفة الشرعي هو حامي الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة[١] وثالثهما بيت المقدس، أي الخليفة العباسي.

اتبع الأمير عبد الرحمن الأول، سياسة التسامح مع خصومه، فاستمال إليه يوسف الفهري والصميل بن حاتم، وتصالح معهما سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧م، ودعاهما للنزول معه في قرطبة، وقد اعترفا بإمارته على الأندلس[٢].

وبعد سنة واحدة، هرب يوسف الفهري من قرطبة سنة ١٤١ هـ/٨٥٨م، ونزل في ماردة، وجمع حوله عشرين ألفاً من البربر وعرب الأندلس[٣]، لاستعادة قرطبة والإطاحة بحكم الأمير عبد الرحمن الأول الذي عمد على الفور إلى سجن الصميل، متهماً إياه بالتحريض على الثورة التي انتهت سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م بهزيمة يوسف الفهري وفراره ثم مقتله على يد عبد الله بن عمر الأنصاري[٤] الذي احتز رأسه وأقبل به إلى الأمير عبد الرحمن الأول. وكان الأمير بدوره يقضي على الصميل بن حاتم خنقاً في سجنه[٥].

وعندما أدرك الأمير عبد الرحمن الأولى فشل سياسة التسامح، انتهج سياسة جديدة تقوم على الشدة والعنف في التخلص من خصومه، مع الحرص على مواجهتهم منفردين، حتى يقضي عليهم واحداً بعد الآخر قبل أن يتكتلوا ضده.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٢٨.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٧٢.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ٩٦، ٩٧ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٠، ١٠١.

٢ ـ فشل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في استرداد الأندلس (١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م)

أدرك أبو جعفر المنصور، وهو ثاني خليفة عباسي، ضرورة استعادة الأندلس، كما كانت عليه قبل دخول الأمير عبد الرحمن الأول إليها، أي ولاية عباسية وليس إمارة أموية وراثية مستقلة. لذلك اتصل سراً بأحد الزعماء العرب، وهو العلاء بن مغيث اليحصبي من قبيلة جذام اليمنية، وكان قائداً لحامية باجة Beja في جنوب غرب الأندلس، وبعث له بلواء الدولة العباسية وبسجل تعيينه على الأندلس سنة ١٤٦ هـ/ ٧٦٣ م، فجمع حوله العناصر الساخطة، وبخاصة الغالبية اليمنية التي لم تجد في الأمير عبد الرحمن الأول غايتها في السلطة والنفوذ.

اندلعت ثورة العلاء بن مغيث في باجة ورفع الأعلام العباسية السوداء سنة ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م. فخرج الأمير عبد الرحمن الأول من قرطبة، وما لبث أن تراجع أمام قوة الثوار إلى حصن قرمونة شرق إشبيلية، حيث حاصره العلاء مدة شهرين. وهنا تجلت مقدرة الأمير الأموي الذي جمع رجاله السبعمائة، وخرج بهم من باب المدينة في عملية جريئة وخاطفة، اخترق معها الحصار، وانقض على الجيش المحاصر، وقتل قائده العلاء بن مغيث مع عدد كبير من رجاله[١].

لم يكتف الأمير عبد الرحمن الأول بهذا الانتصار، بل أمر بلف رأس العلاء بن مغيث في اللواء والسجل بعد أن صبّره بالملح والكافور، ووضعه في سفط بعث به مع رجل من أهل قرطبة في طريقه إلى الحج، فوضعه أمام سرادق الخليفة العباسي المنصور الذي كان يحج في تلك السنة، فأدرك

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣١١.

خطورة الأمير الأموي قائلاً: «الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان»[١]. وقيل أنه أطلق عليه اسم «صقر قريش»[٢].

تابع الأمير عبد الرحمن الأول، سياسة الشدة والعنف، في مواجهة الثورات التي اندلعت ضده. فأخمد ثورة هشام بن عروة في طليطلة، وقتله صلباً[٣]. كما قضى على ثورة اليمنية في مدينة لبلة سنة ١٤٩ هـ/ ٧٦٦م، وكانت بقيادة سعيد اليحصبي الملقب بالمطري الذي سيطر على إشبيلية قبل مقتله. ثم قضى على ثورة أبي الصباح بن يحيى اليحصبي في نفس السنة، وذلك بالحيلة، حيث استدرجه إلى قرطبة بالأمان، ثم أمر بقتله، فانقض عليه الحرس بالخناجر[٤].

٣ ـ ثورة البربر بقيادة «الفاطمي» (١٥٢ ـ ١٦٠ هـ/ ٧٦٩ ـ ٧٧٦ م)

اندلعت ثورة البربر في شنتبرية Santebria، بقيادة شقيا[٥] أو سفين بن عبد الواحد المكناسي الذي ادعى أنه من نسل الحسن بن علي عليه السلام، فعرف بـ «الفاطمي». وقد امتدت ثورته طيلة ثماني سنوات متبعاً أسلوب حرب العصابات بشن الهجمات الخاطفة ثم الاحتماء بكهوف الجبال، مما اضطر الأمير الأموي لإرسال حملة كبيرة بقيادة عبيد الله بن عثمان وتمام بن علقمة. ومع ذلك لم يتمكن من القضاء عليه، إلا بمؤامرة دبرها بعض أصحابه، فاغتيل سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ م[٦]. ولعل هذه الثورة، هي أول محاولة لإقامة

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٤.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٨٨، ٨٩.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص ٩، ١٠.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١٠٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٥) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P.111.

(٦) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٠٥.

دولة شيعية في المغرب، لأنها سبقت دولة الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى بنحو عشرين سنة.

٤ ـ فشل حملة شارلمان على شمال الأندلس (١٦١ هـ/٧٧٨م)

تولى شارلمان حكم مملكة الفرنجة سنة ١٥٤ هـ/ ٧٧١ م، وقد تحولت أسرته الكارولنجية، منذ عهد جده شارل مارتل، إلى القوة الرئيسية التي حفظت أوروبا المسيحية من الفتح العربي الإسلامي. فلا غرو أن يفكر بالقيام بهجوم معاكس ضد العرب المسلمين لاسترداد الأندلس، وهو يحظى بدعم البابوية مادياً ومعنوياً، فيؤمن بذلك حدوده الجنوبية قبل تحقيق مشروعه الكبير المتمثل بإحياء الامبراطورية الغربية «الرومانية المقدسة».

وسنحت الفرصة لشارلمان، عندما ثار سليمان بن يقظان «الأعرابي»، وهو حاكم سرقسطة في شمال الأندلس، وتحالف مع الحسين بن يحيى الأنصاري ضد الأمير عبد الرحمن الأول الذي أرسل ثعلبة بن عبيد الجذامي للقضاء على الثورة فحلت الهزيمة به ووقع في الأسر. ولم يكتف الأعرابي بذلك، فقابل شارلمان في مدينة بادربون سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٧م[١]، واتفق معه على حملة عسكرية يعبر معها شارلمان جبال البيرينيه في شمال الأندلس، متجهاً نحو سرقسطة، فيسلمها له. وهذا أمر مستغرب، أن يقوم والي عربي مسلم بالثورة ضد أمير عربي مسلم، متحالفاً مع ملك أوروبي مسيحي يطمح إلى إقامة امبراطورية واسعة.

وبالفعل، عبر شارلمان ممر الرونسڤال في جبال البيرينيه ربيع سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م، وعندما وصل سرقسطة، خرج واليها سليمان بن يقظان الأعرابي لاستقباله. لكن الحسين بن يحيى الأنصاري انقلب على حليفه وتزعم أهالي سرقسطة الذين رفضوا تسليم مدينتهم[٢] إلى ملك أجنبي مسيحي، فحاصرها

(١) Reinhart Dosy: Histoire des Musulmans d'Espagne, P. 228.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، جـ ١ ص ١٧٦.

شارلمان دون جدوى، في الوقت الذي وصلته فيه أخبار ثورة القبائل السكسونية الجرمانية وارتدادها عن المسيحية إلى ديانتها الوثنية القديمة، فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة والانسحاب إلى بلاده، وصحب معه سليمان بن يقظان الأعرابي «أسيراً» محملاً إياه فشل حملته على الأندلس.

وفي طريق العودة، حلت الكارثة بحملة شارلمان، وهو يعبر ممر الرونسفال، عندما هاجم سكان المناطق الجبلية «البشكنس» Vascos مؤخرة الجيش في يوم السبت ١٦ ذي القعدة ١٦١ هـ/ ١٥ آب ٧٧٨ م، وقضوا عليها بعد أن رموا وابلاً من السهام وكتل الحجارة. فقتل عدد كبير من كبار القادة وفي طليعتهم رولان Roland الذي تحول إلى أسطورة، بعد ثلاثمائة سنة، عندما وضعت «أنشودة رولان». وهي ملحمة فرنسية تشيد بدور هذا القائد الفرنسي في وقائع بعيدة عن الحقيقة التاريخية، لتمجيد شارلمان بطل المسيحية بتحويل الهزيمة إلى انتصار معنوي.

وتختلف الآراء حول الهجوم المباغت الذي قام به البشكنس، إن كان بتدبير هؤلاء وحدهم بقصد السلب والنهب أو انتقاماً لما قام به شارلمان من تخريب عاصمتهم بنبلونة[١]، أم أنه تم بالاشتراك مع مطروح وعيشون[٢] إبني سليمان بن يقظان الكلبي بتحريض من الأمير عبد الرحمن الأول الذي أمدهما بالمال والسلاح لإنقاذ أبيهما، فاتفقا مع البشكنس في تدبير الكمين، وأنقذا والدهما وعادا به إلى سرقسطة.

وبذلك فشلت حملة شارلمان، وكان مصير حليفها سليمان بن يقظان الكلبي «الأسر» أولاً على يديها، ثم القتل ثانياً على يد حليفه السابق حسين بن يحيى الأنصاري داخل المسجد الجامع سنة ١٦٤ هـ/ ٧٨٠ م، لينفرد بحكم

---

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P. 124.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٦ ص ٥.

سرقسطة. ومن المستبعد أن تكون هذه الحملة ضمن اتفاق مع الخليفة العباسي محمد المهدي الذي تولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م، كما يذكر البعض. فرغم التقارب بين الدولتين الكارولنجية والعباسية، إلا أن الخليفة العباسي يدرك تماماً خطورة مثل هذه الحملة التي لن تعيد الأندلس إلى الدولة العباسية، بقدر ما ستعيدها إلى الدولة الكارولنجية. ولعله، أيقن، على غرار والده المنصور، من مقدرة الأمير عبد الرحمن الأول الذي ما لبث أن دخل سرقسطة وقتل حسين بني يحيى الأنصاري ستة ١٦٦ هـ/ ٧٨٢ م.

٥ ـ فشل مؤامرة المغيرة بن الوليد بن معاوية (١٦٨ هـ/ ٧٨٤ م)

تشاء الظروف، أن تكون آخر المؤامرات والثورات ضد الإمارة الأموية الناشئة، على يد هذيل ومحمد ابني الصميل بن حاتم ويوسف الفهري اللذين كانا أول من واجه الأمير عبد الرحمن بن معاوية «الداخل» قبل وبعد دخوله قرطبة سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٦ م، ليقضي عليهما معاً سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م.

فقد اشترك هذيل بن الصميل في مؤامرة أعدها المغيرة بن الوليد بن معاوية[١] لعزل عمه الأمير عبد الرحمن بن معاوية «الداخل» الذي لم يتورع عن قتلهما سنة ١٦٨ هـ/ ٧٨٤ م.

كما أن محمد بن يوسف الفهري المعروف بأبي الأسود، أعلن الثورة بمدينة قسطلونة شرق الأندلس قبل أن تحل به الهزيمة ويلوذ بالهرب[٢]، في مستهل ربيع الأول ١٦٩ هـ/ ١١ أيلول ٧٨٥م، أي قبل ثلاث سنوات وشهر واحد من وفاة الأمير عبد الرحمن الأول في جمادى الأولى ١٧٢ هـ/ تشرين الأول ٧٨٨ م.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٨٥.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١١٦.

وهذا كله يعني، أن الأمير عبد الرحمن الأول، قضى حوالى ثلاث وثلاثين سنة، وهو يؤسس الإمارة الأموية في الأندلس، حتى غدت قرطبة من أشهر العواصم.

٦ ـ ازدهار قرطبة

رغم أن الأمير عبد الرحمن الأول، قضى ثلاثاً وثلاثين سنة أميراً للأندلس، وهو يواجه الثورات الداخلية سواء من العرب أو البربر، والمؤامرات الخارجية، سواء من الخلافة العباسية أو الدولة الكارولنجية، إلا أنه لم يغفل الاهتمام بتنظيم الحكم وتطوير الإدارة وتنفيذ المشاريع العمرانية حتى غدت قرطبة عاصمة لإمارة أموية مستقلة، لا تقل شأناً عن دمشق عندما كانت عاصمة الخلافة الأموية، أو بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

(أ) قصر الرُّصافة «الدمشق»

بنى الأمير عبد الرحمن الأول قصراً صيفياً في شمال غرب قرطبة، سماه قصر الرصافة أو «الدمشق»، على غرار قصر جده هشام بن عبد الملك الذي بناه خارج دمشق، في بادية الشام بين تدمر ونهر الفرات واسمه «قصر الرصافة»[١] أيضاً. والرصافة تعني المدينة الجانبية بجوار العاصمة مثل رصافة بغداد وهي بغداد الشرقية التي بناها المنصور العباسي على الضفة الشرقية لنهر دجلة مقابل بغداد الغربية. وما زال إسم «الرصافة» Arrizafa يطلق حتى اليوم على قرية في المكان الذي كان يحتله قصر الرصافة في سفح جبل قرطبة.

ونقل الأمير عبد الرحمن الأول إلى رصافة قرطبة، ما كان يشاهده في قصر جده في بادية الشام، من النخيل وأشجار الفاكهة، مثل التين والرمان

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ١٧، ١٩٠.

السفري[١]، نسبة إلى سفر بن عبيد الله الكلاعي الذي كان يجيء بها، لتنتشر في سائر أنحاء الأندلس. وكانت نافورات المياه تتوسط حدائق الأزهار والورود.

وكان الأمير عبد الرحمن الأول شاعراً، وصف نخلة داخل الرصافة فأثارت الحنين إلى بلاد الشام في المشرق العربي الإسلامي، معتبراً نفسه في غربة داخل الأندلس التي سماها «أرض الغرب»، فقال[٢]:

تبدّت لنا وسط الرُّصافةِ نخلةٌ ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبةٌ ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

(ب) جامع قرطبة (١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م)

أعاد الأمير عبد الرحمن الأول بناء جامع قرطبة سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م، مما يعني أنه هو الذي أسس الجامع قبل توسعته ثلاث مرات خلال أكثر من قرنين. وهذا النمو المستمر للجامع، يختصر، وحده، تطور الفن العربي الإسلامي سواء في مبادىء العمارة أم في «الثيمات» الزخرفية[٣].

بنى الأمير عبد الرحمن الأول جامع قرطبة بعد أن ضم إليه كنيسة سانت بنجنت[٤]، على غرار ما فعله الوليد بن عبد الملك عند بنائه لجامع دمشق. أي أن الجامع لم يبن على أنقاض كنيسة، بل ضمت إليه أرض صغيرة تم شراؤها بعد أن كانت تقوم عليها كنيسة.

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ١٥.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٠.
(٣) حيان صيداوي: الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية، ص ١٣١.
(٤) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٠٩.
السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٠٩.

وتبدو في جامع قرطبة، المؤثرات الشامية المقتبسة من الجامع الأموي بدمشق، وإن كانت عقود جامع قرطبة تبدو أكثر إجادة وروعة. كما تبدو هذه المؤثرات في وضع المئذنة وفي الممر الذي يصل الجامع بقصر الإمارة[١] المعروف بالساباط.

كان جامع قرطبة[٢]، عند بنائه زمن الأمير عبد الرحمن الأول، في هيئة متواضعة، بالمقارنة مع المساجد الأموية في المشرق العربي الإسلامي. فلا يوجد أي بهو في الفناء، أو أي قبة، أو أي مئذنة، وهي عناصر ميزت، حتى هذا التاريخ، الهندسة المعمارية لدى العرب المسلمين. ومع ذلك، فإن جامع قرطبة، يلتقي مع التصميم الأساسي العام للجامع العربي، رغم تواضعه الذي يبدو أنه يعكس الإمكانيات المحدودة للأمير عبد الرحمن الأول وهو يؤسس إمارته الأموية وقد شغلته الثورات والمؤامرات طيلة حكمه.

ومع إمارة هشام الأول «الرضا» سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م، بنيت مئذنة مربعة الشكل، ثم استعيض عنها بمئذنة أكبر حجماً سنة. ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م، أي في زمن عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله».

وجرت أول توسعة للجامع، تلبية لحاجات الأعداد المتزايدة من المسلمين، سنة ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨ م، أي زمن الأمير عبد الرحمن الثاني، فزيدت قاعة الصلاة بزيادة سبعة آلاف وخمسمائة ذراع مربع[٣].

وكانت التوسعة الثانية (٣٥٠ ـ ٣٥٦ هـ/ ٩٦١ ـ ٩٦٧ م)، زمن الحكم الثاني «المستنصر»، فتوسعت قاعة الصلاة أيضاً بمقدار نصف المساحة

---

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P.129.

(٢) للمزيد من المعلومات، عبد العزيز الدولاتي: مسجد قرطبة وقصر الحمراء.

(٣) Elie Lambert: Les mosquées de type Andalous en Espagne et en Afrique du Nord, P. 273.

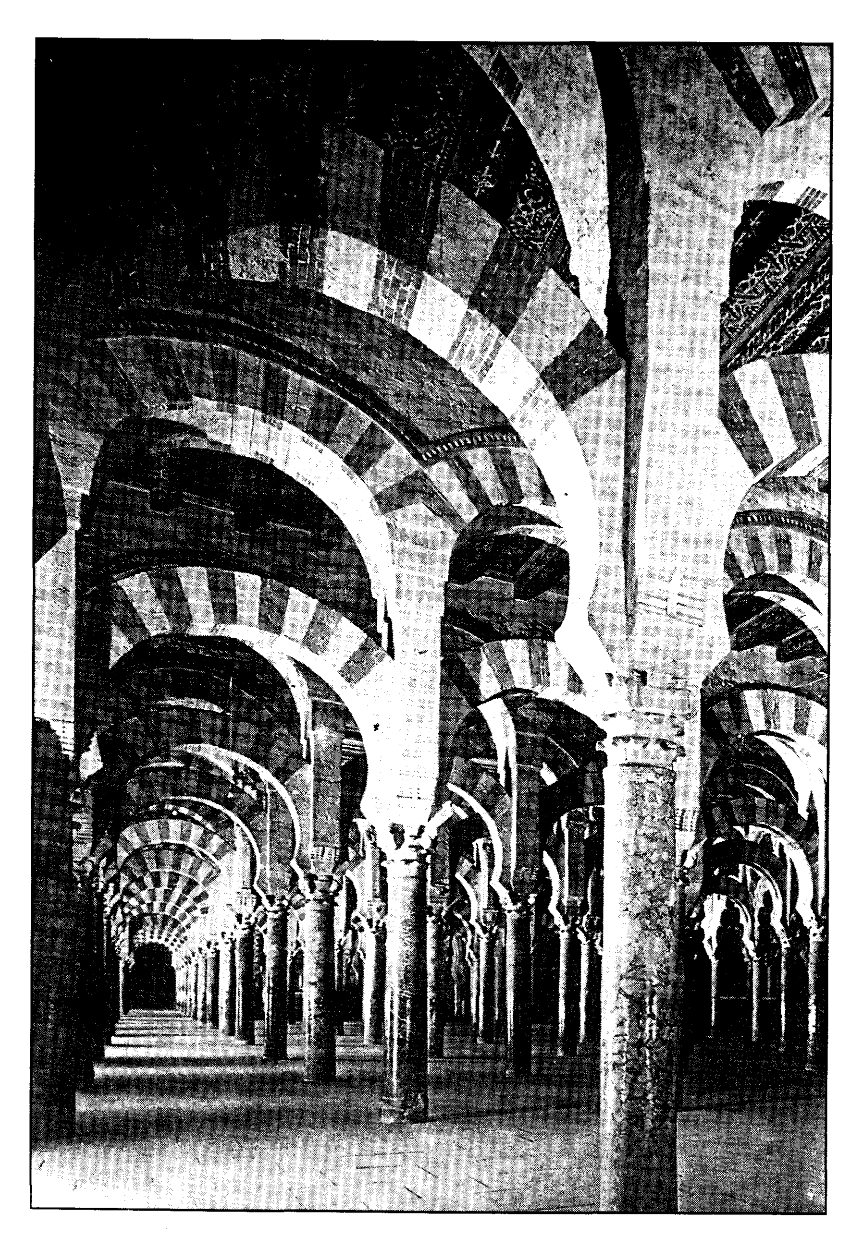
الأخيرة، وأضاف قبتين إثنتين، وتحول المحراب إلى شكل مثمن الأضلاع داخل دائرة يبلغ قطرها ثمانية أمتار، مما جعله نموذجاً فريداً من نوعه. وبذلك بلغت مساحة الجامع أربعة عشر ألف متر مربع، ومساحة قاعة الصلاة ثمانية آلاف متر مربع، أي القاعة الأوسع مساحة في العالم الإسلامي بأسره.

أما التوسعة الثالثة، فقام بها محمد بن أبي عامر «المنصور» سنة ٣٧٩ هـ/ ٩٨٩ م، حتى بلغت مساحة الجامع إثنين وعشرين ألفاً وخمسمائة متر مربع، معتمداً على نظام الأعمدة الأركان على غرار الجامع الأموي بدمشق.

وقد اكتسب جامع قرطبة شهرته الواسعة، من نظام البوائك، أي صفوف الأعمدة المركبة داخل قاعة الصلاة، بشكل يذكر الداخل إليها بتواتر أشجار النخيل في غوطة دمشق أو في ضواحي البصرة، ويزداد الشعور عمقاً مع اللونين المتداخلين للأقواس: الأبيض والأحمر[1].

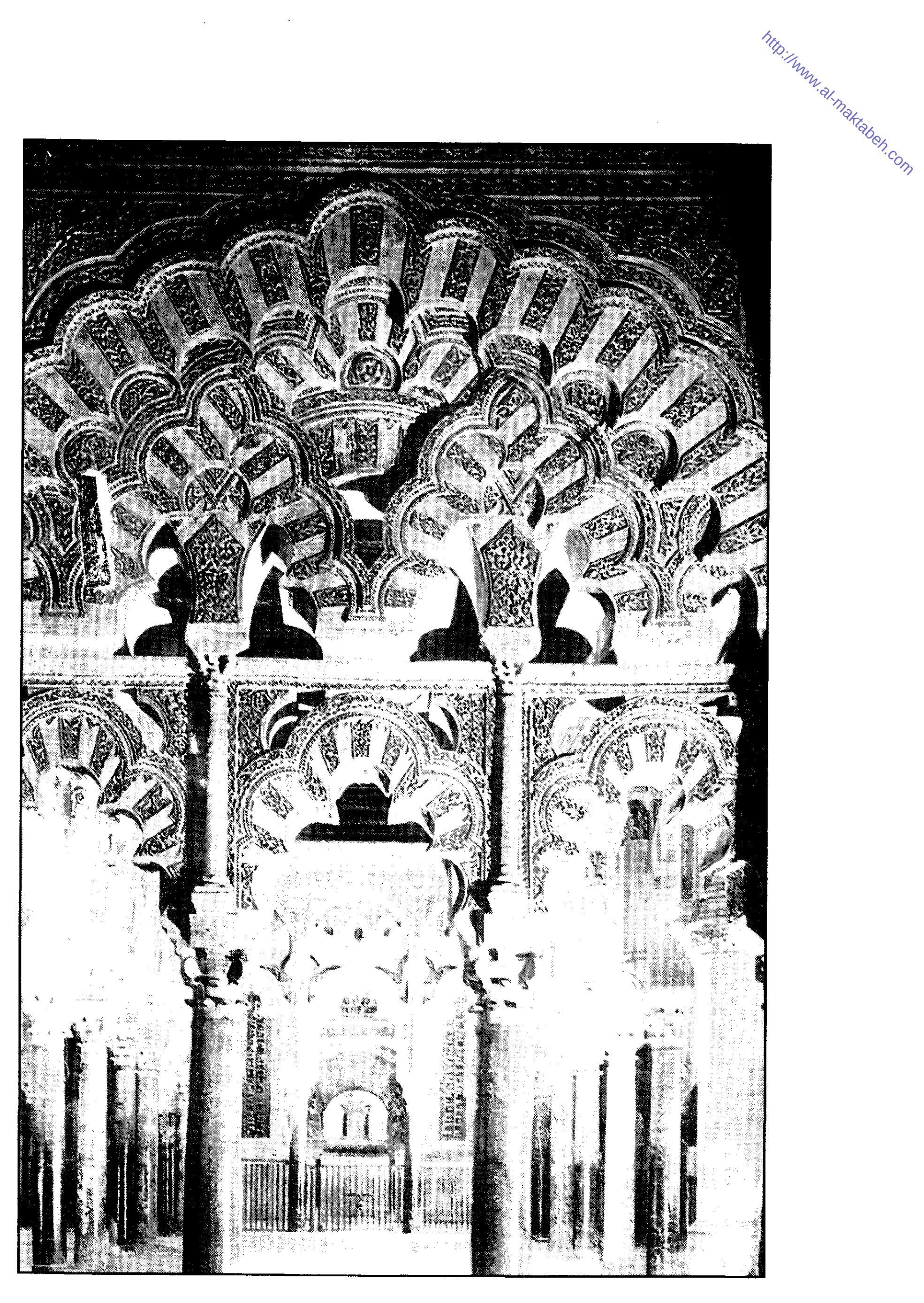


(١) حيان صيداوي: الإسلام وفنوية تطور العمارة العربية، ص ١٣٤.



غابة الأعمدة داخل بيت الصلاة في مسجد قرطبة

حيان صيداوي: الإسلام وفنئوية تطور العمارة العربية، ص ١٣٩ .



المجاز الرئيسي المؤدي إلى المحراب في مسجد قرطبة
حيان صيداوي: الإسلام وفنئوية تطور العمارة العربية، ص ١٤٠

(جـ) السور والحامية العسكرية

لم يغفل الأمير عبد الرحمن الأول تحصين العاصمة قرطبة بسور[1]، لحمايتها من هجمات الثائرين على حكمه، وهم كثر، معتمداً على جيش قوي، من أجل توطيد إمارته المستقلة عن الخلافة العباسية.

وكانت نواة الجيش، جنود الفرقة الشامية التي كان يقودها بلج بن بشر منذ عبوره من سبتة إلى الأندلس، لتلتف في ما بعد حول الأمير عبد الرحمن الأول القادم من الشام و«الداخل» إلى الأندلس أيضاً. كما اعتمد الجيش على البربر من المغرب، والصقالبة Esclave الذي كان يؤتى بهم كأرقاء أو عبيد من جنوب أوروبا وهي التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامة[2]. واختصت العاصمة قرطبة بحامية عسكرية كبيرة، لأن سقوطها يعني سقوط الإمارة.

وذكر المقري أن جيش الأمير عبد الرحمن الأول بلغ المائة ألف[3]، وأن حامية قرطبة بلغت أربعين ألفاً[4]، ولعل العدد أقل من ذلك بكثير، ولكن فعالية هذا الجيش وقوته جعلت بعض المؤرخين يبالغون في تحديد حجمه.

٧ ـ مشكلة وراثة الإمارة بعد وفاة عبد الرحمن الأول (جمادى الأولى ١٧٢ هـ/تشرين الأول ٧٨٨ م)

بوفاة الأمير عبد الرحمن الأول «الداخل» في جمادى الأولى ١٧٢ هـ/ تشرين الأول ٧٨٨ م، برزت مشكلة وراثة الإمارة، وهي أصعب المشاكل

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ٨٤.
(٢) أحمد مختار العبادي: الصقالبة في إسبانيا، ص ٨.
(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ٢٤.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٢ ص ٦٧.

الداخلية، لأن المواجهة فيها تصبح بين الأخوة داخل البيت الواحد. فالأمير قبل وفاته لم يعلن صراحة إسم ولي عهده، وإن كان يميل إلى إبنه هشام الذي ولد في الأندلس من أم إسبانية وولاه على ماردة، بينما إبنه الأكبر سليمان ولد في الشام واصطحبه معه طفلاً أثناء هروبه وولاه على طليطلة[(١)]. وكان هشام أسرع من أخيه، في الدخول إلى العاصمة قرطبة ليتولى الإمارة طيلة ثماني سنوات (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٨٨ ـ ٧٩٦م)، قضاها في محاربة أخيه الأكبر سليمان ونفيه مع أخيه الآخر عبد الله إلى المغرب، وفي القضاء على ثورة اليمنية[(٢)] وثورة البربر[(٣)]، دون إغفال الجهاد ضد منطقة القلاع المسيحية في شمال الأندلس[(٤)]. ويبقى الحدث الهام في عهده هو دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ليحل مكان مذهب الإمام الأوزاعي. وأصبح لقب الأمير هو هشام «الرضا».

رغم أن هشام الأول «الرضا»، عهد لابنه الحكم الأول «الربضي»، بولاية العهد من بعده، ليتولاها طيلة ست وعشرين سنة (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م)، إلا أن الحكم الربضي بدأ حكمه أيضاً بمحاربة عمه سليمان بن عبد الرحمن الأول وقضى عليه بالقتل. كما حارب عمه الآخر عبد الله بن عبد الرحمن الأول الذي ما لبث أن طلب الأمان، فصالحه على حكم بلنسية طيلة حياته. وقضى على ثورة أهل الربض في قرطبة سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧م، وكانت السبب في إطلاق لقب «الربضي» عليه. دون أن يغفل الجهاد ضد الممالك المسيحية في شمال إسبانيا[(٥)]. ثم عهد بولاية العهد لإبنه الأكبر عبد الرحمن الذي تولى إمارة الأندلس بعد وفاة أبيه سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢٢ م.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٩٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٢ ص ٩٣، ٩٤.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٢ ص ٩٦.
(٤) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P.143.
(٥) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣١٨ ـ ٣٢٠.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الرابع

العصر الذهبي لإمارة الأندلس
عبد الرحمن الثاني «الأوسط»

(٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢ م)

ولد عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الأول «الداخل»، في طليطلة، في شعبان ١٧٦ هـ/ تشرين الثاني ٧٩٢ م، وتولى الإمارة يوم الخميس ٢٦ ذي الحجة ٢٠٦ هـ/ ٢٢ أيار ٨٢٢ م، وهو لا يتجاوز الثلاثين، ليعرف باسم عبد الرحمن الثاني أو «الأوسط»، لأنه ثاني ثلاثة أمراء حملوا هذا الإسم وتولوا إمارة الأندلس.

وقد عرفت إمارة الأندلس ذورة عصرها الذهبي، طيلة فترة حكمه الطويلة التي امتدت إحدى وثلاثين سنة (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢ م)، تمكن خلالها من القضاء على الثورات والفتن الداخلية، وغزو مملكة استورقة في الشمال، وتعزيز نشاطه البحري على السواحل الشرقية المطلة على البحر المتوسط، ثم السواحل الغربية المطلة على المحيط الأطلسي. وهو أول من وضع أسس الحضارة الأندلسية، فنظم الوزارة والأمن وأنشأ دار السكة في قرطبة، وبنى الجوامع وشيد مدينة مرسية، وبنى قصر الإمارة الجديد وفتح أبوابه أمام أشهر الفقهاء والعلماء والمغنين والجواري الذين لعبوا دوراً بارزاً في الحضارة التي طبعت بها الأندلس منذ عهده.

١ ـ الثورات والفتن الداخلية

واجه الأمير عبد الرحمن الثاني، على غرار الأمراء الثلاثة الذين سبقوه،

الثورات والفتن الداخلية، التي تهدف للإطاحة بالحكم، وأولها فتنة تدمير بين اليمنية والقيسية، وثورة البربر في ماردة، وثورة المولدين في طليطلة، وتمرد تطيلة، وفتنة المستعربين المتطرفين في قرطبة.

(أ) فتنة «تدمير» بين اليمنية والقيسية (٢٠٧ ـ ٢١٣ هـ/ ٨٢٣ ـ ٨٢٨م)

كان عبد الله بن عبد الرحمن الأول المعروف بـ«البلنسي»، أول من خرج على الأمير عبد الرحمن الثاني، فغادر بلنسية إلى تدمير استعداداً للتوجه نحو العاصمة قرطبة. لكنه ما لبث وأن تراجع إلى بلنسية حيث توفي تحت وطأة المرض سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٣ م[١]، فتخلص الأمير من خطر عم أبيه.

وفي تلك السنة اندلعت الفتنة بين اليمنية والقيسية في مدينة أله حاضرة تدمير، وهي إحدى المقاطعات في شرق الأندلس، بسبب خلاف بسيط، عندما أقدم رجل قيسي على انتزاع ورقة دالية من بستان رجل يمني، فعمد هذا الأخير إلى قتله[٢]. وتحولت الفتنة إلى حرب بين العرب في تدمير، استمرت ست سنوات، برزت فيها سيطرة اليمنية بقيادة أبي الشماخ محمد بن إبراهيم[٣]، قبل أن يتمكن الأمير عبد الرحمن الثاني من القضاء عليها سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م.

(ب) ثورة البربر في ماردة (٢١٣ ـ ٢١٩ هـ/ ٨٢٨ ـ ٨٣٤ م)

شهدت الجزيرة الخضراء، ثورة البربر بقيادة حبيب البرنسي سنة ٢١١ هـ/ ٨٢٦ م، لكن الأمير عبد الرحمن الثاني قضى عليها بسرعة، في حين أمضى ست سنوات حتى تمكن من القضاء على ثورة ماردة.

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٤ ص ١٢٨.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٢٤.

(٣) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane. T1 P. 199.

ففي سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م، ثارت مدينة ماردة بزعامة بربري آخر هو محمود بن عبد الجبار بن راحلة، لينضم إليه أحد المولدين أو المستعربين واسمه سليمان بن مرتين ويلقب بـ«مقنب»، وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقي. ولم يتم إخضاع المدينة نهائياً إلا سنة ٢١٩ هـ/ ٨٣٤م، عندما فر الثائران، وجرت مطاردتهما، فقتل سليمان بن مرتين سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥م، ومحمود بن عبد الجبار سنة ٢٢٥ هـ/ ٨٤٠ م[١].

(جـ) ثورة المولدين في طليطلة (٢١٤ ـ ٢٢٢ هـ/ ٨٢٩ ـ ٨٣٧ م)

تحولت طليطلة، وهي العاصمة القديمة، إلى مركز للثورة، منذ بداية إمارة الحكم الأول «الربضي». فقد ثار فيها المولدون، وهم خليط من نسل أهل البلاد الأصليين ومن العرب والبربر الفاتحين، أي الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات، ونشأوا على الإسلام. ولم يسيطر الحكم الربضي على المدينة إلا بعد أن عين عمروس بن يوسف والياً عليها، وهو من المولدين، فتمكن بالحيلة من ضرب أعناق جميع الأعيان والوجهاء في مجزرة عرفت بوقعة الحفرة سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٨ م، قتل فيها خمسة آلاف وثلاثمائة[٢]، وقيل سبعمائة[٣]، ليقذف بهم داخل حفرة كبيرة.

وعادت طليطلة للتمرد، بعد سبع سنوات على بدء إمارة الإبن عبد الرحمن الثاني، ففي سنة ٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م، قاد الثورة هاشم الضراب، وهو أحد الرهائن الذين أخذهم الحكم الأول «الربضي» من طليطلة إلى قرطبة حيث عمل حداداً فعرف بـ«الضرَّاب». وأرسل الأمير عبد الرحمن الثاني عامله على الثغر محمد بن رستم، فأنزل الهزيمة بهاشم الضراب وقتله مع كثير من أتباعه

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٠٤.

في معركة قرب دروقة Daroca[1] سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١م. ورغم ذلك، امتنعت طليطلة على الأمير الذي أرسل أخاه أمية بن الحكم سنة ٢١٩ هـ/ ٨٣٤م، فحاصرها دون جدوى، وعاد إلى قرطبة.

استمرت ثورة طليطلة ثماني سنوات، حتى فتحت أبوابها أمام القائد عبد الواحد الإسكندراني، فحاصرها، ودخلها عنوة في رجب ٢٢٢ هـ/ حزيران ٨٣٧ م[٢].

(د) تمرد حاكم تطيلة (٢٢٨ هـ/ ٨٤٣م)

كان البشكنس، بدورهم، يثيرون القلاقل في إقليم أراغون شمال شرق الأندلس، فأرسل الأمير عبد الرحمن الثاني القائد عبيد الله البلنسي سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤٢م، وهزمهم. ولعل خلافاً وقع، أثناء هذه الغزوة، بين القائد البلنسي وموسى بن موسى حاكم تطيلة، وهي من أعمال أراغون، مما أدى إلى تمرد موسى بن موسى، وهو من أصل قوطي، ليتحالف مع البشكنس فاضطر الأمير عبد الرحمن الثاني للخروج بنفسه على رأس جيش كبير جعل على ميمنته إبنه محمد وعلى ميسرته إبنه المطرف، وأنزل الهزيمة بقوات التحالف في شوال ٢٢٨ هـ/ تموز ٨٤٣م[٣]. ثم عاد إلى قرطبة، بعد القضاء على تمرد موسى بن موسى الذي التجأ إلى بنبلونة عاصمة البشكنس.

وفي السنة التالية ٢٢٩ هـ/ ٨٤٤ م، غزا الأمير عبد الرحمن الثاني بنبلونة التي اضطرت لعقد الصلح، والتزام الهدوء[٤].

---

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane. T1, P. 201.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٦ ص ١٤١.
(٣) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1, P. 217.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٢٩.

(هـ) فتنة المستعربين المتطرفين في قرطبة (٢٣٥ ـ ٢٤٤ هـ/ ٨٥٠ ـ ٨٥٩م)

كان المستعربون يشكلون غالبية سكان الأندلس في الفترة الأولى التي أعقبت الفتح العربي الإسلامي. فهم المسيحيون سكان البلاد الأصليين الذين احتفظوا بدينهم، واختلطوا بالعرب وتكلموا اللغة العربية إلى جانب لغتهم الرومانسية Romance، وهي لهجة عامية مشتقة من اللاتينية، منها تكونت اللغة الإسبانية. ووصل بعضهم إلى مناصب رفيعة في الجيش والإدارة، وفاق بعضهم الآخر العرب في الشعر والفكر. ولذلك عرفوا باسم المستعربة أو المستعربين Mozarabes[١]، أي الذين تعربوا لغة وثقافة، وأخذوا يبتعدون عن اللغة اللاتينية لغة الكتاب المقدس وسير القديسين.

وأخذ عدد المستعربين يتناقص شيئاً فشيئاً، مع دخول عدد كبير منهم في الإسلام ليعرفوا بالمسالمة، أو بسبب زواج الرجال المسلمين من النساء المسيحيات ليعرف الأبناء بالمولدين. وتحولوا إلى قلة تعيش جنباً إلى جنب مع المسلمين في أحياء خاصة بهم، ولهم في كل مدينة رئيس يعرف بالقومس[٢]، وقاض مسيحي يفصل في منازعاتهم حسب القوانين القوطية القديمة يعرف بقاضي العجم[٣]. وكانت لهم أيضاً كنائسهم في أحيائهم الخاصة بهم في قرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة.

ورغم سياسة التسامح مع المستعربين، فإن تغلغل حركة الاستعراب عند المسيحيين، أحدث رد فعل قوي لدى القساوسة ورجال الدين منهم، في أواخر إمارة عبد الرحمن الثاني. وتزعم هذا الفريق المتطرف في قرطبة راهب إسمه إيلوخيو Eulogio، وهو من أسرة مستعربة على جانب من الثراء، ومعه

---

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P. 225.

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥.

صديقه الفارو Alvaro وهو تاجر ثري، وفتاة مسلمة من المولدين إسمها فلورا Flora تأثرت بأمها المسيحية وتحولت إلى راهبة مرتدة عن الإسلام بعد تتلمذها على يد ايلوخيو[١].

وكان الراهب ايلوخيو يشجع أتباعه على الاستشهاد، حتى يستثير قلوب عامة المستعربين البسطاء، مما يؤدي إلى الفتنة والثورة. وكانت عملية الإستشهاد تتم بطريقة غريبة، كما فعل الراهب برفتكو Perfecto الذي دخل في نقاش مع أحد المسلمين ليشتم النبي العربي ﷺ ويسب الإسلام علناً، وعقاب مثل هذا الشتم والسب الموت. وبالفعل أعدم برفتكو علناً داخل قرطبة في أول أيام عبد الفطر السعيد، الجمعة أول شوال ٢٣٥ هـ/١٨ نيسان ٨٥٠م. كما أعدم راهب آخر يدعى إسحاق Isaac، ثم أعدمت الراهبة فلورا سنة ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م.

أدت حركة الاستشهاد، إلى ازدياد عدد أتباع الراهب إيلوخيو، مما اضطر الأمير عبد الرحمن الثاني للحث على عقد مجمع ديني في قرطبة يضم جميع أساقفة الأندلس برئاسة ريكافريدو Recafredo مطران اشبيلية. وعقد المجمع سنة ٢٣٧ هـ/ ٨٥١م، بحضور ممثل الأمير وهو من المستعربين ويدعى جوفر بن أنطونيان. وأصدر قراراً يستنكر حركة الرهبان المتطرفين معبتراً إياها حركة انتحارية تخرج عن تعاليم الكنيسة المسيحية. وعارض هذا القرار أسقف العاصمة قرطبة ساؤل Saul الذي اعتبرها حركة استشهادية[٢].

ولم يؤد المجمع إلى نتيجة، فازدادت شعبية الراهب إيلوخيو الذي يحظى بدعم أسقف العاصمة قرطبة. وزاد الأمر سوءاً اقتحام بعض المتطرفين مسجد قرطبة، وسبوا الإسلام بداخله، فقبض عليهم وأعدموا جميعاً سنة ٢٣٨

---

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P. 226.

(٢) Id, ibid, T1 P. 236.

هـ/ ٨٥٢ م، قبل ستة أيام فقط من موت الأمير عبد الرحمن الثاني.

وتمكن الأمير الجديد محمد بن عبد الرحمن، من إلقاء القبض على الراهب إيلوخيو، ثم أطلق سراحه بعد موافقته على مغادرة قرطبة إلى بنبلونة، فهدأت الفتنة. لكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة ليثير الفتنة مجدداً، فقبض عليه وأعدم في يوم السبت ٢ ذي الحجة ٢٤٤ هـ/ ١١ آذار ٨٥٩م[١]، لتنتهي بإعدامه فتنة المستعربين.

٢ ـ غزواته ضد مملكة استورقة (٢٠٨ ـ ٢٣٥ هـ/٨٢٣ ـ ٨٤٨م)

كانت مملكة أستورقة المسيحية تهدد الأندلس عند حدودها الشمالية، وتنذر بقيام ممالك مسيحية أخرى. وأصبحت المواجهة مع مملكة استورقة، بمثابة عمليات عسكرية تقليدية لحماية الأندلس.

لذلك، اتبع الأمير عبد الرحمن الثاني، سياسة الغزوات المتتالية على مملكة استورقة. ففي سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م، أرسل عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، فغزا ألبة ومنطقة القلاع، وغنم الذخائر والمعدات في مستودع عسكري[٢].

وفي سنة ٢١٠ هـ/ ٨٢٥م، أرسل عبيد الله بن عبد الله البلنسي، وهو ابن عم أبيه، فانتصر على جيش استورقة في موقعة جبل المجوس، كما غزا بلاد جليقية والقلاع في سنة ٢١١ هـ/ ٨٢٦ م، ثم برشلونة سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧م.

---

(١) Francisco Simonet: Historia de los Mozarabes de Espana, T1 P. 209.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٢٣.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٢٢.

توقف الغزو، ثلاث عشرة سنة، قبل أن يرسل الأمير عبد الرحمن الثاني، سنة ٢٢٣ هـ/٣٨م، ثلاثة جيوش إلى مملكة استورقة، الأول دخل جليقية بقيادة عمه الوليد بن هشام، والثاني دخل ألبة ومنطقة القلاع بقيادة أخيه سعيد الخير، والثالث هاجم حصن القرية Aqueria. وفي السنة التالية ٢٢٤ هـ/ ٢٣٨م، أرسل ابن عم أبيه عبيد الله البلنسي لغزو ألبة والقلاع. وتوجه الأمير عبد الرحمن الثاني بنفسه لغزو جليقية سنة ٢٢٥ هـ/ ٨٤٠ م[١]، ثم أرسل إبنه مطرف في السنة التالية ٢٢٦ هـ/ ٨٤١ م، ليتوقف الغزو بعدها حتى نهاية عهده[٢]، أي طيلة إحدى عشرة سنة. باستثناء غزوتين فقط، الأولى قام بها إبنه الأمير محمد سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٦م، والثانية قادها حفيده الأمير المنذر إبن محمد سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٤٨ م، ولعل الهدف من هاتين الغزوتين، دعم مكانة إبنه الأمير محمد قبل توليه الإمارة بعده.

٣ ـ نشاطه البحري (٢١٢ ـ ٢٣٦ هـ/ ٨٢٧ ـ ٨٥٠م)

تشرف الأندلس بسواحلها الطويلة على البحر المتوسط شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، مما يجعلها عرضة لأي غزو بحري. واهتم أمراء الأندلس بتحصين السواحل الشرقية، وكانت بجانة[٣] قرب المرية أهم قاعدة بحرية على الساحل الشرقي للأندلس، إلى جانب طرطوشة وطركونة ودانية. . . مما دعم الغارات البحرية التي شنها الأسطول الأندلسي على سواحل وجزر الدولة الكارولنجية في حوض البحر المتوسط. في حين أغفل أمراء الأندلس تحصين السواحل الغربية، فتعرضت لغزو النورمنديين «الڤيكنغ».

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٢٨.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٢٣.

(٢) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P. 206.

(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٢٨، ٣٧.

(أ) غارات الأسطول الأندلسي على سواحل الدولة الكارولنجية في البحر المتوسط (٢٢٤ ـ ٢٣٦ هـ/ ٨٣٩ ـ ٨٥٠م)

أدرك الأمير عبد الرحمن الثاني، مدى ضعف القوة البحرية التابعة للدولة الكارولنجية التي تعتمد أساساً على القوة البرية، فقام بحشد أسطوله البحري على طول الساحل الشرقي للأندلس المطل على البحر المتوسط، وبخاصة في طرطوشة وبلنسية. وأخذ يشن الغارات البحرية بصورة متواصلة على السواحل الجنوبية للدولة الكارولنجية (جنوب فرنسا)، طيلة إحدى عشرة سنة (٢٢٤ ـ ٢٣٦ هـ/ ٨٣٩ ـ ٨٥٠م)، فأخضع أهم القواعد البحرية مثل مرسيليا وآرل.

وكانت الجزر الشرقية (البليار)، وبخاصة جزيرتي ميورقة ومينورقة، تحت حماية الدولة الكارولنجية، فأخذت تعرقل غزوات الأسطول الأندلسي. لذا جهز الأمير عبد الرحمن الثاني ثلاثمائة سفينة وأخضع جزرتي ميورقة ومينورقة سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م[١]. ومع ذلك فإن هذه الجزر لم يتم إخضاعها نهائياً إلا زمن الأمير عبد الله بن محمد سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٢ م.

(ب) غارات النورمنديين «الفيكنغ» على الساحل الغربي للأندلس المطل على المحيط الأطلسي (٢٢٩ ـ ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ ـ ٨٤٥م)

أغفل الأمير عبد الرحمن الثاني، على غرار أبيه الحكم الربضي وجده هشام الأول «الرضا» وجد أبيه عبد الرحمن الأول «الداخل»، تحصين السواحل الغربية للأندلس، وهي التي تطل على المحيط الأطلسي. لذا، لم يحشد أسطوله البحري، إلا في السواحل الشرقية، وهذا ما شجع النورمنديين على الإغارة.

ورد ذكر النورمنديين، في المراجع العربية، باسم الأردمانيين، وهو

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٧.

تحريف للكلمة الفرنسية Norsmands أو الإنكليزية Norsmen أو الإسبانية Normandos، وتعني سكان الشمال (إسكيندناڤية). كما أطلق العرب عليهم إسم المجوس لأنهم مثل هؤلاء يعبدون النار، فهم من القبائل الوثنية المعروفة باسم «الڤيكنغ» Vikingos المشتقة من الكلمة النرويجية ڤيك Vik وتعني ساكن الخليج، والمناطق الإسكيندناڤية التي سكنوها معروفة بكثرة الخلجان. والنورمنديون هم من أصل جرماني أو تيوتوني، توزعوا إلى ثلاث مجموعات سويدية ونرويجية ودانمركية، وهذه المجموعة الأخيرة هي التي أغارت على السواحل الغربية للأندلس، بتحركات سفنها السريعة، وأسهمها النارية الخاطفة، وأشرعتها السوداء.

ففي يوم الأربعاء أول ذي الحجة ٢٢٩ هـ/ ٢٠ آب ٨٤٤ م، ظهرت نحو ثمانين سفينة نورمندية[(١)]، عبرت مصب نهر التاجو نحو ثغر اشبونة Lisbonne (ليشبونة اليوم)، وما لبثت أن تراجعت عنه لما أبداه الوالي وهب الله بن حزم من مقاومة عنيفة. ولم يجد النورمنديون صعوبة في احتلال مدينة قادس، ثم عبرت السفن مصب نهر الوادي الكبير نحو طريانة قتلاً وسلباً ونهباً، ثم احتلوا اشبيلية يوم الأربعاء ١٤ محرم ٢٣٠ هـ/أول تشرين الأول ٨٤٤ م، وأقاموا فيها سبعة أيام وقيل ثلاثة عشر يوماً، وهم يقتلون الرجال ويسبون النساء ويأخذون الصبيان، وأشعلوا النار في المسجد الجامع[(٢)]، ثم حملوا الغنائم، وعادوا إلى إشبيلية التي فر أهلها إلى قرمونة والجبال.

احتل النورمنديون اشبيلية مدة إثنين وأربعين يوماً، وكاد الطريق أن يصبح مفتوحاً نحو العاصمة قرطبة، لولا التحرك السريع للأمير عبد الرحمن الثاني من جهة، وصعوبة الملاحة بين اشبيلية وقرطبة من جهة ثانية. وبذلك

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٣٠.
(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٦.

تمكن جيش قرطبة بقيادة موسى بن قسي من إنزال الهزيمة بالنورمنديين عند بلدة طلياطة[١] Tejada بين لبلة واشبيلية، في يوم الثلاثاء ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ/ ١١ تشرين الثاني ٨٤٤ م، وأحرق ثلاثين سفينة لهم[٢]. ثم انقض عليهم ثانية عند خروجهم من اشبيلية، وقيل قتل منهم ستة عشر ألفاً[٣]، وفر الباقون، إلى لشبونة ومنها إلى بلادهم[٤]. وقد أسر عدداً كبيراً منهم، فخيرهم بين الإسلام أو القتل، فاعتنقوا الإسلام، وأقاموا في الوادي الكبير الأدنى جنوب اشبيلية، واشتغلوا بتربية المواشي وصناعة الألبان ومشتقاتها[٥].

لم يعد النورمنديون إلى غزو الأندلس، فقد اتخذ الأمير عبد الرحمن الثاني الاحتياطات الكاملة لحماية السواحل عن طريق تقوية الأسطول وتحصين اشبيلية التي ما لبثت أن تحولت إلى الميناء الأول للأندلس، فقد أنشأ فيها دار صناعة السفن الحربية وزودها بالآلات وقوارير النفط التي تقذف على سفن الغزاة، وأحاط المدينة بالأسوار العالية. هذا فضلاً عن إقامة المحارس والرباطات، لكشف قدوم سفن العدو على طول الساحل الغربي للأندلس المطل على المحيط الأطلسي، على غرار ما كان عليه الساحل الشرقي المطل على البحر المتوسط.

٤ ـ وضع أسس الحضارة الأندلسية

فتح الأمير عبد الرحمن الثاني أبواب قرطبة أمام العلماء والشعراء والفنانين، ممن ضاقت بهم بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وهي تعيش

---

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٢٨.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٣١.
(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٤.
(٤) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٢٤.
(٥) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P. 224.

عصرها الذهبي بمؤثرات حضارية جديدة لم يعرف مثلها الوطن العربي الإسلامي من قبل. فاتجهت قرطبة، بفضل انفتاح الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني على بغداد العباسية، نحو هذه المؤثرات العالمية الجديدة، وهي سابقة لم يقم بها أمراء الأندلس قبله، لتمتزج بالمؤثرات الحضارية الشامية والحجازية التي عرفتها قبل عهده. وتؤلف في ما بعد طابعاً أندلسياً أصيلاً تميزت به الأندلس، منذ تحولها إلى خلافة أموية مع عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩م، حتى سقوطها النهائي مع سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م.

وقد لعب التجار، إلى جانب العلماء والشعراء والفنانين، دوراً بارزاً في عملية النقلة الحضارية، دون إغفال أعمال الأمير عبد الرحمن الثالث ومنجزاته الإدارية والعمرانية، حتى غدت قرطبة في غرب الوطن العربي الإسلامي على غرار بغداد في شرقه.

(أ) تنظيم الإدارة في قرطبة

يعتبر الأمير عبد الرحمن الثاني أول من فخَّم الإمارة بالأندلس، وأول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة وأبهة الجلالة[1]. وهو أول من أحدث بقرطبة دار السكة وضرب النقود باسمه، وأول من نظم الوزارة.

• نظام الوزارة

اهتم الأمير عبد الرحمن الثاني بنظام الوزارة، ففي حين لم تعرف بغداد سوى وزير واحد إلى جانب الخليفة العباسي، فإنه جعل لكل ناحية من نواحي الإدارة وزيراً مختصاً بها «لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر في

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٣٦.

حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال الثغور وزيراً»[١]. وكان وزراؤه تسعة يتقاضى كل منهم ثلاثمائة دينار[٢]، وأفرد لهم جناحاً خاصاً داخل قصره يقصدونه كل يوم لمباشرة مهامهم، وكان يختار أحدهم للتردد بينهم وبينه في كل وقت وهو الحاجب الذي أصبح بمثابة الوزير الأول أو رئيس الوزراء بالمفهوم المعروف في يومنا هذا.

ومن هؤلاء الوزراء برز: عبد الكريم بن مغيث، عيسى بن شهيد، عبد الله بن أمية بن يزيد، عبد الرحمن بن رستم، ويوسف بن بخت[٣].

• حفظ الأمن

كان «صاحب السوق» يتولى حفظ الأمن داخل العاصمة قرطبة، فعمد الأمير عبد الرحمن الثاني إلى توزيع صلاحياته على أربعة توطيداً للأمن، وهم: صاحب السوق الذي اقتصر عمله على مراقبة الأسواق ليعرف باسم المحتسب في ما بعد، وصاحب الشرطة العليا للنظر في مشاكل كبار القوم، وصاحب الشرطة السفلى للنظر في مشاكل العامة، وصاحب المدينة.

• دار السكة

يعتبر الأمير عبد الرحمن الثاني، أول من ضرب نقوداً أندلسية باسمه، عندما أنشأ داراً جديدة للسكة في قرطبة. فقد كانت النقود قليلة التداول وكلها مضروبة في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية، كما كانت الأندلس قبل عهده، تعتمد على المقايضة في التجارة[٤].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٣٩، ٢٤٠.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٢١.
(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٢.
(٤) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٥١.

(ب) العمران

عرفت الأندلس نهضة عمرانية زمن الأمير عبد الرحمن الثاني الذي أقام الجوامع وبنى مدينة مرسية، دون أن يغفل العاصمة قرطبة التي خصها بقصره الجديد، وعمل على توسعة جامعها.

● بناء القصر الجديد في قرطبة

بنى الأمير عبد الرحمن الثاني قصراً جديداً بجوار قصر الإمارة القديم في قرطبة. وجلب إليه الماء من أعالي الجبال المحيطة بالعاصمة، وفيه حوض كبير اتخذه للسقيا. ويمتاز القصر الجديد بأبراجه العالية المغطاة بالزجاج الشفاف، ليسرح الأمير بصره في المناظر التي يطل عليها مثل: صحراء الربض وما يليها من المزارع المعروفة باسم القنبانية Campina، ونهر الوادي الكبير والسفن التي تخترقه والرصيف (الطريق الساحلي) الذي أقامه على الضفة اليمنى سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧م.

واستجلب إلى قصره، روائع التحف التي كانت في بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون إبني هارون الرشيد، حيث انتهت بمقتل الأمين في يوم الأحد ٢٥ محرم ١٩٨ هـ/ ٢٥ أيلول ٨١٣، وانتهب ملكه. فساق التجار إلى قرطبة هذه التحف المسروقة، ومنها «عقد الشبَّا»، أي الملتف مثل الثعبان، وكان يخص زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد، اشتراه الأمير عبد الرحمن الثاني من أحد التجار بمبلغ عشرة آلاف دينار وأهداه إلى «الشفاء» إحدى زوجاته، لذلك عرف أيضاً باسم «عقد الشفا»[1].

● بناء الجوامع وتوسعه جامع قرطبة

بنى الأمير عبد الرحمن الثاني جوامع كثيرة في الأندلس، وأشهرها جامع

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٣٦.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢١.

مدينة جيان سنة ٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م. وجامع ابن عدبّس نسبة إلى القاضي عمر بن عدبس الذي أشرف على بنائه سنة ٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م. وشجع جواريه على بناء الجوامع من مالهن الخاص في مختلف أحياء قرطبة، مثل جامع طروب وجامع الشفاء وجامع فجر.

وتبقى أبرز أعماله، توسعة جامع قرطبة الذي بناه الأمير عبد الرحمن الأول «الداخل» مؤسس الإمارة الأموية، وهي أول توسعة منذ إنشائه، تلبية لحاجات الأعداد المتزايدة من المسلمين، سنة ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨ م. فزيدت قاعة الصلاة من ناحية المحراب بعرض خمسين ذراعاً، وطول مائة وخمسين ذراعاً[١]، أي بزيادة سبعة آلاف وخمسمائة ذراع مربع، لتتسع بمقدار نصف مساحتها الأولى. وهذا ما أدى إلى نقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة الجديد بعد هدم الجدار القديم.

- **تشييد مدينة مرسية[٢] Murcia(٢١٦ هـ/ ٨٣١م)**

وفي يوم الأحد ٤ ربيع الثاني ٢١٦ هـ/ ٢١ أيار ٨٣١ م، أوكل الأمير عبد الرحمن الثاني إلى عامل تدمير جابر بن مالك بن لبيد، مهمة بناء مدينة مرسية[٣]، لتحل مكان مدينة آله Ello وهي الحاضرة القديمة لكورة تدمير التي أمر بهدمها بسبب الفتنة التي اندلعت فيها بين القيسية واليمنية طيلة ست سنوات قبل أن يقضي عليها سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م. ثم اتخذها داراً للعمال ومقراً للقواد.

---

(١) ابن عذراى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٨٢، ٢٣٠.
(٢) لمزيد من المعلومات عن مرسية، راجع:
- فون فيلكس بونسوا سبريان: تاريخ مرسية زمن العرب.
- شكيب ارسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ ٣ ص ٣٨٦ ـ ٥٣٠.

(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٨١.

وتحولت مرسية، إلى الحاضرة الجديدة لكورة تدمير زمن عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله». وما لبثت هذه الكورة، أن حملت الإسم الجديد مرسية، وأصبحت من قواعد شرق الأندلس. وهي تشبه اشبيلية في غرب الأندلس بكثرة المنتزهات والبساتين والحدائق، ومنها منتزهات الرشاقة والزنقات وجبل ايل الذي تمتد تحته البساتين وسهل تسرح فيه العيون. ويمر في وسط مرسية نهر تادر (شقورة)، وهو من أجمل الأنهر[١].

(جـ) اعتماده على أشهر الفقهاء العلماء والمغنين والجواري

انعكست نشأة الأمير عبد الرحمن الثاني وتربيته على الأعمال التي قام بها خلال فترة إمارته التي امتدت إحدى وثلاثين سنة (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢م). فكان أميراً على مستوى عال من الثقافة والعلم، وعالماً متبحراً في علوم الشريعة والفلسفة[٢]، وشاعراً وفناناً. فلا غرو أن يتألق داخل قصره في قرطبة، عدة شخصيات برعت كل منها في مجال، وكان لها الأثر البارز في التقدم الحضاري الذي شهدته الأندلس. مثل المغني زرياب، والفقيه يحيى بن يحيى الليثي، والعالم عباس بن فرناس، والشاعر يحيى الغزال، والجارية طروب.

• المغني زرياب

يعتبر أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب، وهي كلمة فارسية تطلق على الطائر الأسود الذي يحسن التغريد، من أعظم الشخصيات التي جذبها الأمير عبد الرحمن الثاني.

كان زرياب «عبداً أسود للموصلي»[٢]، حسن الصوت، شاعراً أديباً

(١) شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ٣ ص ٣٨٨، ٣٩٠.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١٣٥.

فصيح اللسان. وقد تتلمذ على يد أستاذه إسحاق الموصلي المغني والموسيقى الكبير في بلاط الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي ما لبث وأن أعجب أيضاً بالتلميذ زرياب.

زادت شهرة زرياب، زمن الخليفة العباسي الأمين بن هارون الرشيد، ولما انتهت الفتنة بين الأمين والمأمون بمقتل الأول، تعقب الثاني حاشية أخيه بما فيهم المغني زرياب الذي فر إلى الأندلس. وقيل أن سبب فراره أيضاً غيرة وحسد أستاذه إسحاق الموصلي.

وصل المغني زرياب إلى قرطبة، سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢م، أي في مطلع إمارة عبد الرحمن الثاني الذي توجه بنفسه لاستقباله مرحباً بقدومه. وخصص له حرساً خاصاً من الفرسان لحمايته أثناء تجواله، وأفرد له داراً من أفخم دور قرطبة، ورتب له ولأفراد أسرته الرواتب. ومنذ أن سمعه الأمير، كره سماع أي مغن آخر، حتى أنه لم يتردد في دفع ثلاثين ألف دينار من ماله الخاص عندما استحسن صوته ذاته يوم(١).

وتبدو أهمية زرياب، ليس في الغناء والموسيقى فحسب، بل في دوره الرئيسي في نقل أبرز معالم الحضارة الشرقية التي كانت تمثلها بغداد، وإدخالها إلى قرطبة وسائر أنحاء الأندلس.

أسس زرياب مدرسة في الغناء والموسيقى، تعتبر أساس هذا الفن في الأندلس. فهو رائد التجديد، علم الأندلسيين طرقاً موسيقية جديدة في أصول بدء الغناء وكيفية إنهائه. وكان بارعاً في العزف على آلة العود، وهو أول من جعل مضراب العود من قوادم النسر بدلاً من الخشب، مما يؤدي إلى نقاء الصوت من جهة وسلامة الأوتار الأربعة من جهة ثانية. وهو أول من أضاف وتراً خامساً للعود جعله في الوسط.

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٩.

ونقل زرياب إلى قرطبة، طريقة الطهي في بغداد مع الترتيب في تقديم الأطعمة وتعدد أصنافها، واستعمال الأواني الزجاجية بدلاً من الأواني الفضية والذهبية. كما نقل طريقة تصفيف الشعر، ورفعه خلف الأذنين حتى لا يبقى مسدولاً على الجبهة والعينين. وأشار على أهل قرطبة بارتداء الملابس الخفيفة الزاهية الألوان خلال الربيع والصيف، والمعاطف الصوفية أو الجلدية في الشتاء.

وما كان ذلك كله ليعم قرطبة، لولا وقوف الأمير عبد الرحمن الثاني إلى جانب زرياب.

• الفقيه المالكي يحيى بن يحيى الليثي (توفي سنة ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨م)

كان يحيى بن يحيى اللبثي ممن اتهموا بالتحريض على ثورة أهل الربض ضد الأمير الحكم الربضي في ١٣ رمضان ٢٠٢ هـ/ ٢٥ آذار ٨١٨ م، ففر إلى طليطلة. وعندما تولى الأمير عبد الرحمن الثاني، أعطاه الأمان، فعاد إلى قرطبة، ونال حظوة كبيرة لديه، فقد كان يجله ويأخذ بفتواه[1] حتى وفاته في رجب ٢٣٤ هـ/ شباط ٨٤٩ م.

والفقيه يحيى بن يحيى الليثي، أصله من بربر مصمودة، رحل إلى المدينة المنورة وهو في الثامنة والعشرين، وسمع من الإمام مالك بن أنس الذي أعجب به وسماه «عاقل الأندلس». كما توجه إلى مكة المكرمة، وسمع من سفيان بن عيينة. ولما عاد إلى قرطبة، انتهت إليه الرئاسة، في الفقه والقضاء[2].

• العالم عباس بن فرناس

كان عباس بن فرناس، بارعاً في علوم الكيمياء والفلك وعلم العروض

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ٢١٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٢ ص ٢١٨، ٢١٩.

وقد اختلف المؤرخون حول أصله، إن كان من المغرب، أم من المولدين في الأندلس.

ويروى أنه صنع قبة على شكل السماء بما فيها من نجوم وأفلاك، وتمكن من إحداث الرعد والبرق بطريقة آلية. وينسب إليه عمله في الكيمياء، وتوصله إلى معرفة نوع من الزجاج الشفاف الطبيعي وقلده بالزجاج الصناعي. وهو أول من أخذ عنه علم العروض بالأندلس[١].

ويعتبر عباس بن فرناس أول من حاول الطيران في التاريخ. فيروى أنه صنع لنفسه جناحين على هيئة أجنحة الطيور، وشدها إلى جسمه بشرائط من الحرير المتين، ثم وقف على تلة صغيرة ناحية الرصافة ليحلق قليلاً في الهواء، قبل أن يسقط على الأرض ويصاب بجروح وكدمات. ورغم فشله، فإنه يعتبر رائد الطيران في التاريخ، نتيجة محاولته هذه.

إن إعجاب الأمير الرحمن الثاني بمثل هذا العالم، يدل على بعد نظر الأمير، في عصر، كانت فيه عامة الناس تنفر من المشتغلين بالكيمياء والفلك، وتتهمهم بتعاطي السحر. لذلك كان عباس بن فرناس هدفاً لمثل هذه الحملات، حتى وصل الأمر إلى الشكوى ضده لدى القاضي، لكن هذا الأخير برأه.

• الشاعر يحيى الغزال

لعب الشاعر يحيى الغزال، دورر هاماً في العلاقات الدبلوماسية الأولى بين الأندلس والدولة البيزنطية.

كانت الدولة البيزنطية في حالة حرب مع الدولة العباسية، فهاجم

---

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٥٣.

الامبراطور تيوفيل مدينة زبطرة سنة ٢٢٢ هـ/ ٨٣٧ م، وهي مسقط والدة الخليفة العباسي المعتصم الذي انتقم سريعاً، عندما خرّب مدينة عمورية مسقط رأس والد تيوفيل.

لذلك اتجه الامبراطور البيزنطي لإقامة علاقات دبلوماسية مع الإمارة الأموية في الأندلس، وهو يدرك حالة العداء بينها وبين الخلافة العباسية. ففي سنة ٢٢٥ هـ/ ٨٣٩م، أرسل سفارة برئاسة قرطيوس، وهو يوناني يجيد اللغة العربية، ومعه هدايا ورسالة يطلب فيها عقد تحالف معه ضد العباسيين في بغداد وضد الأغالبة في صقلية وضد الربضيين في جزيرة كريت[١].

ومما يذكر أن فريقاً من أهل الربض بعد ثورتهم الفاشلة سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧م، زمن الحكم الربضي والد الأمير عبد الرحمن الثاني، خرجوا نحو الإسكندرية حيث استقلوا فيها عن الخلافة العباسية طيلة عشر سنوات قبل أن يطردهم المأمون سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م، ليتجهوا نحو جزيرة كريت، وكانت تابعة للدولة البيزنطية، فاستولوا عليها. ولم تفلح جهود البيزنطيين في استعادة الجزيرة، التي تحولت إلى قاعدة بحرية إسلامية هامة تهدد سواحل الدولة البيزنطية، وجزرها.

وما لبث الأمير عبد الرحمن الثاني أن أرسل الشاعر يحيى الغزال في سفارة مماثلة إلى القسطنطينية، ومعه رسالة[٢] إلى الامبراطور تيوفيل، أظهر فيها سخطه على العباسيين، وتبرأ من الربضيين لأنهم خرجوا عن طاعة الإمارة الأموية في الأندلس، وترك له حرية طردهم من جزيرة كريت، أما الأغالبة في جزيرة صقلية فهو يعتذر عن محاربتهم لأنهم يجاهدون في سبيل الله. مما

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٤٢.
(٢) الرسالة أوردها ابن حيان القرطبي (ت ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م) في كتابه المقتبس في تاريخ الأندلس.

يعني في النهاية، أنه رفض، بأسلوب هادىء ورقيق، عقد حلف عسكري مع البيزنطيين لمحاربة إخوانه في الدين، رغم سخطه من العباسيين أو عدم اعترافه بالربضيين.

ومما يذكر أن الشاعر يحيى الغزال، دوَّن مشاهداته في القسطنطينية، وأحاديثه مع الامبراطور تيوفيل وزوجته تيودورا وإبنه الأمير ميشال. ويتضح أن السفارات المتبادلة بين قرطبة والقسطنطينية، كانت تدور في إطار العلاقات الدبلوماسية فقط.

• الجارية طروب الباسكاوية

تعتبر طروب إحدى الشخصيات الرئيسية التي لعبت دوراً هاماً في قصر قرطبة، فهي جارية الأمير عبد الرحمن الثاني وأم ولده عبد الله الذي كانت تطمع في توليه الإمارة بعد أبيه بدلاً من ولي العهد إبنه الأكبر محمد.

وكان الأمير عبد الرحمن الثاني كثير الميل إلى الجواري اللواتي جلبن من الممالك المسيحية شمال الأندلس، مثل الشفاء ومدثر وقلة. وكان يهيم حباً بطروب[١] الباسكاوية التي يعود أصلها إلى قبائل البشكنس، ويغدق عليها الأموال[٢].

لم تتورع طروب عن تدبير مؤامرة ضد الأمير عبد الرحمن الثاني الذي لم ينفذ رغبتها بتعيين إبنهما عبد الله ولياً للعهد. فاتفقت مع قائد الحرس نصر الصقلبي على قتل الأمير وأخذ البيعة لابنها عبد الله، سنة ٢٣٦ هـ/ ٨٥٠ م. وعمد نصر إلى رشوة طبيب القصر الحراني بألف دينار، حتى يعد سماً يدسه في دواء الأمير. فتظاهر الحراني بالموافقة، وأوصى قهرمانة القصر «فخر» بأن

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٢٦.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٣٧.

تبلغ بما يدور. وعندما حضر نصر، أمره الأمير بشرب الدواء، فشربه وهلك[1].

ومن المستغرب، أن لا يعاقب الأمير عبد الرحمن الثاني، جاريته طروب، بعد انكشاف المؤامرة التي انتهت بمقتل نصر الصقلبي.

وبعد سنتين على كشف المؤامرة ضده، توفي الأمير عبد الرحمن الثاني، ليخلفه إبنه الأكبر محمد، في يوم الجمعة ٤ ربيع الثاني ٢٣٨ هـ/ أيلول ٨٥٢م، فشهدت إمارة الأندلس، فترة اضطرابات سياسية تفككت معها الوحدة السياسية، وضعفت سلطة الحكم المركزي في قرطبة.



(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٧٦، ٧٧.
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٤ ص١٣٠.

الفصل الخامس

ضعف السلطة المركزية في قرطبة

(٢٣٨ ـ ٣٠٠ هـ/ ٨٥٢ ـ ٩١٢ م)

بوفاة الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط»، يوم الجمعة ٤ ربيع الثاني ٢٣٨ هـ/ ٢٣ أيلول ٨٥٢ م، شهدت إمارة الأندلس، فترة اضطرابات سياسية بسبب ضعف السلطة المركزية في قرطبة، مما شجع على النزعات الاستقلالية لتأسيس إمارات صغيرة مستقلة عن قرطبة، ونتج عنها تفكك الوحدة السياسية.

واستمرت هذه الفترة، طيلة إثنتين وستين سنة هجرية/ ستين سنة ميلادية (٢٣٨ ـ ٣٠٠ هـ/ ٨٥٢ ـ ٩١٢ م)، توالى خلالها على حكم الإمارة الأموية ثلاثة أمراء، هم: الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني لمدة خمس وثلاثين سنة (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٨٦ م)، ثم ولده المنذر بن محمد لمدة سنتين فقط (٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م)، وولده الآخر عبد الله بن محمد الأول لمدة خمس وعشرين سنة (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م).

وقد أطلق بعض المؤرخين، على هذه الفترة، إسم عصر دويلات الطوائف الأولى، تمييزاً لها عن عصر دول الطوائف (٣٩٩ ـ ٤٤٨ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠٥٦ م)، وإن كان هذا الأخير هو عملياً عصر دول الطوائف الذي نتج عن سقوط الدولة الأموية في الأندلس. أما فترة حكم الأمراء الأمويين الثلاثة محمد وولديه المنذر وعبد الله، فيمكن وصفها بفترة ضعف سلطة الحكم المركزي في قرطبة التي شجعت على النزعات الاستقلالية، ونتج عنها تفكك

الوحدة السياسية. لأن الأمير عبد الرحمن الثالث، وهو حفيد الأمير عبد الله إبن محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني، تولى الإمارة بعد جدّه سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م، وتمكن من إعادة الوحدة السياسية لإمارة الأندلس وتحويلها إلى خلافة أموية سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م.

١ ـ تأسيس الدويلات المستقلة عن قرطبة

تبين أن الأندلس، بحاجة دائماً إلى أمير قوي، لدعم السلطة المركزية في قرطبة، حتى تبسط نفوذها على سائر المناطق وتتمكن من مواجهة الأخطار الخارجية المحدقة بها شمالاً. فرغم الفتح العربي الإسلامي، لم يتحول شعب الإمارة إلى شعب عربي واحد في قوميته أو دينه. فهناك أكثرية أهل البلاد الأصليين الذين انقسموا إلى «مولدين» مسلمين و«مستعربين» احتفظوا بديانتهم المسيحية، وهناك الفاتحون العرب والبربر الذين لم يتخلوا عن قوميتهم لتذوب تحت راية الإسلام فكان كل منهما يمثل عنصراً مستقلاً. كما أن العرب أنفسهم لم يكونوا كتلة واحدة فانقسموا حزبين «قيسي ويمني»، نتيجة الانتماء إما إلى عرب الشمال (الشام) أو عرب الجنوب (الحجاز) في شبه الجزيرة العربية التي خرجوا منها.

وكانت هذه العناصر المختلفة، تنتظر الفرصة السانحة لتؤسس دويلات خاصة بها، معتمدة على طبيعة الأندلس الجغرافية «الجبلية» في منعة المناطق وحصانة المعاقل المؤاتية للاستقلال. دون إغفال دور الممالك المسيحية في شمال الأندلس، وبخاصة مملكة استورقة[1]، في التحريض على ضرب وحدة المسلمين وتشجيع التقاتل في ما بينهم[2]. كما حدث في تلك الفترة التي تعاقب خلالها ثلاثة أمراء ضعاف، فتمزقت وحدة الأندلس نتيجة الثورات

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P. 293.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٤١.

المختلفة التي أدت إلى قيام الدويلات المستقلة.

وبذلك أسس بعض الزعماء العرب دويلات مستقلة، فاستقل إبراهيم بن حجاج في اشبيلية وقرمونة، وهو من قبيلة لخم اليمنية، وكان بلاطه في اشبيلية لا يقل عن بلاط بني أمية في قرطبة[1]. وقد عاش ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد في كنف بني حجاج في اشبيلية. كما استقل الأمير الشاعر سعيد بن جودي السعدى في غرناطة[2].

كما استقل بعض زعماء البربر عن قرطبة، مثل بنو موسى بن ذي النون في الثغر الأدنى «طليطلة»، وبنو عمر بن مضم الهترولي المعروف بالملاح في جيّان.

وكذلك، أسس المولدون عدة دويلات مستقلة عن الإمارة في قرطبة، فاستقل عبد الرحمن بن مروان الجليقي في بطليوس وماردة[3] غرب الأندلس، واستقل موسى بن موسى في منطقة الثغر الأعلى وعاصمتها سرقسطة في شمال شرق الأندلس، كما استقل عمر بن حفصون في المرتفعات الجنوبية بين مدينتي رندة غرباً ومالقة شرقاً وقاعدته قلعة ببشتر Babastro.

ومن نتائج هذه الثورات والفتن التي وقعت بين العرب والمولدين في كورة البيرة وحاضرتها قسطلة Castella التي عرفت في ما بعد باسم غرناطة، وفي لبلة واشبيلية، تأسيس مدينة بجانة.

٢ ـ بناء مدينة بجانة (٢٧١ هـ/٨٨٣ م)

كان بنو سراج القضاعيون، يتولون حراسة الإقليم الذي أقيمت مكانه

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٩٤.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٢ ص ٢٠٣.
(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٠، ٩١.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢٢.

مدينة بجانة، فسمي أرش اليمن أي عطيتهم[١] من قبل بني أمية. ثم استقر في هذا الإقليم جماعة من البحريين سنة ٢٧١ هـ/ ٨٨٣ م، وما لبثوا أن تغلبوا على بني سراج، وبنوا مدينة بجانة على غرار مدينة قرطبة، وأحاطوها بسور. فتحولت إلى مركز آمن لكل من التجأ إليها[٢] هرباً من الفتن التي اجتاحت الأندلس، وبخاصة ثورة ابن حفصون في مرحلتها الأولى «الهجومية».

ومع تكاثر الوافدين إلى بجانة، أذن الأمير عبد الله بن محمد للبحريين في مطلع عهده سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م، بالتوسع في اختطاط بجانة. فأقاموا حولها عشرين حصناً، منها الحامة Alhama والحابية Alhabia في الغرب، وناشر Nijar في الشرق، وبرشانة Purchana في الشمال[٣].

ومع ذلك، لم تتمكن مدينة بجانة وغيرها من المدن، من أن تنأى عن خطر ثورة عمر بن حفصون.

٣ ـ ثورة عمر بن حفصون (٢٦٧ ـ ٣٠٣ هـ/ ٨٨٠ ـ ٩١٥م)

كانت ثورة عمر بن حفصون، أخطر الحركات الانفصالية في الأندلس، فقد اندلعت في سنة ٢٦٧ هـ/ ٨٨٠ م أواخر حكم الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني، ليتوارثها كل من ولديه الأميرين المنذر بن محمد[٤] وعبد الله بن محمد، ثم حفيد هذا الأخير الأمير عبد الرحمن الثالث الذي قضى عليها سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م، مما يعني استمرارها طيلة ست وثلاثين سنة.

وعمر بن حفصون بن عمر بن جعفر الإسلامي، من الزعماء المولدين،

---

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(٣) ابن حيان: المقتبس في تاريخ الأندلس، ص ٥٣.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٧٥.

ولد في كورة ريّة في جنوب الأندلس، من أسرة فقيرة اعتنقت الإسلام في عهد الأمير الحكم الأول الربضي (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م). وقد شعر أن العرب يستأثرون بحكم الأندلس، دون العناصر الأخرى التي دخلت الإسلام مثل المولدين والبربر. لذلك أخذ يسعى لإسقاط الدولة العربية «الأموية» في الأندلس، ونجح في تأسيس دويلة مستقلة في المرتفعات الجنوبية الممتدة بين مدينتي رندة غرباً ومالقة شرقاً، واتخذ ببشتر Babastro قاعدة له، وهي قلعة حصينة. وتمكن سنة ٢٦٧ هـ/ ٨٨٠ م، من إنزال الهزيمة بحاكم ريّة عامر بن عامر، فأرسل الأمير محمد حاكماً جديداً على ريّة هو عبد العزيز بن عباس مدعوماً بجيش كبير حاصر قلعة ببشتر، دون أن يتمكن من دخولها. ثم عاد الأمير محمد وأرسل وزيره هاشم الذي نجح في القبض على عمر بن حفصون وحمله إلى العاصمة قرطبة.

شاءت الظروف، أن يعجب الأمير محمد بشخصية عمر بن حفصون، ويعفو عنه، ليعينه في أحد المناصب القيادية داخل الجيش لقمع المتمردين. لكن مثل هذا المتمرد، لا يتحمل تلقي الأوامر، فعاد إلى قلعة ببشتر سنة ٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م، لتستمر ثورته إثنتين وثلاثين سنة أخرى، حيث كان بإمكان الأمير محمد وضع حد لهذه الثورة في مهدها، لو تخلص من عمر بن حفصون بعد أسره على يد وزيره.

لذلك استمرت ثورة عمر بن حفصون، بعد وفاة الأمير محمد في ٢٨ صفر ٢٧٣ هـ/ ٤ آب ٨٨٦ م[١]. وقد حاول الأمير المنذر بن محمد القضاء على هذه الثورة، فحاصر قلعة ببشتر أربعين يوماً، انتهت بموته الفجائي قبل أن يحقق أمنيته، ولم يدم عهده أكثر من سنتين[٢]. بينما اشتدت قوة عمر بن

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢٣.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١٥٠.

حفصون بعد التفاف المولدين حوله، مما اضطر الأمير الجديد عبد الله بن محمد لعقد الهدنة.

وما لبث عمر بن حفصون، أن استأنف نشاطه العسكري في إقليم رية سنة ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩م[١]، واستولى على أستجة، مستهدفاً العاصمة قرطبة، لكن الهزيمة حلت به سريعاً. ثم عاد يهدد العاصمة قرطبة نفسها، بعد استيلائه على حصن بلاي Poley، ويقع هذا الحصن على بعد خمسين كيلومتراً جنوب غرب قرطبة.

وزادت خطورة عمر بن حفصون، عندما أظهر ميله للخلافة العباسية في بغداد، وكاتب إبراهيم الثاني بن الأغلب (٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٠٢ م) أمير أفريقية (تونس) الموالي للعباسيين، مما يشير إلى طمعه في السيطرة على الأندلس بأسرها بعد إسقاط العاصمة قرطبة، ليجعل حكمها وراثياً في أسرته بدلاً من بني أمية. وهذا ما دفع الأمير عبد الله لإعداد جيش من أربعة عشر ألفاً، وإنزال الهزيمة بعمر بن حفصون الذي جمع ثلاثين ألفاً، في موقعة نهر القوشكة، وهو لا يبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن حصن بلاي الذي دخله الأمير عبد الله في صفر ٢٧٨ هـ/ أيار ٨٩١م[٢]، كما دخل مدينة استجة.

ورغم هزيمة عمر بن حفصون، إلا إنه كان يعيد تجميع قواته بسرعة، ليسترد المدن التي دخلها الأمير عبد الله. فاسترد استجة سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م. ثم ازداد خطره، مع ارتداده عن الإسلام، واعتناقه المسيحية سنة ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩م[٣]، حيث سمى نفسه صمويل، ليستميل المستعربين إليه، فتقوى شكوته، فإذا بأنصاره «المولدين» ينفضون من حوله، لأن الإسلام تغلغل في

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢٨.
(٢) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P. 372.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٨٦، ٢٠١.

قلوبهم. وأخذت الهزائم تحل به، عندما وجه الأمير عبد الله بن محمد الحملات المتتابعة، صيفاً شتاءً، بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وأبان بن عبد الله، فتمكنا من إنزال الهزيمة بعمر بن حفصون، واسترجاع جيّان سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٣م. ثم حلت به الهزيمة ثانية في وادي بلون قرب جيّان سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥م، ليسترد الأمير عبد الله حصن قنيط Canete في سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٦م، وحصن لك Luque سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٩م، وحصن أشر Iznajar سنة ٢٩٨ هـ/ ٩١١م.

وهكذا تحولت ثورة عمر بن حفصون، من ثورة هجومية للإطاحة بالإمارة الأموية، مستهدفة العاصمة قرطبة، زمن الأمير محمد وإبنه الأمير منذر والسنوات الخمس عشرة الأولى من عهد الأمير عبد الله، لتتحول في السنوات العشر الأخيرة من عهده، إلى ثورة دفاعية استنزفت قوتها السابقة، مما مهد الأمر أمام الأمير عبد الرحمن الثالث الذي تولى الإمارة الأموية سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م، للقضاء عليها نهائياً سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥م، وليعلن الخلافة الأموية سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩.



المرحلة الثالثة

الخلافة الأموية في الأندلس وعاصمتها قرطبة

(٣١٦ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٢٩ ـ ١٠٣١ م)


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل السادس

عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» وتأسيس الخلافة الأموية في الأندلس

(٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١ م)

تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد، إمارة الأندلس، بعد وفاة جده الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م. وكان الجد متعلقاً بحفيده منذ ولادته سنة ٢٧٧ هـ/ ٨٩٠م، قبل واحد وعشرين يوماً من مقتل أبيه محمد بن عبد الله المرشح لولاية العهد، على يد أخيه المطرف بن عبد الله الذي كان يطمع في تولي الإمارة[١]. وما لبث الأمير عبد الله أن أمر بقتل إبنه المطرف جزاء عمله[٢]، واحتضن الحفيد الأمير عبد الرحمن بن محمد، وكأنه يؤهله لتولي الإمارة من بعده، دون أعمامه وأعمام أبيه الذين كانوا أحق منه بتولي إمارة الأندلس حسب نظام الوراثة المعمول به، لكنهم آثروا الابتعاد وهم يدركون تدهور الإمارة الأموية التي انحسرت سلطتها إلى داخل العاصمة قرطبة. وتعلقت الآمال بهذا الأمير الشاب الذي لا يتجاوز الثانية والعشرين[٣]، فإذا به يتحول سريعاً إلى المؤسس الثاني الدولة الأموية في الأندلس، بعد أن قضى على الفتن والثورات وفي مقدمها ثورة عمر بن

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٥٣.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢٩.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٥٨.

حفصون في سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م، وأعاد الوحدة السياسية للإمارة التي ما لبثت أن تحولت على يديه إلى خلافة أموية عاصمتها قرطبة، سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م، ليلقب نفسه بـ «الناصر لدين الله»، منافساً الخلافة الفاطمية في المغرب التي أجبرها على التوجه شرقاً نحو مصر لتؤسس عاصمة جديدة هي القاهرة سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م. كما واجه الممالك المسيحية في شمال الأندلس، وأقام العلاقات الدبلوماسية مع القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، ومع الامبراطورية الرومانية المقدسة.

وقد ساعده في ذلك، فترة حكمه الطويلة التي استمرت زهاء نصف قرن (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م). ويبدو أن الخلافة الأموية في الأندلس، ارتبطت عملياً باسمه، لأن الخلافة من بعده استمرت بصورة شكلية مع ثمانية خلفاء لم يحملوا منها إلا إسمها طيلة إثنتين وسبعين سنة هجرية/ سبعين سنة ميلادية (٣٥٠ ـ ٤٢٣ هـ/ ٩٦١ ـ ١٠٣١م)، انتهت بسقوطها وسقوط الدولة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م، لتتحول إلى دويلات مستقلة أطلق عليها عصر ملوك الطوائف طيلة ست وخمسين سنة هجرية/ أربع وخمسين سنة ميلادية (٤٢٢ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٨٥ م).

١ ـ القضاء على ثورة عمر بن حفصون وتوحيد الأندلس (٣٠٣ هـ/ ٩١٥م)

ما إن تولى الأمير عبد الرحمن الثالث إمارة الأندلس سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م، حتى بادر إلى اجتذاب العديد من زعماء الدويلات المستقلة، مثل بني حجاج في إشبيلية وقرمونة سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣م[١]، ليتفرغ لمواجهة عمر بن

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٢٠.
Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1 P. 41.

حفصون والقضاء على ثورته سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م. ومع ذلك فإن الثورة لم تنته فعلياً إلا سنة ٣١٥ هـ/ ٩٢٧ م، لأنه رغم وفاة عمر بن حفصون سنة ٣٠٦ هـ/ ٩١٨[١]، فقد استمر أولاده جعفر وسليمان وحفص في التمرد، حتى تمكن الأمير عبد الرحمن الثالث من قتل الأول سنة ٣٠٨ هـ/ ٩٢٠م، والثاني سنة ٣١٤ هـ/ ٩٢٦م[٢]، واستسلم الثالث سنة ٣١٥ هـ/ ٩٢٧م، لتعود قلعة ببشتر إلى سلطة الإمارة الأموية في قرطبة[٣]. وهذا ما شجع الأمير عبد الرحمن الثالث على إعلان الخلافة الأموية، رغم استمرار تمرد بطليوس وباجه اللتين تفرغ لهما مباشرة. بعد تحول الإمارة إلى خلافة سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م، فدخلهما سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩م[٤]، وتوحدت الأندلس.

٢ ـ مواجهة الممالك المسيحية في الشمال «ليون وقشتالة وناڤار» (٣٠١ ـ ٣١٢ هـ/ ٩١٣ ـ ٩٢٤م)

كانت مملكة ليون، أول مملكة مسيحية تنشأ في شمال غرب الأندلس بهدف مقاومة الحكم العربي الإسلامي، ذلك على يد الملك الفونسو الأول (١٢١ ـ ١٤٠ هـ/ ٧٣٩ ـ ٧٥٧ م) الذي يسميه العرب أذفونش بن بطرة. وقد أقامت هذه المملكة سلسلة من القلاع لرد هجمات المسلمين، عرفت بمنطقة القلاع Castellas «قشتالة»، وكان يتولى كل قلعة أو حصن أمير يتمتع بالاستقلال الذاتي.

ومع تولي عبد الرحمن الثالث إمارة الأندلس سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م، تمكن أحد أقوى أمراء القلاع فرنان غونزالس Fernan Gonsala، من توحيد

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلم فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣.
(٣) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١٥٣، ١٥٤.
(٤) ابن عذارى: البيان الغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٩٩.

منطقة القلاع لتعرف بمملكة «قشتالة». في حين كان أردونيو الثاني Ordonno (٣٠٢ ـ ٣١٢ هـ/ ٩١٤ ـ ٩٢٤ م) يتولى عرش مملكة ليون. هذا في الوقت، الذي نشأت فيه مملكة مسيحية جديدة هي نافار Navarra أو «نبرة» حسب المصادر العربية، وذلك عند سفح جبال البيرينيه لتتحكم في المعابر الجبلية التي تربط إسبانيا بأوروبا، وكانت قاعدتها مدينة بمبلونة، ويتولى عرشها شانجة الأول.

لذلك، فإن الخطر الحقيقي، زمن عبد الرحمن الثالث، تمثل بالممالك المسيحية الثلاث شمال الأندلس، وهي ليون وقشتالة ونافار. فقد شن أردونيو الثاني ملك ليون هجوما على غرب الأندلس، ودمّر مدينة يابرة[1] سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م، رغم البطولة التي أظهرتها الحامية وهي تقاتل حتى آخر فرد منها، كما قتل حاكم المدينة مروان بن عبد الملك وعدد كبير من سكانها. وفي سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م، شن هجوماً جديداً على مدينة ماردة واستولى عليها، بعد أن أنزل القشتاليون الهزيمة بجيش المسلمين في معركة قرب شنت اشتبن واستشهد قائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة[2].

شعر الأمير عبد الرحمن الثالث، بخطر مملكة ليون على غرب الأندلس، عندما حاولت مهاجمة سرقسطة، وهي قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين. فقاد بنفسه حملة عسكرية كبيرة إليها سنة ٣٠٨ هـ/ ٩٢٠ م، واتجه إلى جليقية ونبرة (نافار)، فهدم حصن قاشترومورش وما جاوره من حصون، وأنزل الهزيمة الساحقة بجيش تحالف مملكتي ليون ونافار[3]، واستعاد العديد من المواقع مثل: أوسما Osma وتطيلة Tudela وكاركاسو Carcaso[4].

وتمادى شانجه الأول ملك نافار، سنة ٣١١ هـ/ ٩٢٣ م، عندما استولى

---

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٩٧.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٢٥٥.
(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٦٣.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ١٧٩، ١٨٠.

على حصن بقيرة Viguera المتاخم لحدود مملكته، وحمل الحامية والأسرى إلى عاصمته بنبلونة، ثم قتلهم جميعاً في مذبحة رهيبة هزت قرطبة عاصمة الإمارة الأموية في الأندلس. لذلك، قاد الأمير عبد الرحمن الثالث بنفسه، حملة عسكرية سنة ٣١٢ هـ/ ٩٢٤ م، لتأديب ملك نافار في عقر داره، ثم عاد إلى قرطبة تاركاً وراءه التخريب والدمار.

وكان نجاح الأمير عبد الرحمن الثالث في الانتصار على الممالك المسيحية خارج حدود الأندلس شمالاً، إضافة إلى قضائه على الثورات داخل الأندلس، وبخاصة ثورة عمر بن حفصون، أحد الدوافع الرئيسية التي شجعته على إعلان الخلافة الأموية في الأندلس.

٣ ـ إعلان الخلافة الأموية في الأندلس (الجمعة ٢ ذي الحجة ٣١٦ هـ/ ١٦ كانون الثاني ٩٢٩ م)

إن سقوط الخلافة الأموية في دمشق سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م، وقيام الدولة العباسية التي ما لبثت أن اتخذت بغداد عاصمة لها، لا يعني أبداً إنتهاء الحكم الأموي. فقد استمر هذا الحكم مع دخول الأمير عبد الرحمن الأول «الداخل» إلى الأندلس، ليؤسس إمارة أموية هي في الواقع استمرار للدولة الأموية التي غابت عن مسرح المشرق العربي الإسلامي، وكأن العباسيين تقاسموا الدولة العربية الإسلامية المترامية الأطراف مع الأمويين، وإن كانت الحصة الأموية هي الصغرى. وتكرس هذا التقاسم، مع إعلان الأمير عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة للمسلمين في يوم الجمعة ٢ ذي الحجة ٣١٦ هـ/ ١٦ كانون الثاني ٩٢٩م، وأصبح لقبه «أمير المؤمنين الناصر لدين الله»[(١)].

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٥٣.
ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ ١ ص ١٩٨.

برهن الأمير عبد الرحمن الثالث عن براعة سياسية، عندما اختار الوقت المناسب لإعلان الخلافة الأموية في غرب العالم الإسلامي، وهي خلافة عربية «سنِّية»، رغم وجود خلافة عربية «سنّية» في شرق العالم الإسلامي، متمثلة بالخلافة العباسية منذ سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م، أي أن هذه الأخيرة موجودة قبل تحويل الأندلس إلى خلافة، بحوالى ١٨٤ سنة هجرية/ ١٧٩ سنة ميلادية. وكانت هذه الفترة الطويلة كافية ليظهر الضعف في الخلافة العباسية أيام المقتدر بالله الذي ما لبث وأن انتهى قتلاً على يد القواد الأتراك المسلمين غير العرب، مما يعني عجز هذه الخلافة عن حماية العالم الإسلامي بمشرقه ومغربه. وهذا ما شجع على تجاوز المفهوم السائد عند العرب «السنّة» بأن الخلافة وحدة لا يتجزأ، وأن الخليفة هو حامي مكة المكرمة والمدينة المنورة في الحجاز، والقبول بشرعية خليفتين في وقت واحد شرط أن تكون بينهما مسافة طويلة لمنع الفتنة، وهو ما توفره المسافة بين قرطبة الأموية في أقصى غرب العالم الإسلامي وبين بغداد العباسية في شرقه. ومما دعم هذا «الاجتهاد» السنّي بالنسبة إلى تعدد الخلافة، هو قيام الخلافة الفاطمية «الشيعية» في المغرب، على أساس عداوتها للعباسيين والأمويين معاً، وطمعها في أن تحل مكانهما في حكم العالم الإسلامي.

كما برهن الأمير عبد الرحمن الثالث، عن حنكة سياسية داخل إمارة الأندلس، وهو يدرك مدى الضعف الذي وصلت إليه الإمارة على يد الأمراء الأمويين الثلاثة قبله، نتيجة الثورات التي أدت إلى قيام دويلات مستقلة، فنجح في إعادة توحيدها بالقوة حيناً وباللين أحياناً. وفي نفس الوقت، أعاد الاعتبار لمكانة الإمارة خارج حدودها بانتصاره على الممالك المسيحية . ثم استجاب لرغبة أهل الأندلس في أن يكون خليفة، مما يرفع من مكانته على رأس الحكم داخل قرطبة، بما للخلافة من تأثير ديني في نفوس المسلمين.

وبذلك تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة أموية سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩م، وتمكن الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» من توطيد مكانة

الأندلس في الداخل والخارج. فواجه الممالك المسيحية شمال الأندلس مجدداً حتى أذعنت له، كما واجه الخطر النورمندي (غرب فرنسا)، والخلافة الفاطمية في المغرب التي لم تجد بداً من التوجه نحو مصر بعد وفاته بثماني سنوات.

٤ ـ إغارة النورمنديين على لاردة وسرقسطة (٣٣٠ هـ/٩٤٢م)

وتجدر الإشارة إلى تأسيس ولاية نورمنديا (غرب فرنسا)، بالقرب من ثغور الأندلس الشمالية وسواحلها الغربية، في سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م، التي تولى فيها عبد الرحمن الثالث إمارة الأندلس. وقيل أن الملك الكارولنجي شارل الثالث أقطع هذه الولاية للزعيم النورمندي رولون الذي ما لبث أن اعتنق المسيحية وحمل إسم روبرت. وبذلك أصبح الخطر النورمندي قريباً من الأندلس براً وبحراً، فبإمكان الحملات البرية عبور جنوب فرنسا نحو شمال الأندلس، مع سهولة إغارة الحملات البحرية على السواحل الغربية للأندلس.

ورغم ذلك، كان الخطر النورمندي محدوداً، زمن إمارة عبد الرحمن الثالث، وقد أغاروا مرة واحدة، بعد ثلاث عشرة سنة من تحويل الإمارة إلى خلافة. وكانت إغارتهم براً على ثغر لاردة وسرقسطة، فتمكنوا يوم الأحد ٨ شوال ٣٣٠ هـ/ ٢٦ حزيران ٩٤٢ م، من أسر يحيى بن محمد بن عبد الملك الذي ولاه الخليفة على بربشتر، ففداه رجل من التجار بألف مثقال. وقدم يحيى إلى سدة الخليفة، فأمر للذي فداه بضعف ما أداه فيه، وأرسله مجدداً والياً على بربشتر، فدخلها سنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٣ م[١].

أما الخطر النورمندي الحقيقي، فقد عاد مجدداً بعد أكثر من قرن وربع

---

(١) ابن الدلائي العذري: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان، ص ٧٢، ٧٣.

القرن، عندما استولوا على قلعة بربشتر Barbastro شمال سرقسطة سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م، أي زمن ملوك الطوائف.

٥ ـ الصراع البحري مع الخلافة الفاطمية في المغرب (٣٤٤ ـ ٣٤٧ هـ/ ٩٥٥ ـ ٩٥٨م)

قامت الخلافة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م، أي قبل ثلاث سنوات من تولي الأمير عبد الرحمن الثالث إمارة الأندلس، على أساس المذهب الشيعي «الإسماعيلي». وكانت تهدف إلى أن تحل مكان الخلافة العباسية «السنّية»، لأنها ترى أحقية أحفاد النبي العربي محمد ﷺ من إبنته فاطمة الزهراء بالخلافة التي تسوقها إلى اسماعيل بن جعفر الصادق، وهو شقيق موسى الكاظم الإمام السابع عند الشيعة «الإثنا عشرية»، ثم إلى أبناء إسماعيل حتى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب[١]، حيث لم تستمر فيها أكثر من خمس وستين سنة (٢٩٧ ـ ٣٦٢ هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٧٣م)، تعاقب على حكمها أربعة خلفاء، أولهم المهدي بالله سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩م)، وهو الذي أسس عاصمته المهدية، وتمثل مدينة حصينة[٢] (على ساحل تونس بني سوسة وصفاقس)، ثم القائم بأمر الله سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤م، والمنصور بالله سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٦م، وقد بنى عاصمته المنصورية ليستقر بها سنة ٣٣٧ هـ/ ٩٤٩م[٣]، ثم المعز لدين الله سنة ٣٤١ هـ/ ٩٥٣ م، وقد انتقلت الخلافة الفاطمية في عهده إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٣م[٤].

وكان الهدف الرئيسي للخلافة الفاطمية أول الأمر، هو غزو إمارة

(١) عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص ٥٠.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ٩٣ ـ ٩٧.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٤٠.
(٤) المقريزي: الخطط، جـ ١ ص ٣٧٧.

الأندلس، لجعل المغرب الإسلامي كله خاضعاً لها، وبذلك ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين، أحدهما شرقي تابع للخلافة العباسية «السنّية»، والآخر غربي تابع للخلافة الفاطمية «الشيعية». وذلك تمهيداً لانقضاض الفاطميين في مرحلة ثانية على الخلافة العباسية في بغداد[1].

وزاد خوف الخلافة الفاطمية «الشيعية» مع إعلان عبد الرحمن الثالث الخلافة الأموية «السنّية» في الأندلس في ٢ ذي الحجة ٣١٦ هـ/ ١٦ كانون الثاني ٩٢٩ م، لأن قيام خلافتين متجاورتين، على أسس مذهبية مختلفة، يعرقل خطة الفاطميين في غزو الأندلس، ويعني الصدام المسلح بينهما. لذلك أخذ الفاطميون يرسلون العيون إلى الأندلس للاطلاع على أحوالها وكشف مناطق الضعف فيها، متسترين بغرض العلم مثل ابن هارون البغدادي، أو بالتجارة مثل ابن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م) الذي عرف باسم «التاجر الموصلي»[2]، ورفع تقريراً إلى المعز لدين الله الفاطمي يشجعه فيه على غزو الأندلس[3]. كما أن الشاعر الغرناطي محمد بن هانىء الأندلسي (ت ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢م)، فرَّ من الأندلس والتحق بخدمة المعز لدين الله الفاطمي ومدحه.

لم يتح عبد الرحمن الثالث الفرصة أمام الفاطميين لغزو بلاده، وهو يدرك تماماً قوة الأسطول البحري الفاطمي في المغرب وصقلية في البحر المتوسط. لذلك أنشأ أسطولاً بحرياً أندلسياً من مائتي مركب[4]، وعمل على تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب، منذ أن تولى الإمارة. فأشرف بنفسه على الأعمال الدفاعية في طريف والجزيرة الخضراء سنة ٣٠٢

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١ ص ٣٤٨.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٤، ١٠٥، ١٠٨.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٧٨.

هـ/ ٩١٤م. ثم أحكم قبضته على الملاحة في مضيق جبل طارق، بعد استيلائه على بعض ثغور ساحل المغرب الأقصى المواجهة لساحل الأندلس. فقبل سنتين من إعلانه الخلافة الأموية في الأندلس، استولى على مليلة Melilla سنة ٣١٤ هـ/ ٩٢٦م، وجعلها معقلاً للزعيم المكناسي موسى بن أبي العافية الذي انضم إليه بعد خروجه عن طاعة الفاطميين. وبعد سنتين من إعلانه الخلافة الأموية، استولى على سبتة Ceuta في ربيع الأول ٣١٩ هـ/ نيسان ٩٣١م[١]. وعلى طنجة في نفس السنة[٢]. وعن طريق هذه القواعد البحرية الثلاث أخذ عبد الرحمن الثالث يتدخل في سياسة المغرب الأقصى، ويتحالف مع الدويلات القائمة في شماله، مثل دولة الأدارسة وإمارة نكور أو بني صالح[٣]، ويحرض قبائل البربر. كما أيد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي المعروف بصاحب الحمار، ضد الخلافة الفاطمية زمن محمد القائم ثم ولده إسماعيل المنصور، وأمده بالمساعدات المالية والعسكرية، رغم أن هذه الثورة انتهت إلى الفشل ومقتل صاحبها سنة ٣٣٦ هـ/ ٩٤٨م[٤].

وتطور النزاع بين الخلافة الأموية في الأندلس والخلافة الفاطمية في المغرب، إلى الصدام البحري بينهما. وكان السبب المباشر، لهذا الصدام، سنة ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م، عندما أنشأ الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» مركباً كبيراً تمكن من اعتراض مركب صغير، وأخذ الرسائل التي بعث بها الحسن بن علي الوالي الفاطمي في جزيرة صقلية إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في المهدية. ولعل هذه الرسائل تتعلق بمشروع غزو فاطمي على الأندلس، لذلك لم يتردد قائد المركب الأندلسي الكبير من الاستيلاء

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ٨٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٤.
(٣) مجهول: مفاخر البربر، ص ٤.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣١٨ - ٣٢١.

عليها[١]. وعلى الفور أرسل الخليفة الفاطمي والي صقلية على رأس أسطول كبير، دخل مرسى المرية في الأندلس[٢]، وأحرق جميع ما فيه من مراكب، واستولى على ذلك المركب الكبير الذي كان عائداً من الإسكندرية وفيه أمتعة للخليفة الأموي وجوار ومغنيات، ثم عاد الأسطول الفاطمي إلى المهدية[٣].

وكان رد الأسطول الأندلسي سريعاً في تلك السنة ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥م، عندما أغار بقيادة غالب بن عبد الرحمن الناصري على سواحل الفاطميين في أفريقية، لكنه لم يوفق كثيراً في هذه الغارة نتيجة المقاومة الفاطمية. فأعاد الكرة سنة ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦ م، عندما حشد أسطولاً من سبعين سفينة، وهاجم مرسى الخرز، وهي قاعدة بحرية فاطمية لبناء السفن[٤]، فأضرم النار فيها، ودمرَّ منطقة سوسة[٥] وطبرق شرق بنزرت.

ومنذ ذلك التاريخ، أمر عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» ببناء المرية وتمصيرها، لتصبح من أشهر مراسي الأندلس وأكثرها عمراناً. ففيها دار الصناعة التي تقوم بإنشاء السفن والآلات اللازمة لها[٦]، ويحميها برج أقيم على بابها[٧]. وكان خليجها العميق يضم معظم وحدات الأسطول الأندلسي، مما يعني تحول المرية إلى قاعدة لهذا الأسطول.

وسنة ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م، تمكن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، من إخضاع المغرب الأقصى، عن طريق قائده جوهر الصقلي الذي نجح في

---

(١) Reinhart Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, T2, P. 165.
(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ٣٨.
(٣) ميشيل أماري: المكتبة العربية الصقلية، ص ٣١٢.
(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص٥٥.
(٥) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T3 P. 108.
(٦) ابن غالب: فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، ص ١٤.
(٧) ابن الدلائي العذري: ترصيع الأخبار وتنويع الأثار والبستان في غرائب البلدان، ص٨٣.

إخضاع قبائل البربر[1] والقضاء على النفوذ الأموي فيه، باستثناء القواعد الأموية الساحلية الثلاث في مليلة وسبتة وطنجة، بسبب حرص الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» على التمسك بها. فلم يجد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، في النهاية، سوى الانصراف عن فتح الأندلس، وإرسال قائده جوهر الصقلي لفتح مصر سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م، أي بعد ثماني سنوات على وفاة الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله». وبنى جوهر الصقلي القاهرة التي سميت كذلك تفاؤلاً بأنها ستقهر الخلافة العباسية، قبل أن تنتقل إليها الخلافة الفاطمية سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٣م.

وهكذا فشلت الخلافة الفاطمية في المغرب، في قهر الخلافة الأموية في الأندلس، وأجبرت على التراجع شرقاً نحو مصر، علّها تقهر الخلافة العباسية في بغداد.

٦ ـ العلاقات الدبلوماسية مع ملوك أوروبا المسيحية

رغم العداوة بين الأندلس والممالك المسيحية التي نشأت عند حدودها الشمالية، فإن عبد الرحمن الثالث عرف كيف يستغل حالة السلم لينفتح على مملكتي ليون ونافار في علاقات دبلوماسية، وإن كانت لا ترقى إلى مستوى علاقته بالدولة البيزنطية أو بالأمبراطورية الرومانية المقدسة، لأن الوضع بين الأندلس والممالك المسيحية المجاورة، قابل للانفجار العسكري في أي وقت.

(أ) مع امبراطور بيزنطة قسطنطين السابع (٣٣٨ هـ/ ٩٤٩م)

تبادل الناصر لدين الله، السفارات والهدايا، مع امبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين السابع (٣٣٤ ـ ٣٤٨ هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٥٩م) الذي كان يهدف إلى

(١) مجهول: مفاخر البربر، ص ٦.

استعادة صقلية من أيدي الفاطميين[١].

وفدت السفارة البيزنطية في صفر ٣٣٨ هـ/آب ٩٤٩ م، ونزلت في أحد قصور قرطبة، في احتفال كبير[٢]. والتقى الناصر لدين الله هذه السفارة في قصر الزهراء[٣]، وقيل في بهو المجلس الزاهر، وهو أروع قاعات قصر الخلافة بقرطبة، وذلك في يوم السبت ١١ ربيع الأول ٣٣٨ هـ/٨ أيلول ٩٤٩م، أي بعد شهر من قدومها.

وكانت هدية قسطنطين السابع إلى الناصر لدين الله، عبارة عن كتابين نفيسين، أحدهما كتاب ديسقوريدس في علم النبات، والثاني كتاب هروسيس في السيرة وأخبار الملوك الأقدمين، مع كتاب الامبراطور المصبوغ بلون سماوي والمكتوب بالذهب.

وعندما عادت السفارة البيزنطية إلى القسطنطينية، بعث الناصر لدين الله معها ممثله هشام بن هذيل حاملاً هدية إلى الامبراطور قسطنطين السابع[٤].

(ب) مع أوتو الأول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (٣٤٤ هـ/٩٥٦م)

وكذلك تبادل الناصر لدين الله السفارات والهدايا مع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الأول «الكبير» (٣٢٤ ـ ٣٦٢ هـ/٩٣٦ ـ ٩٧٣ م). وكان الدافع الرئيسي لهذا التبادل، الغارات البحرية التي كان يقوم بها المجاهدون الأندلسيون على سواحل الفرنجة. فبعث أوتو الأول إلى قرطبة سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٦م[٥] الراهب جان دى غورز، وهو من دير غورز Gorze

---

(١) Reinhart Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, T2 P. 159.

(٢) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٦٤ .
ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٣٧.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣١٣، ٣١٥.

(٤) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٦٥.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٢٣٤.

القريب من مدينة متز Metz، ومعه هدية ورسالة[1] تتضمن النيل من الإسلام، فرفض الناصر استقباله بسبب مضمون الرسالة التي أصر الراهب على قراءتها بحضرته.

ولمعالجة الوضع مع الراهب، اضطر الناصر لدين الله، لأن يرسل سفارة إلى أوتو الأول، برئاسة أحد المستعربين الذين يجيدون العربية واللاتينية معاً، وهو رثموندو Recemundo أو ربيع بن زيد حسب عادة المستعربين في اتخاذ أسماء عربية إلى جانب أسمائهم المسيحية. فاستقبله الامبراطور في مدينة فرنكفورت، ثم أرسل معه مرافقاً إلى قرطبة، فتخلى الراهب جان دى غورز عن إصراره، واستقبله الناصر في احتفال كبير ليتلقى منه الهدية دون الرسالة.

(جـ) مع مملكة ليون (٣٤٤ ـ ٣٤٩ هـ/ ٩٥٥ ـ ٩٦٠م)

عندما أعلن عبد الرحمن الثالث الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م، كان راميرو الثاني (٣١٩ ـ ٣٤٠ هـ/ ٩٣١ ـ ٩٥١م) يتولى عرش مملكة ليون، خلفاً لأخيه الفونس الرابع (٣١٣ ـ ٣١٩ هـ/ ٩٢٥ ـ ٩٣١م)، وهما أخوا اردونيو الثاني الذي توفى سنة ٣١٢ هـ/ ٩٢٤م، ليخلفه أخوه فلويرة الثاني، وقد توفي بعد سنة واحدة.

ولم تمض عشر سنوات على إعلان الخلافة الأموية، حتى تمكن راميرو الثاني ملك ليون من إنزال الهزيمة الساحقة بالخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» في موقعة الخندق قرب مدينة شمنقة أو شنت منكش Simancas سنة ٣٢٧ هـ/ ٩٣٩ م[2]، حيث نجا الخليفة الأموي بأعجوبة

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٤ ص ١٤٣.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣١٢.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٣٦.

وتمكن من الفرار بأقل من خمسين فارساً، ولم يعد منذ ذلك الوقت يقود الحملات بنفسه[1].

ورغم الهزيمة، لم يتوقف عبد الرحمن الثالث، عن إرسال الحملات التقليدية، فمنع ملك ليون من استغلال انتصاره العسكري في الخندق، وأجبره مع ملك نافار على التودد إليه في قرطبة، وقد أصبح أقوى الحكام في ذلك الوقت[2].

وزادت مكانة الخليفة الناصر لدين الله، بعد وفاة ملك ليون راميرو الثاني سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م، ونشوب الصراع بين ولديه أردونيو الثالث وشانجة المعروف بـ سانشو السمين لفرط السمنة. فقد تولى العرش أردونيو الرابع الذي بعث بالسفارات والهدايا إلى قرطبة طالباً الصلح، فأجابه له الناصر لدين الله سنة ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م.

ثم وفد إلى قرطبة سانشو السمين برفقة جدته الملكة طوطة Tota، فاستقبلهما الناصر لدين الله في قصر الزهراء، حيث جرى الاتفاق على تقديم المساعدة العسكرية إلى سانشو لاسترداد عرشه مقابل تسليمه عشرة حصون عند حدود مملكته. وبالفعل سيّر الناصر لدين الله جيشاً إلى ليون أعاد سانشو إلى عرشه سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م. ولكن هذا الأخير لم يف بوعده، وتوفي الناصر في السنة التالية ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م، فاضطر خليفته الحكم الثاني «المستنصر» إلى محاربته وإنزال الهزيمة به سنة ٣٥٢ هـ/ ٩٦٣ م. وما لبثت مملكة ليون أن انقسمت إلى إمارات صغيرة، بعد وفاة سانشو سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م، وأخذ كل أمير يستعين بالخليفة الحكم الثاني «المستنصر» ضد خصومة، فكثرت السفارات المسيحية إلى قرطبة، تسأل تجديد الصلح أو ترغب في إعادة البعض إلى عروشهم.

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص ١٥٥، ١٥٦.
(٢) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٦٦.

ومما يدل على عظمة الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، ومدى حترام الممالك المسيحية له، أن أردونيو الرابع حينما زار الأندلس مطلع عهد الخليفة الحكم الثاني «المستنصر»، سأل عن قبر «الناصر لدين الله»، وتوجه إليه حيث ركع في خشوع احتراماً لذكراه[1].

كما أن المؤرخ الهولندي رينهارت دوزي Reinhart Dozy في كتابه تاريخ مسلمي إسبانيا، وهو أول كتاب يعالج تاريخ الأندلس معالجة علمية، يعتبر عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» في عداد الملوك العصريين. ولا غرو في ذلك، فقد شهدت الأندلس في عهده نهضة علمية وأدبية وعمرانية، جعلت العاصمة قرطبة تنافس بغداد عاصمة الدولة العباسية، والقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية.

٧ ـ عظمة الحضارة العربية الإسلامية «الأندلسية»

بلغت الأندلس، في عهد عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، درجة رفيعة من الحضارة العربية الإسلامية التي طبعت معها بطابع خاص مميز، أخذت تأثيراتها المتنوعة تشع، لتخترق الحدود، متفوقة على الدول الأوروبية المجاورة والبعيدة، حتى أصحبت العاصمة قرطبة تقارن بالقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.

ورغم روعة المدينة الجديدة «الزهراء» التي بناها الناصر لدين الله، إلا أنها لم تتمكن من خطف بريق قرطبة التي ازدادت تألقاً في عهده، وتحولت معه إلى مركز حضاري فريد من نوعه عمرانياً وعلمياً وأدبياً وفنياً. فقد تمكنت قرطبة عاصمة الأندلس في غرب العالم الإسلامي، من منافسة بغداد عاصمة الخلافة العباسية في شرقه، وكأن قرطبة وبغداد تقاسمتا حضارياً هذا العالم

---

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٠٩.

الإسلامي المترامي الأطراف، من البوابة الغربية لأوروبا إلى حدود الصين شرقاً.

(أ) بناء مدينة الزهراء (٣٢٥ ـ ٣٣٦ هـ/ ٩٣٧ ـ ٩٤٧م)

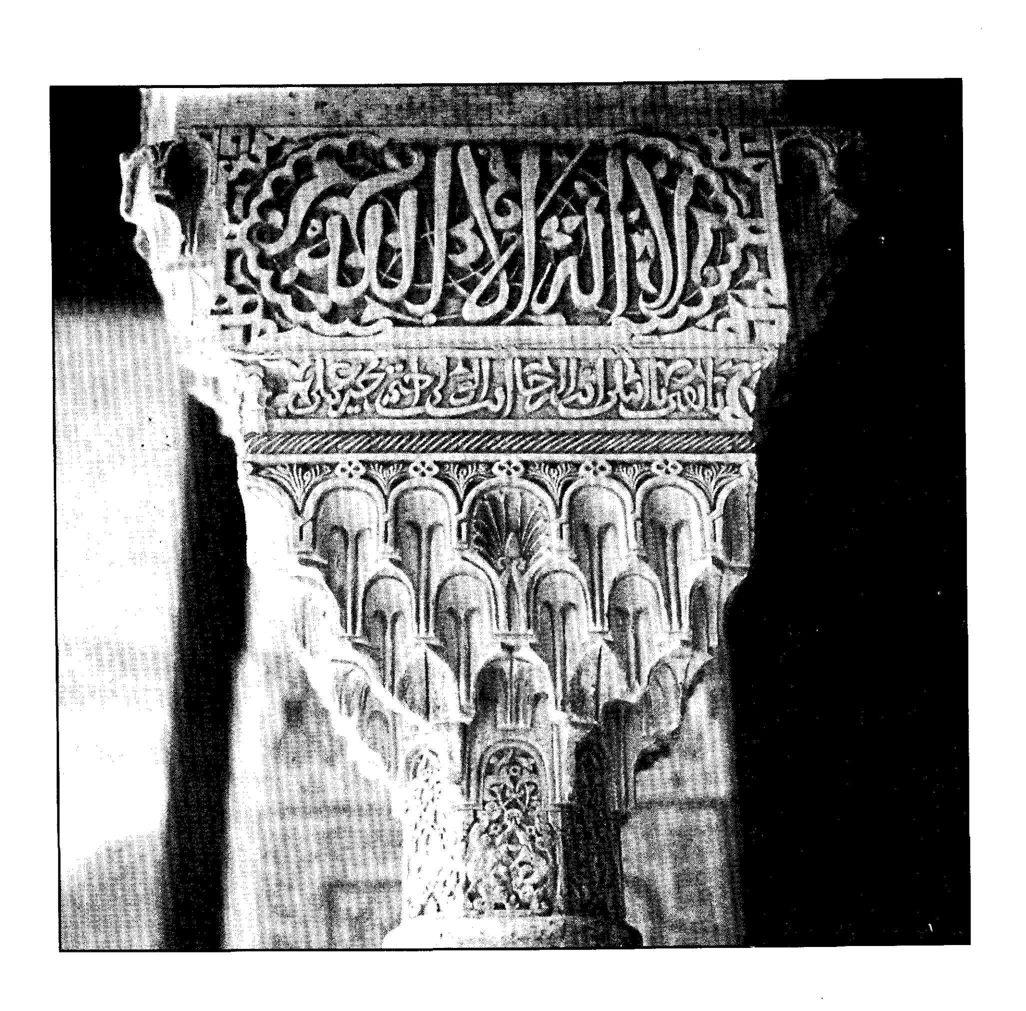
أدرك عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، بعد إعلانه الخلافة الأموية في الأندلس في ٢ ذي الحجة ٣١٦ هـ/ ١٦ كانون الثاني ٩٢٩ م، ضرورة إنشاء مدينة جديدة تكون داراً للخلافة الجديدة فتزيدها أبهة وفخامة. لكنه لم يباشر بناء هذه المدينة إلا في محرم ٣٢٥ هـ/ تشرين الثاني ٩٣٦ م، أي بعد تسع سنوات قضاها في توطيد مركزه الداخلي والخارجي.

أوكل الناصر لدين الله إلى إبنه وولي عهده الحكم الثاني «المستنصر»، مهمة الإشراف على بناء مدينة الزهراء، يعاونه المهندس مسلمة بن عبد الله، وعريف البنائين عبد الله بن يونس. وشارك في البناء عشرة آلاف عامل وحرفي[١]، مع ألف وخمسمائة دابة، وهم يعملون يومياً طيلة عشر سنوات، قبل أن ينتقل إليها الناصر لدين الله ومعه أفراد عائلته ورجال الحاشية والجيش، إضافة إلى بيت المال، وذلك سنة ٣٣٦ هـ/ ٩٤٧ م.

وقيل أن الناصر لدين الله، بنى مدينة الزهراء تكريماً لذكرى جارية له تحمل هذا الإسم. لكن الوقائع، تشير إلى أنه أراد بناء مدينة تخلد إسمه هو، وتكون خاصة به وبأسرته الأموية وأفراد الحاشية ورجال الجيش، أما إسم «الزهراء»، فلعله نسبة للقصور الزاهرة التي أنشأها الناصر لدين الله في هذه المدينة، أو بسبب غرسه للقسم الأوسط من المدينة بأشجار اللوز والتين التي تتفتح زمن الأزهار[٢].

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٢٦.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٦٥.



نقش ومقرنص على تاج أحد أعمدة مدينة الزهراء

حيان صيداوي: الإسلام وفتوية تطور العمارة العربية، ص ١٨٥

كانت مدينة الزهراء تحتل مساحة مليون ومائة وخمسة وعشرين ألف متر مربع، وهي عبارة عن مستطيل طوله ألف وخمسمائة متر وعرضة سبعمائة وخمسون متراً، وتقع عند سفح جبل العروس من جبال «سيرامورنيا» أو الجبال السوداء، على بعد ثمانية كيلومترات شمال غرب قرطبة. وقد جعلها هذا السفح الجبلي، بشكل مدينة ثلاثية مدرجة، لكل قسم منها سور وأبواب. فشيدت قصور الخلافة والحاشية في المدرج العلوي، والبساتين في المدرج الأوسط، بينما شيد المسجد ومنازل الحرس في المدرج السفلي[1].

وجلب الماء العذب إلى الزهراء سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٣٠ م، بعد أن أكمل بناء قناة تمتد ثمانين كيلومتراً من أعلى الجبل، حيث يجري الماء بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسد بديع الصفة، مطلي بذهب ابريز، وعيناه جوهرتان. وما يفيض من الماء يصب في نهر الوادي الكبير[2].

وكان قصر الخليفة داخل مدينة الزهراء، يشتمل على عدة مجالس، أشهرها المجلس الشرقي «المؤنس» الذي زين بحوض منقوش مذهب جلب من القسطنطينية، ونصب عليه إثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس صنعة في قرطبة، منها ثلاثة تماثيل لأسد بجانبه غزال ثم تمساح، ويقابلها ثلاثة تماثيل لثعبان وعقاب وفيل. وفي المجنبتين ستة تماثيل لحمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك ونسر، وكان الماء يخرج من أفواهها. أما المجلس الثاني فهو قصر الخلافة وينفتح من جوانبه ثمانية أبواب انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر، قامت على أعمدة من الرخام الملون والبلور الصافي. ومصاريع أبواب القصر، لبِّست كلها بالحديد والنحاس المموه. وكان للقصر حمام وللعامة حمام.

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٣١٢.
(٢) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ١٠٠، ١٠١.



أقواس وزخرفة نباتية في مدينة الزهراء.

حيان صيداوي: الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية، ص ٩

ولعل السبب الرئيسي لتخريب مدينة الزهراء ومعها قصر الخليفة، وغيرها من القصور، يعود إلى العوامل الدينية. فبناء القصور لتخليد الخلفاء أمر خارج عن الإسلام، ولنا في السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين الأربعة، وبساطة المسكن والعيش، ما يمكن اتخاذه قدوة حسنة. فالإسلام لا يشجع على الإسراف في إنفاق الأموال، فكيف إذا دخلت إلى الفن العربي الإسلامي مظاهر الفن البيزنطي وما يحويه من تماثيل الذهب الأحمر المرصعة بالدر النفيس، وإن كانت تمثل الحيوانات والطيور كما ظهرت في قصر الزهراء. والفقهاء لا يقرون الخلفاء في مثل هذه المظاهر، وهذا ما فعله القاضي منذر بن سعيد وهو يعظ الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» بعد بناء مدينة الزهراء، فدعاه إلى الزهد في هذه الدنيا الفانية، وأكد له أن «الزهراء» إلى زوال، عندما أنشد(١):

يا باني الزهراء مستغرقاً   أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقاً   لو لم تكن زهرتها تذبل

وبالفعل، ذبلت زهرة «الزهراء» سريعاً، وغابت في غياهب النسيان حوالى تسعة قرون متتالية، إلى أن عثرت الحكومة الإسبانية على بقايا آثارها سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م، وما زالت تطلق عليها اسم Medina Zahra. أما بقايا قصر الناصر لدين الله، فكشف عنها سنة ١٣٦٢ هـ/ ١٩٤٣ م، وظهر إسمه منقوشاً على بعض التيجان، كما ظهرت أسماء مهندسي القصر، وهم: أفلح ورشيق ونصر(٢).

وعندما «بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الإسلام البتة، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد والنحل المختلفة. . .، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبهاً»(٣).

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ١٠٨ ـ ١١٠.
(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤١٠.
(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ١٠١.

وأقام الناصر لدين الله لمدينة الزهراء مسجداً، تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً. وكان صحن المسجد مفروشاً بالرخام الخمري اللون، تتوسطه فوارة يجري فيها الماء، وارتفاع المئذنة أربعين ذراعاً.

ولم يغفل الناصر لدين الله إقامة حدائق للحيوانات، فيها أقفاص الوحوش المتباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة للشباك. كما أنشأ دوراً لصناعة آلات الحرب وأخرى لصناعة الحلى للزينة[1].

أراد الناصر لدين الله، أن تخلد مدينة الزهراء إسمه، عندما تبقى شامخة عبر التاريخ، لذلك أنفق على بنائها الأموال الكثيرة، حتى قيل أنها استنفدت ثلث مدخول بيت المال طيلة سبع عشرة سنة. علماً أن إنجازها النهائي تم سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م، زمن خليفته الحكم الثاني «المستنصر». وقد خاب ظن الناصر لدين الله، لأن مدينة الزهراء لم تعمّر طويلاً، فعبثت بها الأيدي أثناء الفتن التي عصفت بالخلافة الأموية مما أدى إلى سقوطها سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م، فانهارت معها أعمدة الرخام الـ ٤٣١٣ التي كانت تزين المدينة، منها ١٠١٣ عاموداً جلبت من أفريقية، و١٤٠ عاموداً أهداها الامبراطور البيزنطي، والأعمدة الـ ٣١٦٠ الباقية أعدت داخل الأندلس[2].

(ب) تطور العاصمة قرطبة عمرانياً وسكانياً

لم تتمكن مدينة الزهراء، من التحول إلى عاصمة جديدة للخلافة الأموية في الأندلس. فقد استمرت العاصمة قرطبة في تألقها وازدهارها، منذ أن حوّلها عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» إلى حاضرة خلافته سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩م، وفاق هذا التألق والإزدهار ما وصلت إليه منذ أن اتخذها الأمير عبد الرحمن الأول «الداخل» مركزاً لإمارته الأموية الناشئة.

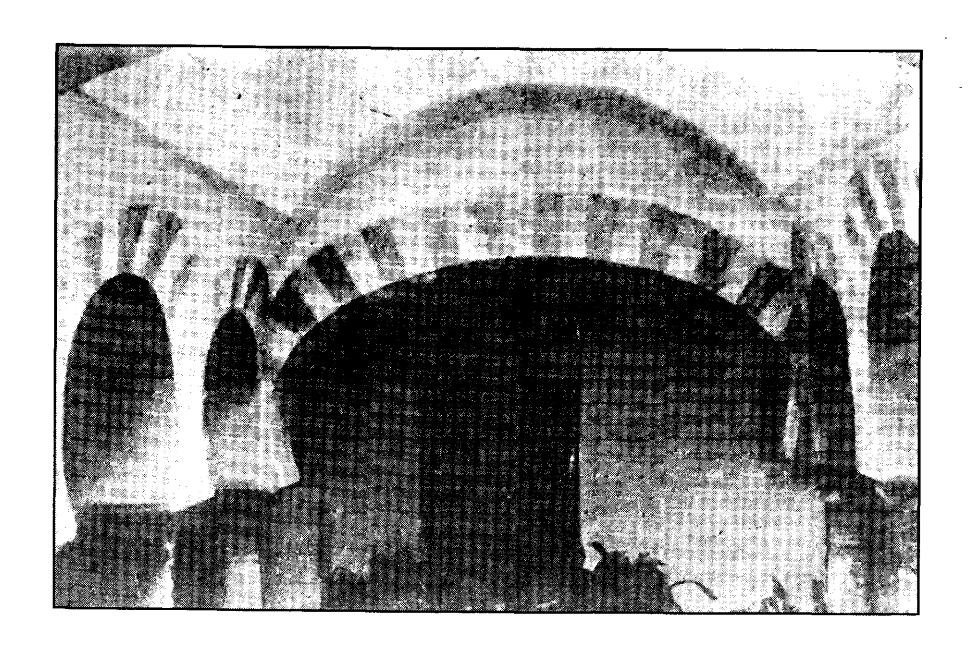
بلغت قرطبة أزهى عصورها، عهد عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ١١٢.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٢٣١.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٨٠ ـ ٨٢.

الله»، ثم ابنه الحكم الثاني «المستنصر». فقد بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة، فكانت أكثر مدن أوروبا اكتظاظاً بالسكان. وفيها ٢١٣٠٧٧ داراً للعامة و٦٣٠٠ دار للوزراء والكتاب والأجناد، و٨.٥٥٥ حانوتاً، و٧٠٠ حمام، و٣٨٧٧ مسجداً وقيل ١٨٣٦ مسجداً[١]. وأصبحت «قرطبة قاعدة الأندلس وأم المدائن، وقرار الخلافة، ودار الملك، تجبى إليها ثمرات كل جهة، وخيرات كل ناحية»[٢].



قاعة بداخل حمام في قرطبة زمن الخلافة الأموية

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤٤٠

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ٧٨، ٧٩.
(٢) ابن غالب: فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، ص ٢٦، ٢٧.

اتسعت مساحة قرطبة، زمن الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، وهي تتجاوز نطاقها القديم جنوباً في الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير، وشرقاً في ما وراء باب عبد الجبار الذي يعتبر أحد أشهر أبواب قرطبة السبعة[1]، ويقع مع الباب الجديد في السور الشرقي، ويطلق عليه أيضاً إسم باب طليطلة وباب رومية. أما الباب الثالث فهو باب طلبيرة أو باب ليون في السور الشمالي، والرابع هو باب القنطرة أو باب الوادي الكبير عند السور الجنوبي، فضلاً عن ثلاثة أبواب في السور الغربي هي: باب عامر القرشي، وباب الجوز أو باب بطليوس، وباب اشبيلية أو باب العطارين.

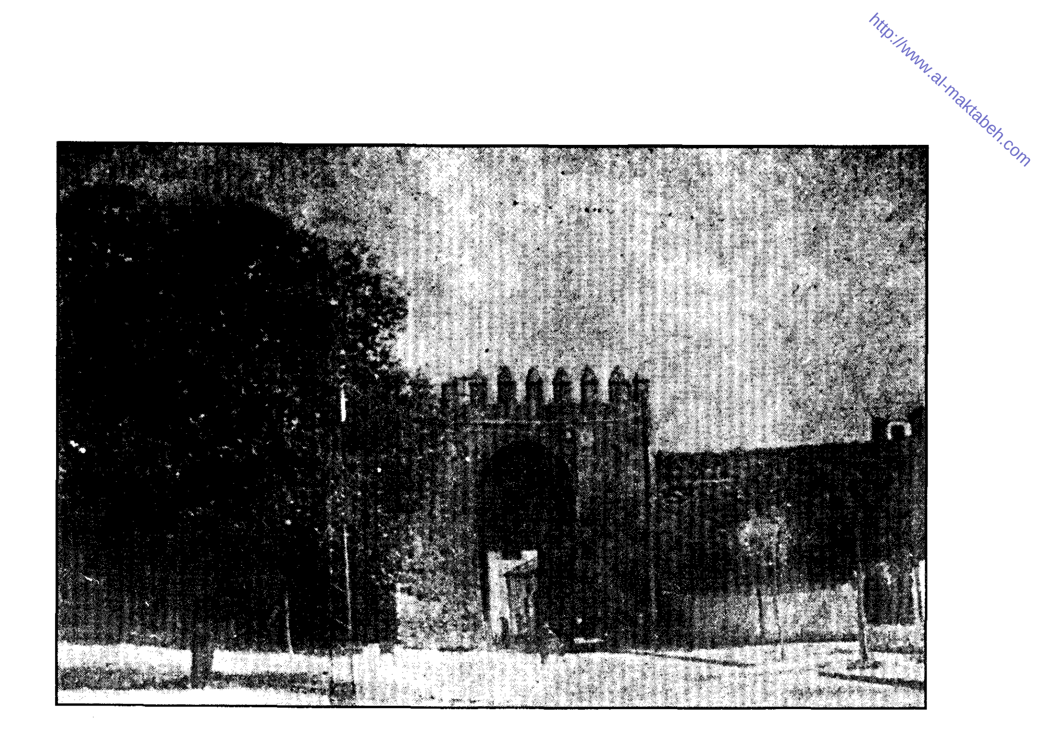
وقد عمل عبد الرحمن الثالث، سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣م، أي بعد سنة واحدة على توليه إمارة الأندلس سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م، وقبل خمس عشرة سنة من تحويل الإمارة إلى خلافة سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩م، على تحصين أبواب قرطبة السبعة، فابتنى لها أبواباً داخلية توازيها. وتلك الطريقة في تحصين الأبواب لتسهيل أمر الدفاع عنها، لم يسبقه أحد إليها في قرطبة.

أما قنطرة قرطبة، وتصل بين مدينة قرطبة وربضها شقندة، فتعود إلى زمن الامبراطور الروماني أغسطس قيصر، وكانت مهدمة عند الفتح العربي الإسلامي. فجرى ترميمها عدة مرات بسبب تعرضها للسيول من وقت لآخر، مثل السيل الجارف سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م، وسيل سنة ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م، وسيل سنة ٢٨٨ هـ/ ٩٠١م[2]. ثم تثلمت القنطرة مرتين في عهد عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» سنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٢ م وسنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م، بسبب المد الهائل الذي اجتاح الوادي الكبير، فأصلحها.

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ١٣.
ابن غالب: فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، ص ٢٧.
ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٤ ص ٥٩.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣١٦، ٣٢٠.



باب المدور، أحد ابواب قرطبة

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤٤٠

(جـ) إقامة مئذنة جديدة لجامع قرطبة (٣٤٠ هـ/ ٩٥١م) وتوسعة الجامع (٣٥٠ ـ ٣٥٦ هـ/ ٩٦١ ـ ٩٦٧م)

أدرك عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، أن مئذنة جامع قرطبة التي أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الأول «الداخل» قد تصدعت من جهة، وأصبحت صغيرة الحجم (ارتفاعها أربعون ذراعاً) بالنسبة لجامع فسيح المساحة، ولا تليق بأبهة الخلافة الأموية في الأندلس. لذلك أمر ببناء مئذنة جديدة تسمو على سائر العمران في قرطبة.

ففي سنة ٣٤٠ هـ/ ٩٥١م(١)، هدمت مئذنة الأمير هشام ومعها السور الشمالي للجامع، وبنيت المئذنة الجديدة في ثلاثة عشر شهراً. وجعل لها

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٣٨.

مطلعان، لكل منهما مائة وسبع درجات، يفصل بينهما البناء، فلا يلتقي الصاعدون إلا في أعلاها. فقد بلغ ارتفاع المئذنة ثمانين ذراعاً حتى مكان المؤذن، ومن هذا المكان إلى أعلاها عشرين ذراعاً تنتهي بسفود بارز، ركبت فيه ثلاث تفاحات، إثنتان من الذهب والوسطى من الفضة[1].

وكانت الأوجه الأربعة للمئذنة تزدان بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة، تحيط بها عقود تشبه حدوة الفرس، قائمة على أعمدة من الرخام.

وقام الناصر لدين الله بترميم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن. وكان بيت الصلاة قد ازداد اتساعاً منذ توسعة الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط»، وأصبح الصحن بالنسبة له ضيقاً للغاية، لا يتناسب مع تخطيط الجامع، فتصدعت واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن بسبب الدفع المستمر للعقود الداخلية. لذلك قام عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» بترميم هذه الواجهة في ذي الحجة ٣٤٦ هـ/آذار ٩٥٨ م، وذلك على يدي مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر[2].

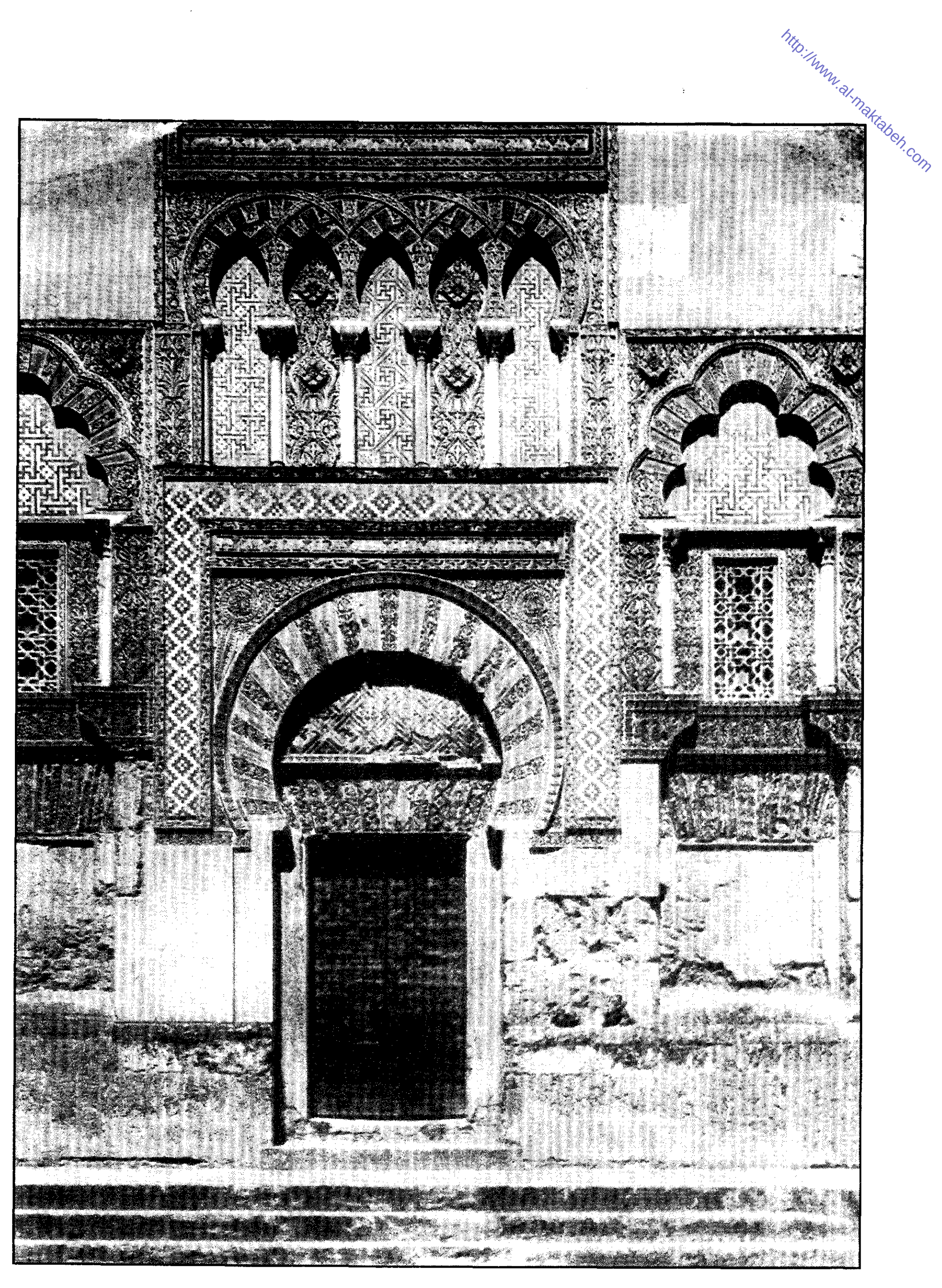
وبعد يومين فقط من تولي الحكم الثاني «المستنصر بالله»، بوشر العمل في توسعة جامع قرطبة، وكأنها رغبة والدة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» قبل وفاته سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م، فاستغرقت توسعة الجامع أربع سنوات، أنفق فيها مائتين وواحد وستين ألفاً وخمسمائة وسبعة وثلاثين ديناراً[3]. وأهم ما في عمارته القباب التي تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة، كسيت الفراغات بينها بزخارف نباتية رائعة الجمال، وأجرى فيها الفسيفساء المذهبة.

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ١٠، ١١.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ١ ص ٣٤٤.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٥٥.

(٢) Lévi - Provençal: Inscriptions Arabes d'Espagne, textes P. 3.

(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ٨٤.



أحد مداخل مسجد قرطبة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

حيان صيداوي: الإسلام وفنوية تطور العمارة العربية، ص ٢١٠

ثم استغرقت عملية تجميل الجامع ثلاث سنوات أخرى، فتم بناء قبة المحراب في جمادى الثانية ٣٥٤ هـ/ حزيزان ٩٦٥م[١]، ونقش الفسيفساء على جدار المحراب وفي باطن القبة الكبرى[٢]. ووضع المنبر القديم إلى جانب المحراب، ونصب في قبلة زيادته مقصورة من الخشب، وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنع، عجيبة النقش[٣]. أما المنبر الجديد، فقد استغرق عمله ونقشه سبع سنوات، على يد ثمانية صناع[٤]، وكان عدد درجاته تسعاً، سمّرت حشواته بمسامير الذهب والفضة، كما كان يسير على عجل، ويوضع بعد الصلاة في غرفة خلف المحراب الجديد الذي أصبح من أجمل العناصر المعمارية داخل جامع قرطبة.

وفتح الحكم الثاني «المستنصر» إلى عين المحراب باباً يؤدي إلى الممر الجديد الذي يصل بين قصره ومقصورة الجامع. ويتصل هذا الباب بمخزن يحفظ فيه مصحف يرفعه رجلان لثقله صبيحة كل يوم جمعة، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه، فيقرأ فيه الإمام ثم يرد إلى موضعه[٥].

وفي سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م، هدمت الميضأة القديمة التي أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الأول في فناء الجامع، وأقيم مكانها أربع ميضآت في كل جانب من جانبي الفناء الشرقي والغربي، أجري إليها الماء من إحدى عيون جبل قرطبة، داخل قناة حجرية تصب في أحواض من الرخام.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٥٤.
(٢) Lévi - Provençal: Inscriptions Arabes d'Espagne, textes P. 18.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٥٥.
(٤) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ٩٥.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٥٥.
(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٨، ١٠.

وبذلك تعتبر إقامة مئذنة جديدة سنة ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م، أي زمن عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، وتوسعه ٣٥٠ ـ ٣٥٦ هـ/ ٩٦١ ـ ٩٦٧ م، زمن الحكم الثاني «المستنصر»، من أهم ما أضيف إلى جامع قرطبة من حيث البناء والزخرفة.

(د) النهضة العلمية والأدبية

اقترن إسم قرطبة بنهضة علمية وأدبية، لتضاف إلى رموزها الحضارية الثلاثة المتمثلة بقنطرة الوادي وجامع قرطبة ومدينة الزهراء. وفي ذلك يقول الشاعر:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء وهو رابعها

لمع في قرطبة، العديد من الفلاسفة والأطباء والأدباء، وفي طليعتهم الفيلسوف محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي (٢٦٩ ـ ٣١٩ هـ/ ٨٨٢ ـ ٩٣١م)، وهو الذي أحرقت كتبه خارج باب جامع قرطبة، بأمر الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات عن منازل الملحدين[١].

وفي الطب، برز حسداي بن شبروط اليهودي، الذي أرسله الناصر لدين الله» إلى سانشو لتهذيب قوامه، لأنه كان مفرط السمنة، وذلك قبل أن يعيده إلى عرش مملكة ليون سنة ٣٤٩ هـ/ ٩٦٠ م.

ومن علماء المشرق العربي الإسلامي، الذين وفدوا قرطبة سنة ٣٣٠ هـ/ ٩٤١م، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي اللغوي، صاحب كتاب الأمالي، فأمر الناصر لدين الله ابنه الحكم الثاني «المستنصر» باستقباله حتى

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T3 P. 486.

اختص به[1]. فلا غرو أن تصل الحركة الأدبية ذروتها في عهد الخليفة الحكم الثاني «المستنصر»، لأن قدوم القالي إلى قرطبة، يمثل بحد ذاته نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية، ولم يكن لدى الأندلسيين قبله إلا ابن القوطية وثابت وابنه القاسم والزبيدي[2].

٨ ـ إضعاف العصبية العربية في الإدارة والجيش

رغم ما شهدته الأندلس من عظمة الحضارة العربية الإسلامية في عهده، إلا أن عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» ارتكب خطأ فادحاً باعتماده على الصقالبة في الإدارة والجيش، بهدف الحد من نفوذ الأرستقراطية العربية في الحكم، وإضعاف سيطرة العرب والبربر داخل الجيش.

وأصل الصقالبة من الشعوب السلافية الذين سكنوا البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً (بلغاريا العظمى في العصور الوسطى). وكان الجرمان يغزون هذه البلاد ويسبون الأطفال والرجال والنساء، ثم يبيعونهم في الأندلس، فأطلق العرب على هؤلاء العبيد أو الرقيق إسم «الصقالبة» نسبة إلى «السلاف»، وهو الإسم الذي أطلقوه أيضاً على ما كان يجلبه القراصنة من المغاربة والأندلسيين أثناء غاراتهم على الشواطىء الأوروبية للبحر المتوسط، دون إغفال قطلونية وجيليقية في شمال الأندلس. وقيل أيضاً أن تسمية «صقلبي» جاءت من الكلمة الفرنسية Esclave بمعنى عبد أو رقيق.

بدأ استخدام الصقالبة في الأندلس، منذ عهد الأمير الحكم الربضي (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/٧٩٦ ـ ٨٢٢ م)، ولكن بشكل محدود، لم يؤثر أبداً على

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٤ ص ١٤٦.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٦٢.

(٢) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص ٤٤.

العصبية العربية ونفوذها في الإدارة والجيش. وأخذ عددهم يزداد، حتى بلغ عهد الخليفة، عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» حوالي ٣٧٥٠ رجلاً و٦٣٥٠ إمرأة[1]، مما يعني وجود طبقة جديدة «غير عربية» في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس، على غرار طبقة الأتراك «غير العرب» في بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

ووصل اعتماد عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، على الصقالبة في الجيش، إلى حد تعيين مملوكه نجدة الصقلبي قائداً للحملة التي حلت بها الهزيمة على يد راميرو الثاني ملك ليون في موقعة الخندق قرب مدينة شمنقة سنة ٣٢٧ هـ/ ٩٣٩ م. وكان الجيش الأندلسي كبيراً يضم العرب والبربر والصقالبة، وكان قائده واثقاً من النصر، لذلك قيل أن سبب الهزيمة هو غضب العرب من تقديم الصقالبة عليهم في قيادة الحملة، فانسحبوا من القتال عند بدء الموقعة التي انتهت بمقتل نجدة الصقلبي وفرار الخليفة عبد الرحمن الثالث بأقل من خمسين فارساً.

وبذلك اعتمد عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، في قوته العسكرية، على فرقة الحرس النظامية داخل قرطبة ويطلق عليها اسم «الصقالبة»، وخصص لأفرادها رواتب ثابتة. كما كان يعتمد على القبائل العربية والبربرية التي وزعت على مختلف مناطق الأندلس بعد الفتح العربي الإسلامي، وكان عليها تقديم المساعدة العسكرية وقت الحرب مقابل استغلال الأرض، وهذا يعني النظام الإقطاعي العسكري. وبذلك أخذت العصبية العربية تضعف وتتراجع أمام قوة الصقالبة، حتى أوشكت على التلاشي زمن المنصور محمد بن أبي عامر الذي اعتمد بدوره على البربر الذين جلبهم من المغرب.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٤٠، ٤٠.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل السابع

سيطرة الحجاب على الخلافة

(٣٥٠ ـ ٣٩٩ هـ/ ٩٦١ ـ ١٠٠٩ م)

كانت وفاة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م، بداية سيطرة الحجاب «الوزراء» على الخلافة الأموية في الأندلس، وكأن هذه الخلافة ارتبطت فعلياً باسمه فقط، لأن إبنه الحكم الثاني «المستنصر بالله» منح حاجبه جعفر بن عثمان المصحفي صلاحيات واسعة، بدأ معها الحاجب نفوذه القوي، حتى آلت السيطرة التامة للحاجب محمد بن أبي عامر بعد خمس سنوات من وفاة الحكم الثاني سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م، بينما هشام الثاني «المؤيد» لم يحمل من الخلافة الأموية إلا اسمها وسلطتها الروحية، وتحولت السلطة الزمنية والفعلية إلى محمد بن أبي عامر الذي توج نفسه تحت لقب «المنصور» سنة ٣٧١ هـ ٩٨١ م، ثم إلى ولديه عبد الملك «المظفر» وعبد الرحمن «شنجول».

واستمرت الأسرة العامرية في الحكم طيلة ثمان وعشرين سنة (٣٧١ ـ ٣٩٩ هـ/ ٩٨١ ـ ١٠٠٩ م)، دون أن تغفل السياسة الجهادية ضد الممالك المسيحية في شمال الأندلس، والتي تميزت، لأول مرة، بالهجوم المستمر. ولكن، ما يعيب هذه السياسة، محاولة الأسرة العامرية إضعاف العصبية العربية في الجيش، وإن كانت أهم منجزاتها بناء مدينة الزاهرة.

١ - الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي زمن الحكم الثاني «المستنصر» (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦ م)

استمر عبد الرحمن الثالث في حكم الأندلس طيلة نصف قرن (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ - ٩٦١ م)، بلغت معه الخلافة الأموية ذروة عصرها الذهبي، منذ إعلانها في ٢ ذي الحجة ٣١٦ هـ/ ١٦ كانون الثاني ٩٢٩ م، حتى وفاته سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١م، وهو في الثانية والسبعين. ويبدو، عملياً، أن هذه الخلافة ارتبطت باسمه، لأن إبنه الحكم الثاني «المستنصر بالله» (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦م) تولى الخلافة وقد تجاوز الخامسة والأربعين، فقضى فترة حكمه التي استمرت ست عشرة سنة في الانصراف إلى العلم والقراءة وجمع الكتب النادرة من بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها، حتى تكونت لديه مكتبة علمية تضم أربعمائة ألف مجلد داخل قصر الخلافة في مدينة الزهراء. دون أن يغفل توسعة جامع قرطبة طيلة سبع سنوات (٣٥٠ - ٣٥٦ هـ/ ٦٦١ - ٩٦٧ م)، وهي من أهم توسعات الجامع.

لذلك استمر الازدهار العلمي في الأندلس طيلة عهده، فبرز العالم اللغوي أبو علي القالي صاحب كتاب «الأمالي»، والمؤرخ القرطبي «ابن القوطية» صاحب كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس»، والعالم المغربي محمد بن حارث الخشني صاحب كتاب «القضاة بقرطبة». دون إغفال الأسقف المستعرب ربيع بن زيد واسمه المسيحي روثموندو Recemundo، وقد اشتهر بدراساته الفلكية والفلسفية.

ورغم أن الحكم الثاني «المستنصر بالله»، منح حاجبه جعفر بن عثمان المصحفي، صلاحيات واسعة في شأن الإدارة، فيبت بالأمور دون الرجوع إليه، إلا أنه لم يهمل السياسة الخارجية التي سار عليها والده الناصر لدين الله، في مواجهة الأخطار نفسها، متمثلة بالخلافة الفاطمية في المغرب التي أجبرت في عهده على الإنتقال نهائياً إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٣ م. وبالخطر النورمندي الذي أصبح قريباً من الأندلس منذ تأسيس قاعدة نورمنديا Normandie (غرب فرنسا)، فشن النورمنديون ثلاث غارات على غرب

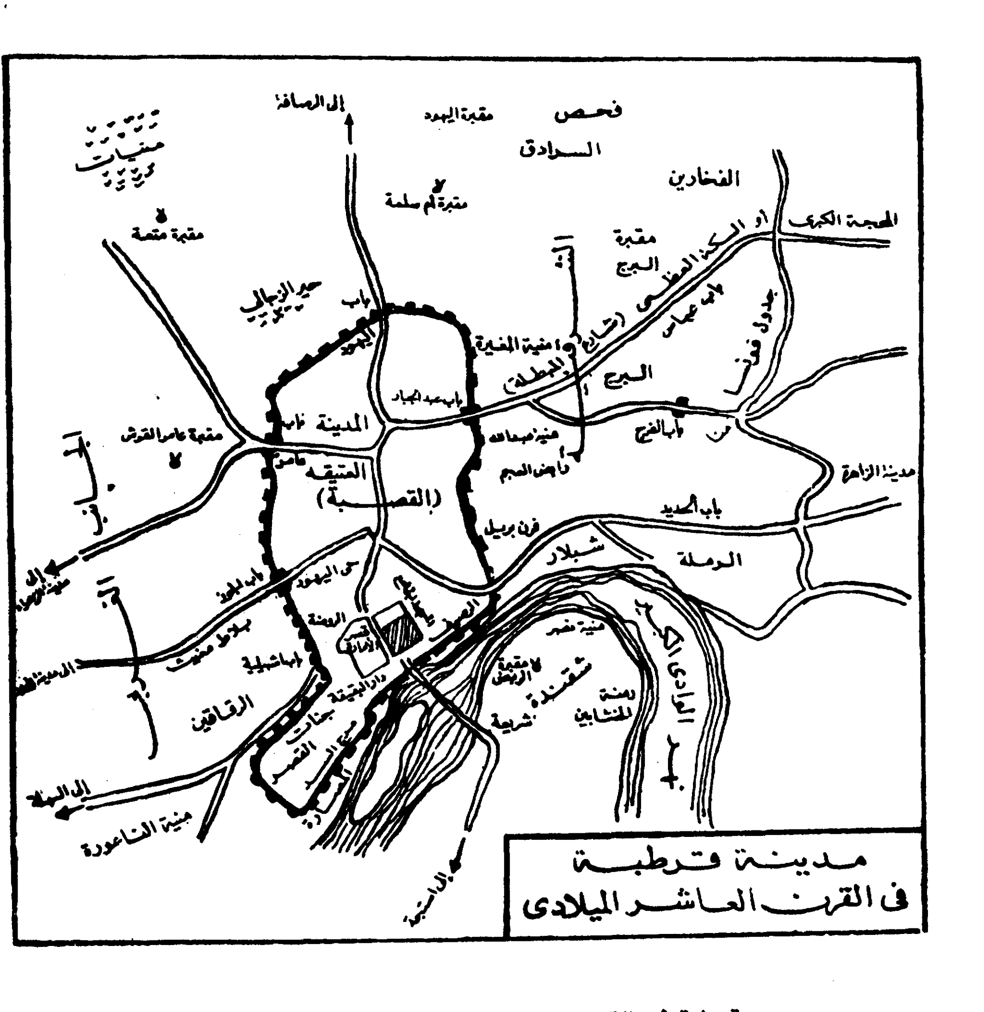
الأندلس سنة ٣٥٥ هـ/ ٩٦٦م[١] وسنة ٣٦٠ هـ/ ٩٧١م[٢] وسنة ٣٦١ هـ/ ٩٧١م[٣]، ولكنها منيت بالفشل أمام قوة أسطول الأندلس.

وإذا كان الحكم الثاني «المستنصر»، منح وزيره جعفر بن عثمان المصحفي[٤]، صلاحيات واسعة على صعيد الإدارة، إلاّ أنه توفي سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م، تاركاً طفله الصغير هشام الثاني المؤيد، يتولى الخلافة التي لم يحمل منها سوى الإسم أو السلطة الروحية طيلة ثلاث وثلاثين سنة، لأن السلطة الزمنية، وهي السلطة الفعلية آلت إلى الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، ثم إلى ولديه المظفر عبد الملك وعبد الرحمن «شنجول».

وبذلك، اقتصرت الخلافة الأموية عملياً، على عهدي عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» وولده الحكم الثاني «المستنصر بالله» طيلة ست وستين سنة، إن لم تقتصر على عهد الناصر لدين الله وحده. لأن المستنصر بالله، لم يهتم بالسياسة والحكم كما فعل والده، بل صبَّ اهتمامه على العلم والمعرفة. وإذا كان الخلافة استمرت قوية في عهده، فإن ذلك يرجع إلى ما حققه والده. وكانت وفاة الناصر ومن بعده المستنصر كافية لتصبح الخلافة شكلية مع سيطرة الحجاب من بني عامر.

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٦٠.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٣٦.
(٣) ابن حيان: المقتبس في تاريخ الأندلس، ص ٦٧، ٧٨.
(٤) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٦٢.



قرطبة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣٠٠

٢ ـ الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (٣٧١ ـ ٣٩٢ هـ/ ٩٨١ ـ ١٠٠٢)

بويع هشام الثاني «المؤيد بالله» بالخلافة بعد وفاة أبيه الحكم الثاني «المستنصر بالله» في ٤ صفر ٣٦٦ هـ/ ٢ تشرين الأول ٩٧٦م، وكان صبياً، لا يتجاوز العاشرة من عمره. فتمت مبايعته بفضل شخصية أمه صبح، وهي جارية بشكنسية من نبرة كان اسمها أورورا Aurora ومعناه «الفجر»، فعرفت كيف تستميل أحد كبار النافذين داخل القصر، وهو صاحب الشرطة محمد بن أبي عامر الذي عرف بدوره كيف يحظى بثقة الحاجب «الوزير» جعفر بن عثمان المصحفي الذي يتمتع بالنفوذ الأقوى، ليقتحم دار المغيرة بن عبد الرحمن الثالث، وهو أخو الحكم الثاني «المستنصر» والمرشح للخلافة بعده، فتمكن من قتله خنقاً. وبذلك استقر الأمر لخلافة الطفل هشام الثاني، ولم يمض يومان على بيعته حتى قلد جعفر بن عثمان المصحفي حاجباً له، ومحمد بن أبي عامر معاوناً له في تدبير شؤون الدولة[١].

(أ) التخلص من منافسيه وتلقبه بالمنصور (٣٧١ هـ/ ٩٨١م)

وما لبث محمد بن أبي عامر، أن وطد نفوذه داخل القصر، بتعيين حرس خلافي جديد يضم عناصر موالية له، مكان الحرس الصقلبي الذين تجاوزوا الألف[٢]. واتجه للتعاون مع غالب بن عبد الرحمن قائد الجيش وأمير الثغور، فتزوج إبنته أسماء في محرم ٣٦٧ هـ/ آب ٩٧٧[٣].

وبذلك سيطر على الجيش، وتمكن من القبض على منافسه الحاجب

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠، ٦١.

(٣) Reinhart Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, T2 P. 216.

جعفر بن عثمان المصحفي، بعد أن أصدر الخليفة أمراً بعزله من الحجابة في ١٣ شعبان ٣٦٧ هـ/ ٢٦ آذار ٩٧٨ م، ومات في سجن «المُطبق» في مدينة الزهراء[١]، سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٣م[٢].

وما إن تخلص محمد بن أبي عامر من منافسه الأول الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، حتى انقلب على صهره غالب بن عبد الرحمن قائد الجيش المرابط في الثغور في شمال الأندلس. فأعد جيشاً جديداً داخل قرطبة جلّ عناصره من الجنود المغاربة بقيادة جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي، وأطلق عليه اسم «جند الحضرة»، أي جيش قرطبة. والتقى الجيشان سنة ٣٧١ هـ/ ٩٨١ م، وحلت الهزيمة بالقائد غالب الذي سقط ميتاً على فرسه خلال المعركة[٣]. وما لبث محمد بن أبي عامر أن تخلص من قائد الجنود المغاربة، ابن الأندلسي[٤]. وأصبح سيد الأندلس دون منازع، ليلقب نفسه بـ «المنصور»، ويكتب إسمه على النقود، ويدعى له على المنابر عقب الدعاء للخليفة الأموي هشام الثاني «المؤيد» الذي لم يبق له من الخلافة إلا إسمها فقط مع الدعاء له على المنابر.

(ب) سياسته في العدوة المغربية

اتبع المنصور محمد بن أبي عامر سياسة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» وإبنه الحكم الثاني «المستنصر بالله»، الرامية إلى السيطرة التامة على العدوة المغربية المواجهة للساحل الجنوبي للأندلس، لأنها تمثل الخط الدفاعي الأول ضد الفاطميين الذي نجحوا في استعادة نفوذهم في المغرب الأقصى ستة ٣٦٩ هـ/ ٩٧٩م.

---

(١) الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ص ٤ ـ ٨.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٤٠٠ ـ ٤٠٦.

(٢) ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ ١ ص ٢٥٩.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٧.

وقد نجح المنصور في استعادة سيطرة الأندلس على المغرب الأقصى[1]، وتعيين الحسن بن أحمد السلمي نائباً له سنة ٣٧٦ هـ/ ٩٨٦ م، وغابت مجدداً السيادة الفاطمية.

وما لبثت الثورة أن اندلعت في المغرب بقيادة الزعيم زيري بن عطية المغراوي الزناتي سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م، فطرد عمال المنصور من جميع الأقاليم، ما عدا القواعد المطلة على مضيق جبل طارق مثل طنجة وسبتة ومليلة. فأرسل المنصور حملة بقيادة مملوكه واضح الصقلبي، فحلت بها الهزيمة سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م. فاضطر المنصور إلى حشد جيشه بأسره، في الجزيرة الخضراء مسنداً قيادته إلى إبنه عبد الملك الذي عبر نحو طنجة، في حين بقي والده المنصور في الجزيرة الخضراء يراقب تطورات المعركة العنيفة التي نشبت بوادي منى بأحواز طنجة[2]. ولجأ المنصور إلى سلاح الخيانة لحسم نتيجة المعركة التي كان النصر فيها سجالاً بين الفريقين، فاتفق مع غلام أسود اسمه كافور بن سلام، كان حاقداً على زيري بن عطية لأنه قتل أخاه، فوصل هذا الغلام إلى خيمة زيري وطعنه في رقبته، ليفر إلى معسكر عبد الملك بن المنصور، وقيل أن قاتله هو ابن عمه الخبر بن مقاتل[3]. وحلت البلبلة في صفوف جيش زيري، ومعها الهزيمة، وعاد المغرب الأقصى مجدداً إلى سيطرة الأندلس، وعين واضح الصقلبي حاكماً عليه سنة ٣٨٩ هـ/ ٩٩٩م[4].

(جـ) سياسته الجهادية «الهجومية» ضد الممالك المسيحية

ورغم ما فعله المنصور محمد بن أبي عامر، من أجل الوصول إلى

---

(١) مجهول: مفاخر البربر، ص ٢٤.
(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، جـ ١ ص ١٦٤، ١٦٥.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٤٢١.
(٤) مجهول: مفاخر البربر، ص ٢٩، ٣٠.

منصب الحاجب «الوزير»، وسيطرته على حكم الأندلس، ليجعل الخليفة هشام الثاني «المؤيد بالله» ألعوبة بيديه، مؤسساً دولة عامرية خاصة به، إلاّ أنه لم يغفل السياسة الجهادية ضد الممالك المسيحية في شمال الأندلس. فقد كان من أكثر حكام الأندلس حماسة لهذه السياسة التي اتسمت، لأول مرة، بالهجوم المستمر طيلة تسع عشرة سنة، بعد أن كانت قبله دفاعاً وهجوماً، وقاد بنفسه خمسين حملة انتصر فيها جميعاً ولم يهزم أبداً، وهو يغزو ليون وقشتالة وناڤار وبرشلونة وجليقية.

وتعتبر حملته الثالثة والعشرون، على برشلونة عاصمة قطالونيا في ١٢ ذي الحجة ٣٧٤ هـ/ ٥ أيار ٩٨٥[١]، من أشهر الحملات. وقد بلغت برشلونة بعد حوالي شهرين، وخربتها وأحرقتها دون أن يتمكن حاكمها بوريل الثاني Borrell من إنقاذها.

وفي حملته الثامنة والأربعين سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧م، غزا مدينة «شنت ياقب» في جليقية، وتعني القديس يعقوب أو «سانتياغو» Santiago. واشترك الأسطول الأندلسي وهو يحمل المشاة والأسلحة، من ميناء قصر أبي دانس على ساحل غرب الأندلس، ليتجه شمالاً، بينما سار المنصور يقود الفرسان براً حتى بلغ نهر دويرة Duera، والتقى بالأسطول الذي تحول إلى جسر لعبور الجنود. وعندما وصل إلى سانتياغو، وجدها خالية من السكان الذين هربوا خوفاً، فأمر بتدميرها وتدمير كنيستها بغرض تحطيم أسطورة سانتياغو الحربية الذي أطلق عليه الإسبان كلمة Matamoras أي قاتل المسلمين، وتقول الأسطورة أنه كان يخرج مع المحاربين الإسبان على شكل ملاك بيده سيف ويمتطي فرساً أبيض لينصرهم على المسلمين. علماً أن سانتياغو (سان جاك) هو القديس يعقوب أحد الحواريين الإثني عشر للسيد المسيح عليه السلام، لذلك

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T2 P. 238.

حافظ المنصور على مقام هذا القديس احتراماً للتقاليد العربية الإسلامية، وعاد إلى قرطبة محملاً بالأسرى والغنائم[1].

ولعل حملته على قشتالة سنة ٣٩٠ هـ/ ١٠٠٠ م، هي آخر حملاته وأشدها عنفاً، فتمكن من إنزال الهزيمة بتحالف الممالك المسيحية بزعامة ملك قشتالة «شنجة» أي سانشو غارسيا Sancho Garcia (٣٨٥ ـ ٤٠٨ هـ/ ٩٩٥ ـ ١٠١٧ م)، وذلك في موقعة جبل جربيرة[2]، فاضطر سانشو إلى أن يعقد إتفاقاً مع المنصور الذي كان قبلاً قد أسر والده غارسيا فرنانديز Garcia Fernandez (٣٥٩ ـ ٣٨٥ هـ/ ٩٧٠ ـ ٩٩٥م)، وحملة إلى قرطبة حيث مات ودفن فيها داخل كنيسة القديسين الثلاثة الخاصة بالمستعربين، ثم نقلت رفاته إلى دير كاردينيا Gardena في قشتالة[3].

ونتيجة لهذه السياسية الجهادية «الهجومية» المكللة دائماً بالانتصارات، اكتسب المنصور محمد بن أبي عامر شعبية كبيرة داخل الأندلس، ساهمت فيها أيضاً أعماله الإدارية والعمرانية.

(د) إضعافه العصبية العربية في الجيش

اعتمد المنصور محمد بن أبي عامر سياسة عسكرية جديدة في إعادة تنظيم الجيش تقوم على إلغاء العصبية القبلية، وجعل الجيش جيشاً نظامياً دائماً، يتقاضى أفراده رواتب ثابتة، ويتكون من فرق متعددة، تضم كل منها مختلف العناصر من العرب والبربر والصقالبة. وبذلك قضى على النظام الإقطاعي العسكري، وأزال العصبية القبلية بين فرق الجيش الذي أصبح يدين له بالولاء، مما دعمه في سياسته الجهادية ضد الممالك المسيحية شمال الأندلس.

---

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٣٢، ٢٣٣.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٧٩، ٨٠.
(٣) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٤٧.

لكن الخطأ الكبير الذي ارتكبه المنصور محمد بن أبي عامر، هو استكثاره من البربر الذين جلبهم من المغرب حتى ضاقت بهم العاصمة قرطبة وضواحيها[1]، فقد بلغ عدد الفرسان البربر في ديوانه ثلاثة آلاف فارس[2]. وكذلك استكثاره من جلب الصقالبة الذين جعلهم فتياناً له[3]، مهملاً العنصر العربي الذي يعود له الفضل الأول في الفتوحات العربية الإسلامية شرقاً وغرباً.

وبذلك استدعى المنصور محمد بن أبي عامر أهل المغرب من البربر، فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء، وبخاصة من زناتة، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة... وقدّم رجال البربر، في حين أخّر رجال العرب وأسقطهم من مراتبهم[4]، فتلاشت العصبية العربية، وهي العصبية التي قامت عليها الدولة الأموية في الأندلس. فلا غرو أن يؤدي فساد هذه العصبية بعد وفاة المنصور محمد بن أبي عامر وابنه المظفر، إلى الفتن والحرب الأهلية وانهيار السلطة المركزية في قرطبة، ثم سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م. ثم قيام عصر ملوك الطوائف في الأندلس، أي عصر الدويلات الصغيرة التي أسس بعضها البربر والصقالبة.

(هـ) أعماله العمرانية

وتبقى أشهر أعمال المنصور محمد بن أبي عامر، بناء مدينة الزاهرة وقنطرة قرطبة وقنطرة استجة، فضلاً عن التوسعة الأخيرة التي شهدها جامع قرطبة.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٤٢٨.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١١٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٢١.
(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٤ ص ١٤٨. المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٧٤.

• بناء مدينة الزاهرة (٣٧٠ هـ/ ٩٨٠م)

بني المنصور مدينة الزاهرة[١] سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠م، وتقع شمال شرق قرطبة، لتقابل مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» في شمال غرب قرطبة سنة ٣٢٥ هـ/ ٩٣٧م.

وتمتاز الزاهرة بقصورها الجميلة مثل منية السرور والعامرية. لكنها لم تستمر طويلاً، فاندرست مع سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩م، أي بعد أقل من ثلاثين سنة على إنشائها.

• توسعة جامع قرطبة (٣٧٧ ـ ٣٨٠ هـ/ ٩٨٧ ـ ٩٩٠م)

استغرق العمل في توسعة جامع قرطبة سنتين ونصف السنة، وهي التوسعة الأخيرة منذ إنشائه زمن عبد الرحمن الأول «الداخل» سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م. فقد شرع المنصور في هذه التوسعة سنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م، بعد نزع ملكية الدور القائمة شرق الجامع وتعويض أصحابها[٢].

واستخدم الأسرى المسيحيين المصفدين بالحديد، في توسعة الجامع «إذلالاً للشرك وعزة للإسلام»[٣]، كما استخدم غنائم كنيسة سانتياغو، مثل الأبواب التي دخلت في تسقيف الجزء الذي زاده في الجامع، والنواقيس التي تحولت إلى ثريات لإضاءة هذا الجزء الجديد.

وقد اضطر المنصور لهدم أبواب الجامع من الجهة الشرقية، ليتمكن من إنجاز توسعته، كما فتح في الجدار الشرقي لبيت الصلاة القديم، ثغرات واسعة تصل بينه وبين الزيادة الجديدة وأقام الجدار الشرقي الجديد وقد فتح فيه ثمانية

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٧٦.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٨٠ ـ ٨٢.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٤٢٩.

(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص ٨٤.

أبواب، فأصبح عدد الأبوار المؤدية إلى بيت الصلاة ستة عشر باباً، يضاف إليه خمسة أبواب تنفتح على مجنبات ضمن الجامع، وهي جميعاً ملبسة بالنحاس الأصفر في تخريم رائع.

وبقي جامع قرطبة على توسعته الأخيرة، حتى سقوط قرطبة بيد ملك قشتالة فرناندو الثالث في ٢٢ شوال ٦٣٣ هـ/ ٢٩ حزيران ١٢٣٦م، فتحول الجامع إلى كنيسة سانتا ماريا العظمى[١].

• قنطرة قرطبة الجديدة (٣٧٩ هـ/ ٩٨٩م)

لم تعد قنطرة قرطبة القديمة على نهر الوادي الكبير، كافية لمواجهة السيول التي كانت تتعرض لها من وقت لآخر، فكان يتم إصلاحها، كما حدث آخر مرة زمن عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله». لذلك أمر المنصور محمد بن أبي عامر ببناء قنطرة جديدة على النهر، تخفيفاً للضغط عن القنطرة القديمة، وتم إنجازها سنة ٣٧٩ هـ/ ٩٨٩ م. كما بنى قنطرة استجة على نهر شنيل، وهو أحد روافد نهر الوادي الكبير، وسط الجبال[٢].

كما أمر المنصور، سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م، بإعادة بناء قنطرة طليطلة التي كانت مهدمة منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني سنة ٢٤٤ هـ/ ٨٥٨م.

٣ ـ الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور (٣٩٢ ـ ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٢ ـ ١٠٠٩م)

توفي المنصور محمد بن أبي عامر في يوم الأحد ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ/

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣٩٧، ٣٩٨.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢ ص ٢٨٨.

٩ آب ١٠٠٢م، فخلفه في الحجابة إبنه المظفر عبد الملك، وكأن منصب الحاجب أصبح وراثياً في هذه الأسرة العامرية، أو كأنه أصبح يمثل دولة عامرية مستقلة وراثية[١]، في حين استمر الخليفة الأموي هشام الثاني «المؤيد بالله» منزوياً داخل قصره[٢] يمثل السلطة الروحية فقط.

تابع المظفر عبد الملك سياسة أبيه في العدوة المغربية، والرامية إلى استمالة زعماء زناتة من البربر الذين أخذوا يدعون له وللخليفة هشام الثاني «المؤيد بالله» على المنابر. وكافأ المعز بن زيري سنة ٣٩٧ هـ/ ١٠٠٧م، عندما ولاه حكم المغرب[٣] بدلاً من واضح الصقلبي الذي عاد إلى الأندلس. كذلك شجع زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي وإخوته على القدوم إلى الأندلس، فاستقروا في نواحي غرناطة، مما دعم القوة العسكرية في مواجهة الممالك المسيحية.

كما تابع المظفر عبد الملك سياسة أبيه الجهادية، فقاد سبع حملات[٤] خلال سنوات حكمه السبع، وأصبح حكام الممالك المسيحية يحتكمون إليه في حل الخلافات[٥]. فغزا برشلونة سنة ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٣م، وليون سنة ٣٩٤ هـ/ ١٠٠٤م، وجليقية سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥م، وبنبلونة سنة ٣٩٦ هـ/ ١٠٠٦م، وقشتالة سنة ٣٩٧ هـ/ ١٠٠٧م، وهي تمثل غزوته الكبرى التي تلقب بعدها بـ «المظفر» لأنه انتصر فيها على تحالف الممالك المسيحية بقيادة سانشو بن غرسيا. ثم غزا قشتالة للمرة الثانية سنة ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٨ م. وفي حملته الأخيرة على مملكة ليون، اشتد عليه المرض، وهي الغزوة التي مات بعدها،

---

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جـ ١، م١، ص ٥٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢.
(٣) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٢١٧.
(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٠٣.
(٥) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٣ ص ١٠.

إذ أصابته ذبحة صدرية أودت بحياته سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م.

٤ ـ الحاجب عبد الرحمن بن المنصور «المأمون» (٣٩٩ هـ/١٠٠٩م)

تولى عبد الرحمن بن المنصور الحجابة بعد وفاة أخيه المظفر عبد الملك سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م، وكان يلقب بـ «شنجول» لأن والدته هي عبدة إبنة شانجة «سانشو غارسيا» Sancho Garcia ملك بنبلونة الذي أهداها إلى المنصور محمد بن أبي عامر، فتزوجها وحسن إسلامها[١]. وكانت تدعو إبنها في صغره باسم «شنجول» Sanchuelo لشبهه بجده[٢]، فغلب هذا اللقب عليه.

لم يستمر حكم عبد الرحمن «شنجول» طويلاً، واقترن عهده القصير بالفساد وإنفاق الأموال على الخلاعة والمجون وشرب الخمر. ولم يسلك في الحكم سياسة أبيه وأخيه، فقد كان مغروراً، حتى وصل به الأمر إلى طلب ولاية العهد من الخليفة الأموي هشام الثاني «المؤيد بالله» تمهيداً لتولي الخلافة من بعده. وهذا ما لم يقدم عليه والده المنصور محمد بن أبي عامر ولا أخوه المظفر عبد الملك، رغم أعمالهما العظيمة. وتلقب بألقاب الخلافة مثل «الناصر لدين الله» تشبهاً بعبد الرحمن الثالث، وبـ «المأمون». وبذلك كانت فكرة اغتصاب الخلافة من أسرة بني أمية، كفيلة وحدها بإثارة أهل الأندلس الذين كرهوه منذ توليه الحجابة. فانتهزوا فرصة غيابه في غزوة إلى الشمال، وثاروا في قرطبة في ١٦ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ/ ١٦ كانون الثاني ١٠٠٩م، وخلعوا هشام الثاني «المؤيد بالله»، وولوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الثالث[٣] «الناصر لدين الله»، ولقبوه «المهدي بالله». ثم تمكنوا من قتل عبد الرحمن «شنجول»، لينتهي بموته حكم الأسرة العامرية.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٠٣.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٣ ص ٣٨.
(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٩٧.

الفصل الثامن

سقوط الخلافة الأموية في قرطبة

(٣٩٩ ـ ٤٢٢ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠٣١م)

وبانتهاء حكم الأسرة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م، بدأت فترة قصيرة من الفتن والصراع حول الخلافة، لم تستمر أكثر من إثنتين وعشرين سنة (٣٩٩ ـ ٤٢٢ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠٣١ م). وتمكن في مطلعها بنو أمية من استعادة نفوذهم طيلة سبع سنوات (٣٩٩ ـ ٤٠٧ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٦م)، مع إثنين من الخلفاء، هما: محمد الثاني «المهدي» سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩م، وسليمان «المستعين» سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م، قبل أن تخرج الخلافة في الأندلس للمرة الأولى من بني أمية لتستقر في أسرة حمود الأدارسة «الشيعية» طيلة سبع سنوات أيضاً (٤٠٧ ـ ٤١٤ هـ/ ١٠١٦ ـ ١٠٢٣م)، ثم عاد بعدها بنو أمية طيلة ثماني سنوات (٤١٤ ـ ٤٢٢ هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٣١م)، فتولى الخلافة ثلاثة، هم: عبد الرحمن الخامس «المستظهر بالله» سنة ٤١٤ هـ/ ١٠٢٣م، ومحمد الثالث «المستكفي بالله» سنة ٤١٤ هـ/ ١٠٢٤م، وهشام الثالث «المعتد» سنة ٤١٨ هـ/ ١٠٢٧م. وهذا الأخير هو آخر خلفاء بني أمية في الأندلس، الذين سقطت دولتهم سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م، بعد أن استمرت طيلة ٢٨٤ سنة هجرية/ ٢٧٥ سنة ميلادية (١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ١٠٣١م).

١ ـ استعادة نفوذ الخلافة الأموية والحرب الأهلية (٣٩٩ ـ ٤٠٧ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٦م)

إن نهاية حكم الأسرة العامرية، مع قتل عبد الرحمن «شنجول» وحزّ

رأسه وحمله للخليفة الأموي الجديد محمد الثاني «المهدي بالله»، يشير إلى مدى تعلق المسلمين بالخلافة وحرصهم على أن تكون من قريش.

وما لبثت الفتنة أن انتقلت إلى داخل الأسرة الأموية نفسها، فقد اعتمد محمد الثاني «المهدي» على عامة الناس، وأظهر كرهه للبربر بعد أن اكتسب عداء الأسرة العامرية، فتحالف خصومه مع هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي تلقب بـ «الرشيد». لكن المهدي هزمه وقتله، ثم قام بمذبحة ضد البربر داخل قرطبة، فاضطروا للخروج منها نحو الثغر[1]، ليلتفوا حول سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر وولوه خليفة تحت لقب «المستعين» في شعبان ٣٩٩ هـ/ نيسان ١٠٠٩ م[2].

وكانت المواجهة العسكرية في جبل فنطش، يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول ٤٠٠ هـ/ ٤ تشرين الثاني ١٠٠٩ م، بين محمد الثاني «المهدي» وخلفه جيش قرطبة، وبين سليمان «المستعين» الذي يعتمد على جيش البربر. وقد حلت الهزيمة بالأول فهرب ليلاً إلى طليطلة التي ظلت على ولائها له، في حين دخل سليمان «المستعين» قصر قرطبة، يوم الإثنين ١٦ ربيع الأول ٤٠٠ هـ/ ٧ تشرين الثاني ١٠٠٩ م، وقد تجاوز عدد القتلى من أهلها الثلاثة آلاف[3]، وبويع خليفة في اليوم التالي.

تمكن محمد الثاني «المهدي» من إعادة حشد جيش من ثلاثين ألف فارس بفضل وقوف أهل طليطلة إلى جانبه، فضلاً عن تسعة آلاف مسيحي من برشلونة[4] نتيجة تحالف واضح الفتى مع ريموند بوريل الثالث. في حين

(١) Lévi - Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T2 P. 307.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٣ ص ٨٤.
(٣) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جـ ١ ص ٣٠.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص ٣ ص ٩٦.

تخلى أهل قرطبة عن سليمان «المستعين»، لتحل به الهزيمة مع جيشه البربري في عقبة البقر(١)، على بعد عشرين كيلومتراً شمال قرطبة.

حاول محمد الثاني «المهدي»، مطاردة البربر، لكن الهزيمة حلت به في وادي آرو Guadiaro في ٦ ذي القعدة ٤٠٠ هـ/ ٢١ حزيران ١٠١٠ م، فاكتفى بالتحصن داخل قرطبة، وأعاد حفر الخندق حولها ودعمه بسور خلفه. وأمام غارات البربر المتلاحقة على قرطبة، عمد واضح الفتى إلى قتل محمد الثاني «المهدي» في ٨ ذي الحجة ٤٠٠ هـ/ ٢٣ تموز ١٠١٠ م، وأعاد الخلافة إلى هشام الثاني «المؤيد»، علّ البربر الذين يحاصرون قرطبة، يلتفون حوله. لكن حيلته فشلت، فدخل البربر مدينة الزهراء في ٢٣ ربيع الأول ٤٠١ هـ/ ٤ تشرين الثاني ١٠١٠ م، وحاصروا قرطبة، ثم اقتحموا أرباضها في ٢٦ شوال ٤٠٣ هـ/ ٩ أيار ١٠١٣ م، فطلب أهل قرطبة الأمان. ودخل سليمان «المستعين» قصر قرطبة في ٢٧ شوال ٤٠٣ هـ/ ١٠ أيار ١٠١٣م، ومنح علي بن حمود ولاية سبتة، والقاسم بن حمود ولاية طنجة وأصيلا والجزيرة الخضراء(٢).

٢ ـ خلافة آل حمود «الشيعية» (٢٣ محرم ٤٠٧ ـ ٤١٤ هـ/ ٢ تموز ١٠١٦ ـ ١٠٢٣م)

تحالف علي بن حمود، وينحدر من الأدارسة «الشيعة» في المغرب، مع خيران العامري، فأنزل الهزيمة بسليمان «المستعين»، ودخل منتصراً إلى قصر قرطبة في ٢٢ محرم ٤٠٧ هـ/أول تموز ١٠١٦ م، وضرب أعناق سليمان «المستعين» وأخيه عبد الرحمن ووالدهما(٣). ثم بويع بالخلافة في اليوم

---

(١) Reinhart Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, T2, P. 297.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٣ ص ١١٣.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٣٩.

(٣) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جـ ١ ص ٢٩.

التالي، وتلقب بـ «الناصر لدين الله». واستمر حكمه سنتين، انتهت بقتله في يوم الجمعة غرة ذي القعدة ٤٠٨ هـ/ ٢١ آذار ١٠١٨م[١]. وتولى الخلافة بعده، أخوه القاسم بن حمود في ٤ ذي القعدة ٤٠٩ هـ/ ١٤ آذار ١٠١٩م، وبويع تحت لقب «المأمون».

وبعد ثلاث سنوات، ثار يحيى بن علي بن حمود في سبتة ضد عمه القاسم بن حمود الذي ما لبث أن فرَّ إلى إشبيلية، فدخل يحيى قرطبة، وبويع بالخلافة يوم الأحد أول جمادى الأولى ٤١٢ هـ/ ١٣ آب ١٠٢٢ م، وتلقب بـ«المعتلي بالله». وسرعان ما خلعه البربر في ١٢ ذي القعدة ٤١٣ هـ/ ٦ شباط ١٠٢٣ م، وأعادوا القاسم بن حمود ليتولى الخلافة ثانية في ١٨ ذي القعدة ٤١٣ هـ/ ١٤ شباط ١٠٢٣ م. ولكن خلافته لم تستمر أكثر من ثمانية أشهر، فقد ضجر أهل قرطبة من تسلط البربر، وسوء إدارة القاسم بن حمود، فأعلنوا الثورة في ٢١ جمادى الثانية ٤١٤ هـ/ ١٠ أيلول ١٠٢٣ م، وهزموا البربر، وأجمعوا على رد الخلافة إلى بني أمية[٢].

وبذلك خرجت الخلافة لأول مرة من بني أمية، ليتولاها آل حمود «الشيعة» طيلة سبع سنوات، دون أن يتمكنوا من كسب ثقة عرب الأندلس، وبخاصة في قرطبة. فعاد بنو أمية، مع مبايعة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار، وهو أخو الخليفة السابق محمد الثاني «المهدي».

٣ ـ عودة الخلافة الأموية وسقوطها النهائي
(٤١٤ ـ ٤٢٢ هـ/١٠٢٣ ـ ١٠٣١م)

بويع عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بالخلافة في جامع قرطبة، في ٤ رمضان ٤١٤ هـ/ ٢٠ تشرين الثاني ١٠٢٣م، ولقب بـ «المستظهر». وهو

---

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جـ ١ ص ١٢.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٣ ص ١٩١.

خامس الحكام الأمويين الذين حملوا إسم عبد الرحمن.

لم تدم خلافه عبد الرحمن الخامس «المستظهر» طويلاً، فثار عليه أهل قرطبة، وبايعوا أموي أخر بالخلافة في ٣ ذي القعدة ٤١٤ هـ/ ١٧ كانون الثاني ١٠٢٤ م، وهو محمد «الثالث» بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصر «المستكفي بالله». وقد افتتح خلافته بقتل «المستظهر»، ثم قتل ابن عمه محمد بن العراقي خنقاً سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤م[١]. واستمرت خلافته سنة وخمسة أشهر، فرّ بعدها من قرطبة التي دخلها يحيى بن علي بن حمود في ١٦ رمضان ٤١٦ هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١٠٢٥م. ثم رحل يحيى بعد أربعة أشهر إلى مالقة، لأن أهل قرطبة ظلوا متمسكين بحكم بني أمية، وبايعوا هشام «الثالث» بن محمد بن عبد الملك وهو في حصن البونت في ربيع الثاني ٤١٨ هـ/ أيار ١٠٢٧م، وتلقب بـ «المعتد بالله». ولكنه لم يدخل قرطبة إلا في شوال ٤٢٠ هـ/ تشرين الأول ١٠٢٩م أي بعد سنتين وسبعة أشهر. وعندما دخلها، عاد البربر إلى التسلط، فانقلب عليه أهل قرطبة في ١٢ ذي الحجة ٤٢٢ هـ/ ٣٠ تشرين الثاني ١٠٣١ م، وحاصروه داخل قصر الخلافة[٢].

وفي تلك الأثناء، اجتمع شيوخ قرطبة والوزراء برئاسة الوزير أبي الحزم إبن جهور الذي أعلن انتهاء رسم الخلافة جملة، لعدم وجود من يستحقها. وتحول الحكم داخل قرطبة إلى شورى بأيدي الشيوخ والوزراء، أطلق عليه «حكم الجماعة»[٣].

وبخلع هشام الثالث «لمعتد بالله» سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١ م، سقطت الخلافة الأموية في الأندلس وهي الخلافة التي أسسها عبد الرحمن الثالث

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٣ ص ١٤٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٣ ص ١٥١.
(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٣٩.

«الناصر لدين الله» سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م، أي قبل مائة وست سنوات هجرية/ مائة وسنتين ميلادية، وانتهت بسقوطها الدولة الأموية التي أسسها عبد الرحمن الأول «الداخل» سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٦ م، أي قبل مائتين وأربع وثمانين سنة هجرية/ مائتين وخمس وسبعين سنة ميلادية.

وتحولت الأندلس إلى دويلات مستقلة طيلة ست وخمسين سنة هجرية/ أربع وخمسين سنة ميلادية، حيث استقل كل زعيم بناحية، وأطلق على نفسه اسم «الملك»، فعرفت تلك الفترة بعصر ملوك الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٨٥ م)، أو عصر الفرق.



المرحلة الرابعة

عصر ملوك الطوائف

(٤٢٢ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٨٥ م)


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل التاسع

عصر ملوك الطوائف

(٤٢٢ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٨٥م)

بلغت الأندلس، في غرب الوطن العربي الإسلامي، عصرها الذهبي مع الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١ م) على غرار الدولة العباسية، في شرق الوطن العربي الإسلامي، زمن الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م). وكان الحكم الثاني «المستنصر» ابن عبد الرحمن الثالث محباً للعلم والعلماء مثل المأمون ابن هارون الرشيد.

ومع ضعف الخلافة الأموية في الأندلس، استبد البربر والصقالبة، كما استبد الفرس والأتراك مع ضعف الخلافة العباسية في بغداد [(١)]. وأخذت شوكة العرب تضعف حتى انكسرت مع سقوط الخلافة الأموية في قرطبة وقيام دولة بني جهور سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١ م، في حين كانت الخلافة العباسية أقوى من الناحية الروحية، نظراً لارتباطها بالعباس عم النبي العربي محمد ﷺ، فاستمرت رغم ضعفها حتى سقوط بغداد على يد المغول يوم الأربعاء ٧ صفر ٦٥٦ هـ/ ١٣ شباط ١٢٥٨م [(٢)].

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، جـ ٢ ص ٤٩٦.

(٢) عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص ٢٥٧، ٢٦٣.

وبسقوط الخلافة الأموية في الأندلس، انتهى وجود الحاكم الشرعي الذي كان يجمع بين القوى المتناحرة من العرب والبربر والصقالبة والموالي والمولدين والمستعربين، فقامت في كل مدينة دويلة. وانقسمت الأندلس إلى ثلاث وعشرين دويلة[1] متنازعة، سميت بدول الطوائف، وعرف حكامها بملوك الطوائف.

بدأ عصر ملوك الطوائف رسمياً في الأندلس، مع قيام دويلة بني جهور في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م، وإن كانت دويلات عديدة سبقت دويلة بني جهور وعاصرتها، أو أعقبت هذه الدويلة وعاصرتها. مما يعني عملياً، أن هذا العصر بدأ مع قيام دويلة بني حمود في مالقة والجزيرة الخضراء سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦م.

وكان البربر الذين دخلوا حديثاً من المغرب إلى الأندلس، أي منذ عهد المنصور محمد بن أبي عامر، أسرع الطوائف إلى إقامة دويلات خاصة بهم، مثل: دويلة بني زيري في غرناطة (٤٠٣ ـ ٤٨٣ هـ/ ١٠١٢ ـ ١٠٩٠م)، ودويلة بني برزال في قرمونة (٤٠٤ ـ ٤٦٠ هـ/ ١٠١٣ ـ ١٠٦٨م)، ودويلة بني ذي النون في طليطلة (٤٢٧ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣٥ ـ ١٠٨٥م)، ودويلة بني يفرن في رندة (٤٣١ ـ ٤٥٨ هـ/ ١٠٣٩ ـ ١٠٦٥م). أما بنو حمود، وهم من العرب الذين دخلوا بدورهم من المغرب إلى الأندلس، فقد أسسوا دويلة في مالقة والجزيرة الخضراء (٤٠٧ ـ ٤٤٩ هـ/ ١٠١٦ ـ ١٠٥٧م)، وكان أميرهم أو خليفتهم يعرف بصاحب البربر، بسبب استقرارهم بين البربر في المغرب واعتمادهم على هؤلاء البربر بعد انتقالهم إلى الأندلس.

وكذلك فعل الصقالبة، ومعظمهم من مماليك المنصور محمد بن أبي عامر وأبنائه، فأسسوا الدويلة العامرية الصقلبية في شرق الأندلس (٤١٢ ـ

(١) البستاني: دائرة المعارف، المجلد الخامس، ص ٢٣٨.

٤٧٨ هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٨٥م) وتضم دانية والمرية ومرسية وبلنسية والجزر الشرقية «البليار». ثم تمكن بنو طاهر «الصقالبة» من تأسيس دويلة خاصة بهم في مرسية (٤٢٩ ـ ٤٧١ هـ/ ١٠٣٧ ـ ١٠٧٨م).

أما أهل الأندلس الذين استقروا فيها منذ الفتح العربي الإسلامي، بغض النظر عن أصلهم العربي أو البربري أو القوطي، وغلب عليهم الطابع العربي، فقد أسسوا عدة دويلات، أولها دويلة بني تجيب ثم بني هود في سرقسطة (٤٠٨ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠١٧ ـ ١١١٨م)، ودويلة بني عباد في إشبيلية (٤١٤ ـ ٤٨٤ هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٩١م)، ودويلة بني القاسم الفهريين في البونت (٤٢١ ـ ٤٩٧ هـ/ ١٠٣٠ ـ ١١٠٣م)، ودويلة بني جهور في قرطبة (٤٢٢ ـ ٤٦١ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٦٩م). ثم اقتطع بعض أهل الأندلس، بلنسية والمرية من الدولة العامرية الصقلبية، فكانت دويلة عبد العزيز بن أبي عامر في بلنسية سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م، ودويلة بني صمادح التجيبيين في المرية (٤٣٣ ـ ٤٨٤ هـ/ ١٠٤١ ـ ١٠٩١م).

واتخذ العديد من ملوك الطوائف، ألقاب الخلافة التي تعددت رغم قرب المسافات. فإذا كان أئمة المسلمين أجازوا تعدد الخلافة، في حال إتساع رقعة الإسلام، لتبرير قيام الخلافة الأموية في الأندلس، أي في أقصى غرب العالم الإسلامي، مع وجود الخلافة العباسية في بغداد شرق هذا العالم، إلا إن قيام أكثر من خلافة في وقت واحد، وداخل رقعة صغيرة في الأندلس، يعني الخروج عن الأصل الشرعي. فقد شهد المثلث الصغير في جنوب الأندلس، الذي يطل على مضيق جبل طارق، قيام أربعة كل منهم يتسمى بأمير المؤمنين[1]، أحدهم خلف الحصري في إشبيلية وقد أقامه بنو عباد خليفة على أنه الخليفة الأموي «السني» هشام الثاني «المؤيد» علماً أن هذا الأخير توفي

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٦٣ ـ ٦٨.

قبل إثنتين وعشرين سنة، وثلاثة خلفاء من آل حمود «الأدارسة الشيعة» هم: محمد بن القاسم في الجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس في مالقة، وإدريس بن يحيى بن علي في بشتر[1].

وكثرت ألقاب ملوك الطوائف، وهم يقلدون الخلفاء العباسيين في بغداد والخلفاء الفاطميين في القاهرة، مثل: المنتصر، المستعين، المعتصم، المتوكل، المظفر، المقتدر، المؤتمن، المعتضد، المعتمد، المنصور، الظافر، المأمون، القادر، المهدي، العالي، المستعلي، السامي، المتأيد.

وأجمل وصف لمثل هذا العصر المضحك المبكي في آن معاً، ما قاله الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني[2]:

مما يُزهّدني في أرض أندلسٍ ... أسماء معتمدٍ فيها ومعتضد
ألقابُ مملكة في غير موضعها ... كالهرِّ يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وكذلك، ما قاله ابن الخطيب[3]:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر ... وذهب العين جميعاً والأثر
قام بكل بقعة مليك ... وصاح فوق كل غصن ديك

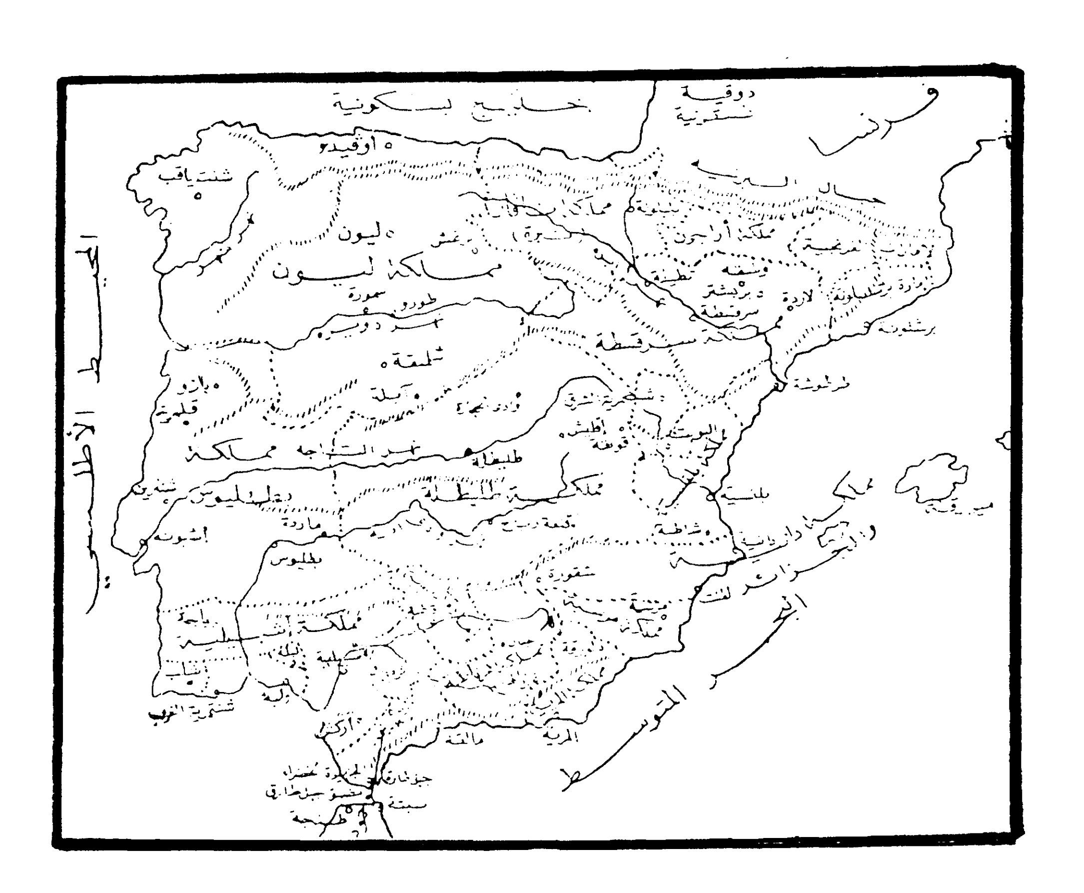
ومثل هذا الواقع المخزي، الذي يدعو إلى السخرية، جعل الفونسو السادس ملك قشتالة، يسرع إلى توحيد جهود مملكتي قشتالة وليون، وبسط نفوذه على الممالك المسيحية في الشمال، علّه يسترد الأندلس دويلة دويلة. فدخل طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م، وهي إحدى الدويلات الست الشهيرة في عصر ملوك الطوائف، وحاصر سرقسطة.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ١٩٨.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٤.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٧٠.



دويلات الطوائف الإسلامية والممالك المسيحية بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس

١ - دويلة بني حمود في مالقة والجزيرة الخضراء
(٤٠٧ - ٤٤٩ هـ/١٠١٦ - ١٠٥٧م)

يمثل بنو حمود في مالقة والجزيرة الخضراء، وبنو زيري في غرناطة، المغاربة أو البربر الحديثو العهد بالأندلس.

كان علي بن حمود والياً على طنجة وسبتة في المغرب، وهو من سلالة الأمير أبي حفص عمر بن إدريس الثاني «الحسني العلوي». وقد استولى على مالقة، ودخل قرطبة ليقتل الخليفة الأموي سليمان «المستعين» سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦م. ثم انسحب منها، لتقتصر دولة بني حمود على مالقة والجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس الذي يطل مباشرة على ممتلكات آل حمود في المغرب.

وقد استندت خلافة بني حمود إلى الأصل «الحسني العلوي»، وكان الخليفة منهم يعرف بصاحب البربر، نتيجة استقرارهم الطويل في المغرب بين البربر، فأصبحوا يتكلمون باللسان البربري.

ولم يلبث الانقسام أن حل بين بني حمود، فأخذ كل منهم يدعي الخلافة لنفسه[١]، حتى انتهت دولتهم في جنوب الأندلس، وتراجعوا إلى المغرب. فسيطر بنو عباد في إشبيلية على الجزيرة الخضراء، وبنو زيري الصنهاجيون في غرناطة على مالقة.

وقد استقر بنو زيري في الأندلس عهد المنصور محمد بن أبي عامر، وما لبثوا أن استقلوا في غرناطة (٤٠٣ - ٤٨٤ هـ/ ١٠١٢ - ١٠٩٠ م)، ويعود أصلهم إلى الدولة الزيرية في أفريقية زمن الفاطميين.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢٤٩.

٢ ـ دويلة بني تجيب ثم بني هود في سرقسطة
(٤٠٨ ـ ٥١٢ هـ/١٠١٧ ـ ١١١٨م)

أطلق أهل الأندلس إسم «الثغر الأعلى» على سرقسطة، بسبب موقعها الجغرافي المتاخم للممالك المسيحية شمال الأندلس، مما يعني أنها كانت بعيدة عن العاصمة قرطبة. وهذا ما شجع المنذر بن يحيى، وهو من أسرة تجيب العربية، على دخولها سنة ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م، ليحكمها طيلة ست سنوات، ولقبه المستعين. ثم خلفه إبنه يحيى الملقب بـ«المظفر» سنة ٤١٤ هـ/ ١٠٢٣ م. وقد حكم المظفر بدوره ست سنوات، وخلفه إبنه المنذر سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩م، ليحكم عشر سنوات انتهت باغتياله سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م، بتدبير من بني هود الذين أقاموا دولة خاصة بهم في سرقسطة، ويتبعها لاردة.

ويعتبر سليمان بن محمد بن هود ولقبه «المستعين» أول أمراء دويلة بني هود في سرقسطة، وهو ينتمي إلى قبيلة جذام اليمنية العربية. وقد وطد نفوذه بعد انتصاره على المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة[١] الذي كان نسيباً للمنذر بن يحيى آخر حكام دويلة بني نجيب في سرقسطة، ففشل في دخول وادي الحجارة إنتقاماً. ثم خلفه أربعة أمراء، هم: ابنه أحمد بن سليمان «المقتدر»، ويوسف «المؤتمن»، وأحمد بن يوسف «المستعين الثاني» سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م، وهي السنة التي سقطت فيها طليطلة على يد الفونسو السادس ملك قشتالة. وما لبث المستعين الثاني أن قتل في رجب ٥٠٣ هـ/ كانون الثاني ١١١٠م[٢]، ليخلفه عبد الملك «عماد الدولة» الذي أمر بتسليم سرقسطة للمرابطين.

---

(١) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٢٧١ .

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٧٤.

٣ ـ الدويلة العامرية «الصقلبية» في بلنسية ودانية والجزر الشرقية «البليار» (٤١٢ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٨٥م)

يعود أصل الصقالبة إلى الرقيق من سبي السلاف، اشتراهم عرب الأندلس وأطلقوا عليهم إسم «الصقالبة» الذي أصبح يطلق أيضاً على الموالي الذين جلبوا من الممالك المسيحية بشمال الأندلس.

وتلقى الصقالبة، في قرطبة، تربية عسكرية إسلامية، وصار منهم الحجاب والقادة والأدباء والشعراء. ونتيجة ضعف الخلافة الأموية، أسس الصقالبة دويلات إسلامية صغيرة في شرق الأندلس، أصحابها من مماليك المنصور محمد بن أبي عامر وولديه المظفر عبد الملك وعبد الرحمن «شنجول». لذلك كان تحالف هذه الدويلات يعرف بالدولة العامرية «الصقلبية».

وعلى غرار بني حمود، حاول أبو الجيش مجاهد العامري الصقلبي[١]، أن يقيم، في دولته بدانية والجزر الشرقية (البليار)، خليفة قرشياً من سلالة الأمويين، هو أبو عبد الله بن الوليد المعيطي، ولقبه بالمنتصر بالله، سنة ٤١٢ هـ/ ١٠٢١م. ثم عزله ونفاه إلى المغرب الأوسط، لاشتراكه في مؤامرة أعدت لخلعه أثناء غيابه لغزو جزيرة سردينيا. ومما يذكر أن أسطول الدولة العامرية «الصقلبية» سيطر على الحوض الغربي للبحر المتوسط.

٤ ـ دويلة بني عباد في إشبيلية (٤١٤ ـ ٤٨٤ هـ/١٠٢٣ ـ ١٠٩١م)

يمثل بنو عباد أهل الأندلس، منذ الفتح العربي الإسلامي، بغض النظر عن أصلهم العربي أو البربري أو القوطي. وقيل إنهم ينتسبون إلى النعمان بن

---

(١) لمزيد من المعلومات، راجع:
كليكيا سارنلي: مجاهد العامري، القاهرة ١٩٦١.

المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة. وأول من هاجر إلى الأندلس من أجدادهم هو نعيم وإبنه عطاف، وقد استقرا في اشبيلية[١].

وتأسست دولة بني عبّاد على يد القاضي محمد بن إسماعيل بن عبّاد سنة ٤١٤ هـ/ ١٠٢٣م. وبوفاته سنة ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١م، خلفه إبنه عبّاد الذي تلقب، على غرار أحد خلفاء بني العباس، بلقب «المعتضد»، وشهدت اشبيلية أزهى أيامها، طيلة ثمان وعشرين سنة. وبوفاته سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩م، خلفه إبنه محمد بن عبّاد الذي لقب بـ «المعتمد»[٢].

بلغت دويلة بني عباد، أوج قوتها عهد المعتمد محمد بن عبّاد الذي دخل قرطبة سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠م، منهياً دويلة بني جهور، في محاولة لتوحيد جنوب الأندلس. ثم نجح أيضاً في دخول غرناطة التي كانت تقوم على عصبية البربر منذ أن استقل بها بنو زيري سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢م.

٥ ـ دويلة بني جهور في قرطبة (٤٢٢ ـ ٤٦٢ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٦٩م)

تعتبر دويلة بني جهور، أول دول الطوائف التي نشأت داخل قرطبة عاصمة الأندلس، إثر سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١ م.

ومؤسس هذه الدولة، هو أبو الحزم بن جهور الذي ألغى منصب الخليفة وجعل الأمر شورى بين أهل الرأي أي «الجماعة»، وعرف هو بـ«صاحب الجماعة». وهذا ما يحدث لأول مرة في تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي الإسلامي، حيث تحول الحكم في قرطبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهوري في يومنا هذا.

إهتم أبو الحزم بن جهور بالجيش، وجعله من أهل قرطبة، مبتعداً عن

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ ٤ ص ١١٢.
(٢) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٦٣.

الجند المغاربة والبربر الذين دخلوا المدينة زمن المنصور محمد بن أبي عامر. علماً أنه نفسه من الموالي غير العرب، يقال أن أحد أجداده دخل الأندلس مع بلج بن بشر[١].

وبوفاة أبي الحزم بن جهور سنة ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣ م[٢]، خلفه ابنه أبو الوليد محمد، الذي شهد مطلع حكمه نهضة علمية وأدبية، فقرَّب إليه المؤرخ ابن حيان صاحب كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس. واتخذ الشاعر ابن زيدون وزيراً له قبل أن يقع الخصام بينهما، ويعين مكانه الوزير إبراهيم بن يحيى المعروف بـ«ابن السّقاء». وكان المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية، يطمع في ضم قرطبة، لذلك أخذ يكيد بين أبي الوليد محمد ووزيره ابن زيدون الذي التجأ إلى إشبيلية حيث قلده الوزارة. ثم أخذ يكيد بينه وبين وزيره إبراهيم بن يحيى حتى قتله[٣] سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م، رغم الخدمات التي قدمها في إدارة قرطبة.

وزاد الأمر سوءاً داخل قرطبة، منذ مطلع عهد أبي الوليد محمد، عندما بايع إبنه عبد الملك ولياً للعهد، وكان الابن معروفاً بالفساد والمعاصي، وسمى نفسه «صاحب السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله»[٤]، وانفرد بسابقة في حكم بني جهور، عندما أمر بأن يخطب له على المنابر[٥]، كما أنه يتنافى مع حكم الجماعة الذي أرساه جده أبو الحزم بن جهور. كما أنه أثار غيرة الإبن الأكبر عبد الرحمن الذي جمع حوله الأنصار والمؤيدين، فعهد إليه

---

(١) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٢١.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، جـ ٣ ص ١٨٧.
(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٤٩.
خالد الصوفي: جمهورية بني جهور، ص ٩٣، ٩٤.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٣ ص ٢٢٣.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٣ ص ٢٣٢.

أبوه «الإشراف والجباية»، بينما تولى عبد الملك «النظر في الجند» وهو يستعد للتخلص من أخيه حتى تمكن من سجنه.

وقد مهد ذلك كله، لدخول المعتضد بن عباد إلى قرطبة سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م، مما يعني سقوط دولة بني جهور.

٦ ـ دويلة بني ذي النون في طليطلة (٤٢٧ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣٥ ـ ١٠٨٥م)

تمثل طليطلة عاصمة الثغر الأدنى المتاخم للممالك المسيحية، وهي عاصمة القوط القديمة قبل الفتح العربي الإسلامي للأندلس.

ومع ضعف السلطة المركزية في قرطبة، أدار حكم طليطلة، القاضي أبو بكر يعيش بن محمد الأسدي. وبسقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م، بدأ الانقسام داخل طليطلة، لينتهي الأمر بعزل القاضي، ومطالبة عبد الرحمن بن ذي النون، وهو صاحب «شنت برية» بأن يحكم المدينة، فأرسل إليهم إبنه إسماعيل.

ويعود أصل بني ذي النون إلى قبيلة هوارة البربرية[١]، وقد حكموا طليطلة حوالى نصف قرن (٤٢٧ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣٥ ـ ١٠٨٥ م)، تعاقب خلالها ثلاثة أمراء، هم: إسماعيل بن عبد الرحمن «الظافر» سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م، وإبنه يحيى بن إسماعيل «المأمون» سنة ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣م، وحفيد الثاني يحيى بن هشام «القادر» الذي فشل في حكم طليطلة وغادرها بعد إعلان الثورة ضده سنة ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م، والمناداة بالمتوكل بن الأفطس أمير بطليوس حاكماً.

---

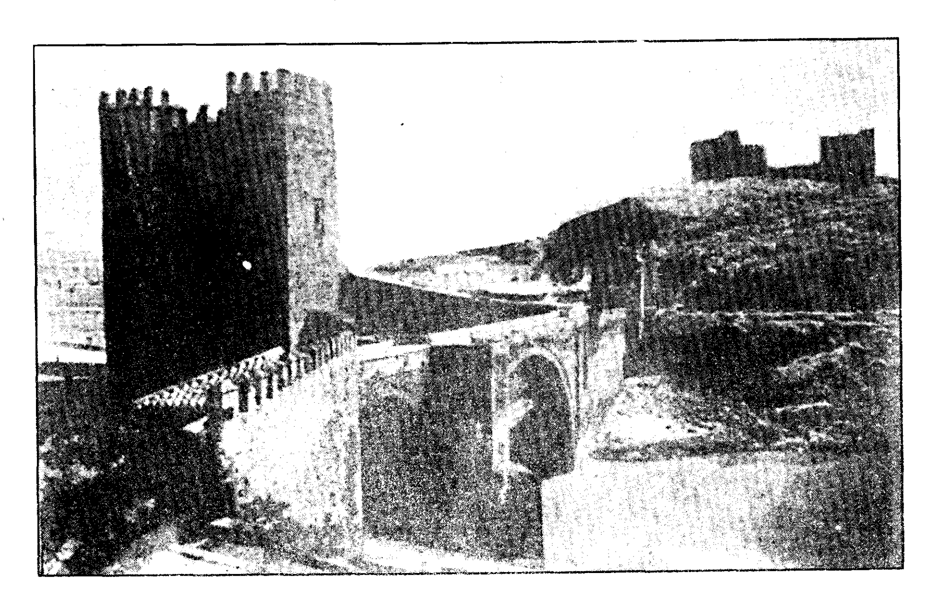
(١) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٩٥.

وبدأت مأساة طليطلة مع طلب يحيى بن هشام «القادر» المساعدة من الفونسو السادس ملك قشتالة، في الوقت الذي كان فيه هذا الملك المسيحي، يحاول استرداد ملك أجداده، وبذلك دخل القادر إلى طليطلة بحماية جيش قشتالة. وما لبث الفونسو السادس أن حاصر المدينة لتسقط سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥[1]، وتسقط معها دولة بني ذي النون. فعادت حرب الاسترداد قوية على يده، وقد خيّل إليه، وهو يحاصر سرقسطة، أن سقوط ملوك الطوائف أصبح وشيكاً. لكن سرقسطة لم تسقط، فقد خرجت قوة إسلامية جديدة من المغرب، هي قوة المرابطين الملثمين الصنهاجيين، فأنزلت الهزيمة بالملك الفونسو السادس وتحالف الممالك المسيحية في موقعة الزلاقة، سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م، ووحدت شمل الأندلس، بعد تفرقة طويلة على يد ملوك الطوائف، وضمته إلى المغرب وعاصمته مراكش، وأصبح ولاية تابعة للمغرب.



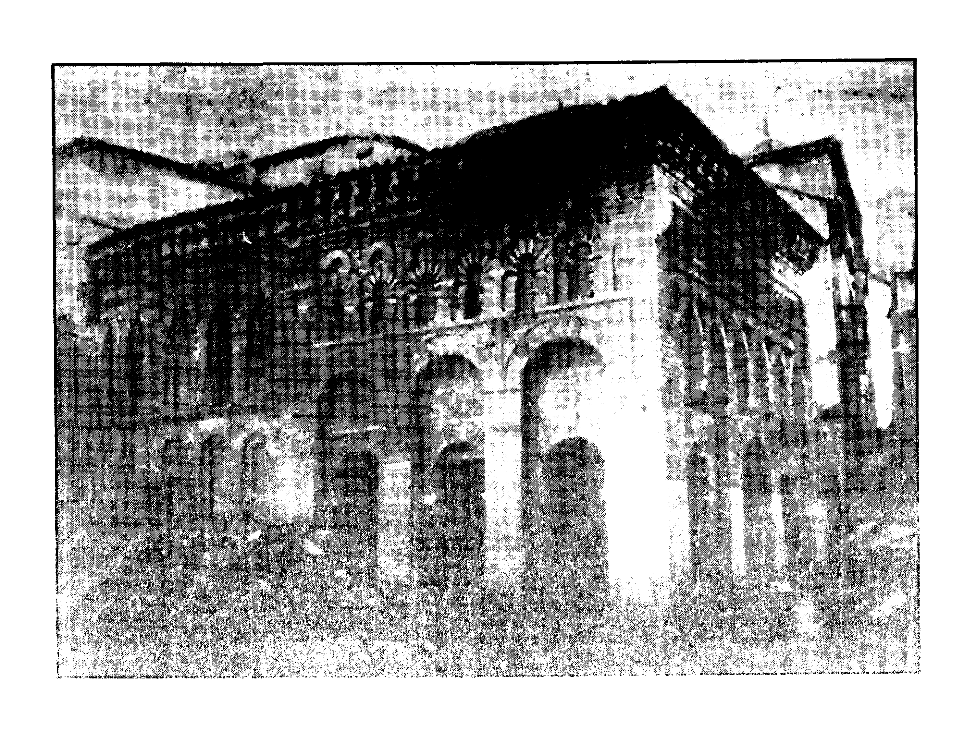
(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ١٨٦.

باب شاقرة أحد أبواب مدينة طليطلة



قنطرة طليطلة على نهر التاجو

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤٥٠



مسجد باب مردوم بطليطلة

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤٤٩

المرحلة الخامسة

ضم الأندلس إلى المغرب وعاصمته مراكش
(٤٧٩ ـ ٦٤٢ هـ/ ١٠٨٦ ـ ١٢٤٤ م)


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل العاشر

المرابطون

(٤٧٩ ـ ٥٤١ هـ/ ١٠٨٦ ـ ١١٤٧ م)

كان الأندلس ممزقاً إلى دويلات في عصر ملوك الطوائف، وكانت الممالك المسيحية في شماله، تنتظر الفرصة السانحة لاسترداده كاملاً وإخراج المسلمين منه، هذا في الوقت الذي كان فيه المغرب معرضاً للفتن والخلافات ويعاني محنة سياسية ودينية، على غرار الأندلس، وقد تحكمت فيه طوائف متعددة أو دويلات الطوائف. مما يشير إلى أنه في حال نجاح الممالك المسيحية في السيطرة على الأندلس، فإنها بلا شك، ستعبر مضيق جبل طارق، لتكمل احتلالها للمغرب، بعد أن أثبتت وقائع التاريخ، أن من يسيطر على إحدى العدوتين: المغرب والأندلس، يحلم سريعاً بالسيطرة على العدوة الأخرى.

لذلك، كان من حسن حظ الأندلس والمغرب معاً، وقد انقسما دويلات وطوائف، أن خرجت قوة فتية نشأت على الرباط في تربية عسكرية ودينية عرفت باسم «المرابطين»، ودعامتها قبيلة لمتونة التي وحدت قبائل صنهاجة البربر في صحراء شنقيط (موريتانيا اليوم)، لتنطلق منها نحو توحيد المغرب، وتؤسس مراكش عاصمة له سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠م. ثم عبرت المضيق بقيادة يوسف بن تاشفين، بناءً لطلب أهل الأندلس بعد عقد مؤتمر قرطبة، نتيجة خطر الفونسو السادس ملك قشتالة الذي دخل طليطلة في مستهل صفر ٤٧٨ هـ/ ٢٥ أيار ١٠٨٥ م، مهدداً اشبيلية وبطليوس وسرقسطة، لتحل به الهزيمة على يد يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة في ١٢ رجب ٤٧٩ هـ/ ٢٣

تشرين الأول ١٠٨٦ م، وليبدأ بعدها توحيد الأندلس وإنهاء عصر ملوك الطوائف، وجعله ولاية تابعة للمغرب.

١ ـ قيام دولة المرابطين في المغرب وتاسيس العاصمة مراكش (٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠م)

ينتمي المرابطون إلى صنهاجة أقوى قبائل البربر الكبرى(١) وأمنعها، رغم اعتقاد البعض بأصلهم العربي الذي يعود إلى حمير اليمانية(٢). وقد استقرت صنهاجة في صحراء شنقيط (موريتانيا اليوم)، حيث توزعت فروعها، وأكبرها ثلاثة: لمتونة في الشمال، ومسوفة في الجنوب، وكدالة قرب ساحل المحيط الأطلسي.

وأطلق على قبائل صنهاجة إسم «الملثمين» لاستخدامهم اللثام، ولعلهم أخذوا هذه العادة عن زنوج أفريقيا المجاورين الذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة عنهم(٣). وقيل أنهم كانوا يتلثمون لشدة الحر(٤).

وكان الملثمون من القبائل الوثنية(٥)، لم يعتنقوا الإسلام إلا بعد الفتح العربي الإسلامي للأندلس(٦)، وذلك عن طريق الحملات العسكرية والتجار

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص ١٥٢.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص ٩٠.
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٧٥.

(٣) André Julien: Histoire du l'Afrique du Nord, P. 77.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين، مادة لثم، ص ٣١٩.

(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص ١٨١.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٩٩.

(٦) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ٦ ص ١١٠.

المسلمين الذين يعبرون بلادهم. ومع ذلك لم يتغلغل الإسلام عميقاً في نفوسهم، فاستمروا قبائل متفرقة، إلى أن تحققت الوحدة السياسية والدينية على يد الزعيم السياسي الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي، والزعيم الديني الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي.

لقد هال يحيى بن إبراهيم الكدالي أمير قبيلة كدالة، ما وصل إليه قومه من الجهل والتخلف، فخرج لأداء فريضة الحج سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م[(١)]، ثم أخذ يطوف بعدها طلباً للعلم وبحثاً عن فقيه يعود به لهداية قومه وإصلاحهم. والتقى في القيروان، بأحد علماء المالكية، وهو الفقيه أبو عمران الفاسي[(٢)] الذي ينتسب إلى بني عفجوم البربر، وإن كان البعض ينسبه إلى قبيلة قريش العربية، فأحاله على أحد تلامذته في أقصى المغرب، وهو الفقيه وجاج بن زولو اللمطي أو «محمد وكاك»[(٣)]، وكان مقيماً في دار بناها بمدينة نفيس، سماها «دار المرابطين»[(٤)]. فأرسل معه عبد الله بن ياسين الجزولي الذي تحول إلى الزعيم الديني، وهو يفقه الملثمين في أمور الإسلام على مذهب الإمام مالك، منذ دخوله ديار كدالة سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م. وأوشك أن ييأس بعد تآمر عليه الأمراء والأشراف، رغم تعلق الفقراء وعامة الناس به. ولكن الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي شجعه على الثبات، مقترحاً عليه أن يرابطا معاً في جزيرة داخل الحوض الأدنى لنهر السنغال، قرب مملكة غانة الوثنية، مما

---

(١) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٩٩.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص ٣٧٤.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢٢٦.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص ١٨٢.

(٤) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ٩٩.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٤ ص ٨.

يشجع على الجهاد. وبدأت المرابطة في الجزيرة، سنة ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ م، بسبعة أشخاص[١] بينهم الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي ويحيى بن عمر اللمتوني، ليرتفع العدد سريعاً إلى الألف[٢] من أشراف صنهاجة، وسمّاهم المرابطين، نسبة إلى رباطه في الجزيرة.

وقد أنشأ عبد الله بن ياسين مذهباً خاصاً به، استند في أحكامه إلى الشريعة الإسلامية ومذهب الإمام مالك بن أنس الذي يقوم على الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتزام أحكام الدين في جميع الأمور، وإقامة الحدود وجباية الأموال. لكنه تجاوز رأي الإمام مالك، في ما يختص بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عندما لجأ إلى السيف وجنَّد شعباً بأسره لتحقيق هذا المبدأ عن طريق القوة.

أمر عبد الله بن ياسين، ببدء توحيد قبائل صنهاجة بالقوة العسكرية، فقاد الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي ثلاثة آلاف مرابط[٣]، وهاجم قبيلته كدالة التي أذعنت وأسلمت إسلاماً صحيحاً سنة ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٢ م، في حين بايعته قبيلة لمتونة على الكتاب والسنّة، ثم أخضع قبيلة مسوفة. وبذلك توحدت قبائل صنهاجة، وأصبحت قوة كبرى دعامتها المرابطون الذين نشأوا في تربية عسكرية ودينية.

وبوفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م، اختار الفقيه عبد الله بن ياسين، بعد مشاورة المرابطين، الأمير يحيى بن عمر اللمتوني الذي ما لبث أن استشهد في القتال أثناء الهجوم العنيف الذي شنته

---

(١) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ١٠٠.
(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٧٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٧٩.

قبيلة كدالة سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م، فاختار عبدالله بن ياسين مكانه أخاه الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني.

وبذلك انتقلت الزعامة السياسية والعسكرية من قبيلة كدالة إلى قبيلة لمتونة، وبعد أن كان لقب المرابطين يطلق على رجال قبيلة كدالة، أعلن الزعيم الديني عبد الله بن ياسين أن المرابطين هم اللمتونيون. وبالفعل، تزعمت قبيلة لمتونة مهمة الجهاد في المغرب والأندلس، وصار إسمها مرادفاً لكلمة المرابطين[١]، في حين عاد بنو كدالة إلى ساحل المحيط الأطلسي ليتزعموا المعارضة ضد المرابطين. مما يعني أن لقب المرابطين يبدأ عملياً، منذ أن تولت لمتونة زعامة صنهاجة، وهو لقب يمنحه الزعيم لأتباعه بمعناه المجازي، أي المجاهدين في سبيل الله المميزين بشدة الصبر وحسن البلاء[٢].

كانت المرحلة الثانية، تقتضي من المرابطين خروجهم من صحراء شنقيط لتوحيد المغرب الذي كان يعاني محنة سياسية ودينية، وتحكمت فيه طوائف متعددة أو دويلات الطوائف، على غرار الأندلس، انحصرت في أربع، أقواها دويلة برغواطة، من البربر، التي نشأت في إقليم تامسنا (الشاوية اليوم)، واتخذت ديناً مستقلاً عن الإسلام، دخلته التأثيرات اليهودية إلى جانب التأثيرات الإسلامية. وزاد خطر برغواطة عندما تعاونت مع دويلة أخرى من البربر تمثلها قبائل غمارة التي تسكن جبال الريف في الشمال، وقد انحرف عدد كبير من أفرادها عن الإسلام[٣]. لذلك أصبحت برغواطة بنظر المسلمين

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ١٦٧.
(٢) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ١١.
(٣) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ١٩٠.
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص ٢١٦.

من المجوس المنحرفين عن الإسلام، ويتوجب قتالها. وفي الجنوب، انتشرت قوة ثالثة من الشيعة في بلاد السوس وقاعدتها تارودانت، وعرفوا باسم «البجليين» نسبة إلى أمهم بجلة بنت هناءة بن مالك بن فهم الأزدي، وهم بطن من بُهثة العدنانية[1]، وكانوا أعداء للمذهب السنّي في المغرب، ويقيم اليهود وبعض العناصر الوثنية بجوارهم[2]. أما القوة الرابعة فهي الدويلات التي حكمتها القبائل الزناتية، مثل سلا وتادلا ويحكمهما بنو يفرن، وفاس وأغمات ويحكمهما بنو مغراوة، وسجلماسة ويحكمها بنو خزرون، وكانت تمثل القوة الشرعية الحاكمة في المغرب على المذهب السنِّي، وتجاهد ضد برغواطة دون أن تتمكن من القضاء عليها. فحل محلها «المرابطون» في تنفيذ هذه المهمة، عندما خرجوا من الصحراء بقيادة زعيمهم الديني عبد الله بن ياسين، وقائدهم العسكري أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي جعل على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني[3]، ليتابع الفتح شمالاً وجنوباً. فاستشهد الزعيم الديني عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩م وهو يقاتل ضد برغواطة، فآلت الزعامة الدينية والعسكرية إلى أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي تابع الجهاد ضد برغواطة. وكان قد اختار أغمات عاصمة مؤقتة بعد مقتل أميرها لقوت المغراوي، وزواجه من أرملته زينب بنت إسحاق النفزاوية، قبل أن يؤسس عاصمة جديدة هي مراكش سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠م[4].

أما يوسف بن تاشفين، فقد حقق انتصارات كبيرة على غمارة، ودخل فاس صلحاً سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣م، ثم دخلها للمرة الثانية عنوة يوم الخميس

---

(١) القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ١٧١.
(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ١٦١.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٨٣.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ١٠٢.
(٤) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٥، ٦.

٢ جمادى الثانية ٤٦٢ هـ/ ١٨ آذار ١٠٦٩م[١]، بعد أن انقلب عليه الزناتيون. وتم له فتح البلاد من الريف إلى طنجة سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م[٢]. وفي تلك الأثناء، كان أبو بكر بن عمر يوطد الأمن في الصحراء ويزيل الخلاف بين قومه، ثم عاد إلى المغرب الأقصى لمتابعة الفتح، فترامت إليه أخبار إبن عمه يوسف بن تاشفين وقوة جيوشه التي بلغت مائة ألف عند دخوله فاس عنوة، وإقدام أمراء المغرب وشيوخ القبائل على مبايعته بالإمارة. وعندما التقى به، أيقن من قوته العسكرية الكبيرة ومحاولته الاستبداد بالحكم، فاتخذ قراراً شجاعاً وجريئاً حتى لا تقع الحرب الأهلية بين المرابطين، فقلد ابن عمه إمارة المغرب، في حين توجه بنفسه للجهاد ضد الوثنيين في مملكة غانا سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م[٣]، تاركاً زوجته وأهله وبلاده، وهو يبحث عن الشهادة في المعارك، وطلّق زوجته زينب بنت إسحاق النفزاوية بعد ثلاثة أشهر من زواجه بها[٤]، وطلب من يوسف بن تاشفين أن يتزوجها. وبالفعل استشهد سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧م، بعد أن سقطت مملكة غانا وانتشر الإسلام بين أهلها[٥]، لتقوم مكانها مملكة مالي الإسلامية. بينما أصبح يوسف بن تاشفين الحاكم الفعلي لدولة المرابطين في المغرب، متخذاً ألقاب السلطنة مثل أمير المسلمين وناصر

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٩١.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢٣٣.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ٢ ص ٢٧.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص ١٨٥.
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٩٠.

(٣) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ١١.

(٤) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ١٠٣.

(٥) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٧.

الدين مطلع سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣ م[١]، وتصرف على غرار الأتابكة وسلاطين الأيوبيين في المشرق العربي الإسلامي، فأحاط ملكه بسياج شرعي، عندما دعا للخليفة العباسي في بغداد الذي قلده بدوره حكم المغرب وما يفتحه من بلاد الأعداء. ومع ذلك فإنه لم يجرؤ على نقش إسمه على النقود إلا سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م، أي منذ استشهاد الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني الحاكم الشرعي للبلاد وهو يجاهد في مملكة غانا.

وحرصت دولة المرابطين على سياسة المذهب الواحد، وهو المذهب المالكي، مما يحفظ للمغرب وحدته الدينية، على غرار الأندلس منذ أيام هشام بن عبد الرحمن. وأصبح المغرب وحدة سياسية ودينية قوية، في الوقت الذي كان فيه الأندلس منقسماً تحت حكم ملوك الطوائف وتجاورهم الممالك المسيحية التي اتبعت بدورها سياسة المذهب الديني الواحد، باعتبارها ثغراً للمسيحية، فاقتصرت على المذهب الكاثوليكي.

وكان يوسف بن تاشفين، قد أتم فتح بلاد المغرب الأقصى، وبنى أسطولاً بحرياً مكّنه من احتلال طنجة سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م ومليلة سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ م وسبتة سنة ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م[٢]، وهي الثغور الشمالية المطلة على مضيق جبل طارق. كما ضم المغرب الأوسط إلى دولته، وأكمل بناء العاصمة مراكش، مما جعل البعض يعزي إليه تأسيسها[٣]، رغم أن المؤسس هو أبو بكر بن عمر. علماً أن يوسف بن تاشفين هو المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين التي وطد أركانها، دون إغفال الدور الذي لعبه الزعيم السياسي

(١) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ١٨، ١٩.
(٢) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ١١١.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٨٩.
مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٢٠٨.

الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي ومن بعده الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ثم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني، إلى جانب الزعيم الديني عبد الله بن ياسين.

وبذلك، أصبح مضيق جبل طارق، هو ما يفصل دولة المرابطين في المغرب، عن الأندلس الذي أصبح على شفير السقوط بيد الفونسو السادس ملك قشتالة، منذ دخوله طليطلة في مستهل صفر ٤٧٨ هـ/ ٢٥ أيار ١٠٨٥ م وتهديده إشبيلية وبطليوس وسرقسطة. فعقد مؤتمر قرطبة، وطلب أهل الأندلس النجدة من يوسف بن تاشفين، فعبر المضيق وانتصر في معركة الزلاقة في ١٢ رجب ٤٧٩ هـ/ ٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦م، فكانت بداية توحيد الأندلس وجعله ولاية تابعة للمغرب.

٢ ـ الفونسو السادس يحتل طليطلة ويهدد اشبيلية وبطليوس وسرقسطة (مستهل صفر ٤٧٨ هـ/ ٢٥ أيار ١٠٨٥م)

نجح الفونسو السادس ملك قشتالة، في توحيد جهود مملكتي قشتالة وليون، وبسط نفوذه على الممالك المسيحية في الشمال، بمساندة فرنسا[١]. فقد كانت زوجته كونستانس تنتمي إلى آل كابيه ملوك فرنسا[٢]، ومعها بعض الرهبان الفرنسيين اتباع دير كلوني للآباء البندكتيين، يحثونه على قتال المسلمين والقضاء عليهم لاسترداد الأندلس، في الوقت الذي كانت فيه تعيش عصر ملوك الطوائف، وتعاني من الضعف السياسي والاجتماعي، نتيجة تعدد الخلافة بتعدد ملوك الطوائف، وتصادم مصالحها لقرب المسافات بينها، مما جعل الفتنة والحروب الداخلية لا تتوقف. حتى أن بعض ملوك الطوائف، أخذوا يستعينون بالملك الفونسو السادس لحل الخلافات بينهم، وهم لا

(١) Fray justo de Urbel: Sancho el Mayor de Navarra, P. 279.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، جـ ١ ص ١٣٩.

يدرون أن هذا الملك يتحين الفرصة، بعد توحيده المماليك المسيحية، لبسط نفوذه الكامل على الأندلس، وطرد المسلمين منها.

فأثناء النزاع بين دولة بني عبّاد في اشبيلية ودولة بني زيري في غرناطة، لم يتورع باديس بن حبوس الصنهاجي ملك غرناطة، عن إقامة حلف مع الملك الفونسو السادس، قبل أن يغزو دولة المعتمد بن عباد ويستولى على أحد الحصون. ثم تنقلب الأدوار، عندما يتحالف المعتمد بن عباد مع الفونسو السادس ويدفع له خمسين ألف دينار لمساعدته في دخول غرناطة. وبذلك توسعت دولة بني عباد، لكنها أصبحت عاجزة عن مواجهة قوة الممالك المسيحية في الشمال.

وأثناء الصراع بين الأخوة في دولة بني هود في سرقسطة، إثر وفاة سليمان «المستعين»، توجه أحمد بن سليمان «المقتدر» إلى الممالك المسيحية(١) لمساعدته في التخلص من أخيه يوسف «المظفر» الذي يسيطر على لاردة. ونتيجة لذلك، أصبح يدفع الجزية إلى الفونسو السادس ملك قشتالة وإلى ملكي أراغون وناقار.

وفي خضم هذه الظروف، حقق الملك الفونسو السادس نصراً كبيراً، باحتلاله طليطلة، قاعدة الثغر الأدنى للأندلس، في مستهل صفر ٤٧٨ هـ/ ٢٥ أيار ١٠٨٥م(٢). علماً أن مملكة طليطلة تحتل رقعة واسعة وسط الأندلس، تمتد على طول خط وادي التاجو من الشرق إلى الغرب بما فيه مدينة سالم Medinaceli ووادي الحجارة Guadalajara ومجريط Madrid وقونكة Cuonca وطلبيرة Talavera . . . وتتوسطها طليطلة، عاصمة القوط القديمة، فوق ربوة مرتفعة.

يعتبر سقوط طليطلة، التي أطلق عليها اسم «قشتالة الجديدة» Castilla la

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٣ ص ٢٢٣.
(٢) الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ص ٣١.

Nueva، كارثة كبرى على المسلمين، لأنها شطرت الأندلس إلى قسمين. وجعلت الفونسو السادس يتخذ اللقب اللاتيني Imprateur totius Hispaniae[1] أي «الإمبراطور على جميع إسبانيا»، كما اتخذ اللقب العربي «أمير الملتين»، والمقصود الملتين الإسلامية والمسيحية.

وخيل لبعض أهل الأندلس أن بلادهم على وشك السقوط، وأن العالم على وشك الزوال، وبات المسلمون في حال من الضياع التام، وقد وصل التخاذل ببعض ملوك الطوائف إلى حد إرسال الرسل لتهنئة الملك الفونسو السادس على احتلاله طليطلة. ولم يتورع ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية عن الذهاب بنفسه للتهنئة وهو يحمل الهدايا النفيسة، فجازاه الفونسو بأن أعطاه قرداً احتقاراً له، بينما اعتبر ابن رزين هذا العطاء مفخرة له في الوقت الذي أقفرت فيه طليطلة، بعد أن هجرها أهلها جماعات إلى بطليوس التي كان عليها المتوكل بن الأفطس، هرباً من الاضطهاد وحفاظاً على دينهم.

ظن الفونسو السادس أن سقوط جميع دويلات الطوائف أصبح وشيكاً، إثر سقوط طليطلة وتمكنه من السيطرة على المدن والقرى ما بين وادي الحجارة إلى طلبيرة وأعمال شنتمرية كلها[2]. وحاول استغلال نصره باذلال أقوى دويلات الطوائف، وهما إشبيلية وبطليوس. فأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع دفع الجزية، لكن المتوكل رفض التهديد ورد عليه بكتاب يعبر عن موقف شجاع[3]. ثم أرسل قاضيه الفقيه أبو الوليد الباجي يحث ملوك الطوائف على الوحدة، دون جدوى، لذلك استنجد بأمير المرابطين في

---

(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٦٣.
(٢) سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين، ص ٦١.
(٣) نص الكتاب في: مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٢١.

المغرب يوسف بن تاشفين[١].

ثم اتجه الفونسو السادس، نحو المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وقرطبة، وهو أقوى ملوك الطوائف. ورغم أن المعتمد كان يدفع الجزية دفعاً لأذى الفونسو، إلا أن هذا الأخير حاول إذلاله، عندما أرسل بعثة لأخذ الجزية، تضم خمسمائة فارس برئاسة اليهودي ابن شالب[٢] الذي أغلظ في قوله للمعتمد: «لا تعتقدني بسيطاً لأقبل مثل هذه العملة المزيفة؟ لا آخذ إلا الذهب الصافي، والسنة القادمة ستكون مدناً»[٣]. وكان رد المعتمد سريعاً، فأمر بقتل جميع أفراد البعثة وصلب اليهودي ابن شالب[٤]، مما أثار الفونسو السادس الذي حاصر اشبيلية ثلاثة أيام. ثم رحل عنها نحو سرقسطة وحاصرها، وهي تمثل الثغر الأعلى، بينما طليطلة تمثل الثغر الأدنى، وأصبح سقوطها يعني سقوط الثغرين معاً، وفتح أبواب الأندلس أمامه. لذلك تحرك زعماء قرطبة وعقدوا مؤتمراً لإنقاذ الأندلس.

٣ ـ مؤتمر قرطبة وطلب النجدة من أمير المرابطين يوسف بن تاشفين

يعتبر مؤتمر قرطبة أول إجماع شعبي، للخروج بالأندلس من محنتها، بزعامة الفقهاء ملاذ الأمة في الظروف الصعبة[٥]، بعدما وجدوا المدينة بدون حامية، وهي على وشك السقوط على غرار سائر مدن الأندلس. واقترح المؤتمرون على قاضي المدينة عبيد الله بن أدهم (توفي سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣م)

---

(١) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٢٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٠ ص ١٤٢.

(٣) Reinhart Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne T3, P. 119.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ ٥ ص ٢٨.

(٥) سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين، ص ٦٧.

الاستنجاد بعرب أفريقية من بني هلال وسليم، ثم عدلوا عن هذه الفكرة خوفاً من أن يفعل هؤلاء العرب في الأندلس مثلما فعلوه في إفريقية من خراب وتدمير[١]. فأشار عليهم القاضي الاستنجاد بالمرابطين لأنهم أصلح منهم وأقرب إلى الأندلس، ففوضوه باستدعاء الأمير يوسف بن تاشفين[٢].

وتزعم المعتمد بن عباد الفريق الذي يطالب بنجدة المرابطين، وقال جملته المشهورة: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[٣]، إشارة إلى تفضيله حكم الأمير يوسف بن تاشفين الإسلامي على حكم الفونسو السادس المسيحي، في حال ضياع ملكه في اشبيلية وقرطبة. لذلك اتصل بالمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس وعبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة، فتشكلت البعثة الرسمية التي ضمت قاضي قرطبة عبد الله بن أدهم وقاضي بطليوس ابن مقانا وقاضي غرناطة ابن القليعي، وأرسل معهم وزيره أبا بكر بن زيدون[٤] لإبرام العقود. وحملت البعثة رسالة مكتوبة من المعتمد بن عباد في اشبيلية إلى يوسف بن تاشفين في مراكش، مؤرخة في يوم الجمعة غرة جمادى الأولى ٤٧٩ هـ/ ١٤ آب ١٠٨٦م[٥]، في الوقت الذي كثرت فيه الكتب والوفود التي بعث بها أهل الأندلس وفقهاؤها إلى أمير المرابطين، في طلب النجدة والمساعدة[٦]. ورد يوسف بن تاشفين بكتاب[٧] يعبر فيه عن استعداده

---

(١) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ٢ ص ٣٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٠ ص ١٥٢.
(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٨٥.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٦ ص ٩١.
(٤) Reinhart Dosy: Histoire des Musulmans d'Espagne. T3 P. 124.
(٥) نص الرسالة: مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٢٨، ٢٩.
(٦) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ١١٤.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٨٧.
(٧) نص الكتاب في: مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٣٢، ٣٣.

التام لنصرته وحمايته بعد تسليمه الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، ليعبر بحملته في الوقت المناسب. فجمع المعتمد بن عباد القاضي والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وبعث إلى ابنه الراضي بن المعتمد يأمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين[1].

وهكذا أصبحت الظروف مؤاتية لعبور أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، ونصرة أهل الأندلس، فحقق نصراً كبيراً في معركة الزلاقة.

٤ ـ معركة الزلاقة

(الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ/٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦م)

استنفر أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، سائر قواته للجهاد، ثم انتقل إلى سبتة حيث اجتمع له نحو سبعة آلاف فارس[2] عبر بهم مضيق جبل طارق نحو الجزيرة الخضراء. كما أمر بعبور الجمال بأعداد كثيرة[3] لاستخدامها في القتال، وذلك في ربيع الأول ٤٧٩ هـ/ حزيران ١٠٨٦م.

وتذكرنا عملية العبور هذه، بحملة طارق بن زياد التي استهلت فتح الأندلس سنة ٥٩٢ هـ/ ٧١١ م، فبدا يوسف بن تاشفين وكأنه يعيد فتح الأندلس مجدداً بعد مرور ٣٨٧ سنة هجرية/ ٣٧٥ سنة ميلادية. فقد قام بتحصين الجزيرة الخضراء، على غرار ما فعله طارق بن زياد، لتكون القاعدة التي ينطلق منها في زحفه وتوفر له الحماية في حال انسحابه.

ثم سار يوسف بن تاشفين نحو اشبيلية، فانضم إليه المعتمد بن عباد وفرسانه، ثم انضم إليه عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة في جريشه على

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢٨٢.
(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٣١.
(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٨٧.

طريق بطليوس، وأخوه تميم صاحب مالقة. أما المعتصم بن صمادح صاحب المرية، فأرسل إبنه معز الدولة على رأس فرقة صغيرة، واعتذر عن الحضور بنفسه خشية العدو الذي يجاوره في حصن ليبط، ولعله آثر البقاء في المرية بانتظار معرفة نتيجة المعركة(١). ثم استقبلهم المتوكل بن الأفطس في ضواحي بطليوس في غرب الأندلس(٢)، فبلغ جيش المسلمين من مرابطين وأندلسيين حوالى أربعة وعشرين ألفاً من الفرسان ومثلهم من المشاة(٣)، عسكروا شمال بطليوس، بين ضفتي وادي آنه ووادي التاجو.

أما الملك الفونسو السادس، فقد رفع الحصار عن سرقسطة، واتجه نحو طليطلة، ليستنفر الممالك المسيحية في تحالف «صليبي»، سبق بعشر سنوات، الحملة الصليبية الأولى على المشرق العربي الإسلامي سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م. فلبى النداء الفرسان في جنوب فرنسا حيث ولايات لانجدوك وجويانة وبرجونية وبروفانس، وانضم إليه سانشو راميرز ملك أراغون والكونت برنجار ريموند صاحب بنبلونة، إضافة إلى قوات جليقية وليون وبسكونيه واشتوريش وقشتالة(٤).

وتأكيداً لهذا التحالف الصليبي، سار الرهبان والقساوسة في المقدمة وهم يحملون الأناجيل والصلبان، لتأجيج الحماس الديني، وقد بلغ جيشه أكثر من ستين ألفاً(٥)، وقيل حوالى ثمانين ألفاً، بينهم أربعون ألف فارس(٦)،

---

(١) Ambrosio Huici Miranda: La invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, T9, P. 40.

(٢) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٣٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص ٨٠.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ ٥ ص ٢٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٠ ص ١٥٣.

ونزل بهم في فحص الزلاقة، أي Sacralias باللاتينية، وتعرف اليوم باسم Sagrajas. وقسم الجيش إلى جيشين، فأسند قيادة الأول إلى رودريك، وتولى بنفسه قيادة الجيش الثاني، وقد أصابه الغرور عندما قال: «بهذا الجيش ألقى محمد وآل محمد والأنس والجن والملائكة»[١].

وكان جيش تحالف دويلات الأندلس، يعسكر في مواجهة معسكر جيش تحالف الممالك المسيحية، بينما عسكر جيش المرابطين وراء جيش حلفائه على بعد أميال منهم. وفي الزلاقة، انقض جيش رودريك على معسكر الأندلسيين، يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ/ ٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦م[٢]، فقاوموا ببسالة بعد أن أرسل يوسف بن تاشفين فرقة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة، فاضطر رودريك للتراجع. هذا في الوقت الذي زحف فيه جيش الفونسو السادس، مما أثار الذعر في قلوب الأندلسيين الذين لاذوا بالفرار نحو أسوار بطليوس، في حين صمد المعتمد بن عباد وقوته الاشبيلية[٣] ومعه فرسان المرابطين بقيادة داود بن عائشة، وأيقن الفونسو السادس من النصر ظناً منه أنه يواجه جيش المسلمين بأسره. وفجأة يتغير الموقف، عندما أرسل يوسف بن تاشفين القائد سير بن أبي بكر على رأس فرقة العبيد فقويت معنويات المسلمين، قبل أن يزحف بحرسه المرابطي تتقدمه الجمال لحماية الجنود من سهام الأعداء، وأصوات الطبول الهائلة. وقام بحركة التفاف سريعة باغت معها معسكر الأعداء من الخلف وأحرق الخيام وأباد الحراس، مما أحدث بلبلة وأصواتاً في صفوف فرسان الفونسو السادس الذي أصيب بطعنة خنجر مقوس في فخذه على يد أحد عبيد يوسف بن تاشفين[٤]، والخناجر

---

(١) ان الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٠ ص ١٥٣ .
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٢٤٣.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٩٥.
(٤) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٤٨.

المقوسة هي من الأسلحة الجديدة التي لم يعرفها الإسبان من قبل. وتمكن الفونسو السادس من الفرار تحت جنح الظلام مع خمسمائة من فرسانه، بعد أن حلت به الهزيمة، واحتمى بطليطلة ومعه مائة فارس، في حين مات الباقون في الطريق[١].

تعتبر معركة الزلاقة، من المعارك الفاصلة في التاريخ، على غرار اليرموك والقادسية[٢]، فقد غيرت مجرى حرب الاسترداد التي خطط لها الملك الفونسو السادس وأوشك أن يسيطر على سرقسطة بعد طليطلة. لكن سرقسطة لم تسقط، وتراجع عنها ليلقي الهزيمة الساحقة في الزلاقة، حيث قاتل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، ويعود له الفضل الأول والأخير في إحراز النصر الذي رفع من شأن المرابطين وصوّرهم في صورة المجاهدين المدافعين عن الإسلام. في حين سقطت مكانة ملوك الطوائف في نظر أهل الأندلس، باستثناء المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية الذي أبدى بطولة رائعة وأصيب بجراح بليغة حتى قيل أن ثلاث أفراس عقرت تحته[٣]، فكان الوحيد بين ملوك طوائف الأندلس يجاهد فعلاً حتى لا تسقط الأندلس. ومع ذلك، فلولا المرابطون لضاعت الأندلس، وقد أدرك يوسف بن تاشفين عدم جدوى ملوك الطوائف الذين لم يتخلوا عن انقساماتهم وأنانياتهم، فقرر إسقاطهم وتوحيد الأندلس لضمها إلى المغرب.

عاد يوسف بن تاشفين فجأة إلى المغرب، تاركاً في الأندلس ثلاثة آلاف

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٩٦.

(٢) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٤٧.

(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٩٢.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٦ ص ٩٩.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ١٧٧.

من المرابطين بقيادة سير بن أبي بكر[1]، وتحت تصرف المعتمد بن عباد، وذلك دون أن يستغل انتصاره في الزلاقة أو يسترجع طليطلة ويوحد الأندلس. والحقيقة، أنه رغم النصر الكبير، خسر يوسف بن تاشفين قسماً كبيراً من جيشه الذي أصبح بحاجة إلى إعادة تأسيس قبل أي مواجهة مع الممالك المسيحية. كما أن الأوضاع الداخلية المضطربة في المغرب، وخشيته من محاولة قد يقوم بها ابن عمه والي سجلماسة إبراهيم لاسترداد حق أبيه الأمير الشرعي السابق للمرابطين أبي بكر بن عمر، جعلته يعجل أيضاً بالعودة إلى مراكش. وبوفاة ابن عمه[2]، استقر له حكم المغرب دون أن ينازعه فيها أحد.

وبعد سنة واحدة على هزيمته في الزلاقة، تمكن الفونسو السادس من استعادة قوته العسكرية، وقد أدرك مناعة غرب الأندلس حيث تقوم أقوى دول الطوائف اشبيلية وبطليوس، وتدعمهما فرقة من المرابطين تضم ثلاثة آلاف. لذلك اتجه لاسترداد شرق الأندلس وتحديداً بلنسية، واستولى على حصن ليبط ومنه أخذ يشن الغارات المدمرة على المرية ومرسية ولورقة، فبدت مناطق شرق الأندلس وكأنها على شفير السقوط بيده.

لذلك استنجد أهل الأندلس وفقهاؤه مجدداً بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين الذي استقبل المعتمد بن عباد في المعمورة (المهدية اليوم) داخل المغرب[3]، فأطلعه على أحوال الأندلس المتردية. فعبر يوسف بن تاشفين مضيق جبل طارق إلى الجزيرة الخضراء سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م، وحاصر حصن ليبط دون جدوى، بسبب مناعة الحصن من جهة، وعودة المنازعات بين ملوك الطوائف من جهة ثانية، فاضطر لرفع الحصار، وعاد إلى المغرب سنة ٤٨٢ هـ/

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٦ ص ١٠٤.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٩٥.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٩٨.

(٣) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ١١٩.

١٠٨٩ م، وأخذ يستعد للقضاء على ملوك الطوائف في الأندلس.

٥ ـ ضم غرناطة ومالقة (رجب ٤٨٣ هـ/أيلول ١٠٩٠م)

عبر يوسف بن تاشفين مضيق جبل طارق إلى الجزيرة الخضراء للمرة الثالثة، سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م، وذلك دون أن يطلب أهل الأندلس نجدته هذه المرة، وفوض جميع الأمور العسكرية إلى القائد سير بن أبي بكر[(١)]. وحاصر مدينة طليطلة التي يحتمي فيها الفونسو السادس، ولمناعة حصونها، اتجه نحو غرناطة التي يحكمها الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس بن زيري الصنهاجي الذي اشتهر بالخيانة والتحالف مع الأعداء، وحاصرها مدة شهرين حتى فتح الأمير عبد الله أبواب المدينة وخرج مستسلماً ليوسف بن تاشفين، كما استسلم شقيقه تميم بن بلكين في مالقة بدون قتال، وذلك في رجب ٤٨٣ هـ/ أيلول ١٠٩٠ م، وتم نفيهما إلى المغرب[(٢)]. ومما يذكر أن من جملة المجوهرات التي صادرها المرابطون من الأمير عبد الله في غرناطة، سبحة فيها أربعمائة جوهرة قيمة كل منها مائة ألف دينار[(٣)].

٦ ـ ضم قرطبة واشبيلية
(٢ صفر ـ ٢٢ رجب ٤٨٤ هـ/ ٢٦ آذار ـ ١٣ أيلول ١٠٩١)

كان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وقرطبة، يطمع في ضم غرناطة إلى مملكته، كما وعده يوسف بن تاشفين. وأدرك سريعاً أن أمير المرابطين بوعده

(١) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٥٢، الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ص ٣٢.
(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ١٠٠.
السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ١٢٠.
(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٦ ص ١٠٧.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٩٦.

هذا، أراد أن يبقيه خارج الصراع فلا يتحالف مع أمير غرناطة ضد المرابطين.

ومن المستغرب، أن يتغير موقف المعتمد بن عباد، فلا يتورع مع المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس عن التحالف مع الملك الفونسو السادس، بعد فشلهما في دعوة أمراء الأندلس للتحالف ضد يوسف بن تاشفين، وأخذا يستعدان للمواجهة[١].

أدرك يوسف بن تاشفين، أهمية سقوط مملكة المعتمد بن عباد أقوى ملوك الطوائف، مما يعني استسلام بقية الدويلات دون قتال. فسقطت طريف في ذي القعدة ٤٨٣ هـ/كانون الثاني ١٠٩١م، وتلتها مدينة جيان[٢]. ثم سقطت قرطبة يوم الأربعاء ٢ صفر ٤٨٤ هـ/٢٦ آذار ١٠٩١ م[٣]، وذلك بعد حصار استمر ثلاثة أشهر، واحتز رأس حاكمها الفتح بن المعتمد مع الوزيرين ابن زيدون وابن بكر[٤]. في حين سقطت قرمونة يوم السبت ١٧ ربيع الأول ٤٨٤ هـ/ ٩ أيار ١٠٩١ م.

وعندما حوصرت اشبيلية، استعان المعتمد بن عباد بالملك الفونسو السادس الذي أرسل جيشاً كبيراً، يضم أربعين ألفاً من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان. فاختار القائد سير بن أبي بكر عشرة آلاف فارس من أشد المرابطين بقيادة إبراهيم بن إسحاق اللمتوني، وحلت الهزيمة بالفونسو السادس على

---

(١) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٥٢.
(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ١٠٠.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك العرب وتاريخ مدينة فاس، ص ١٠٠.
عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٤٠.
(٤) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ١ ص ١٢٠.
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص

مقربة من حصن المدور. وبذلك أصبح المعتمد بن عباد وحيداً، فدافع ببطولة واستمات في القتال، ثم استسلم في النهاية، وسقطت اشبيلية في يوم الأحد ٢٧ رجب ٤٨٤ هـ/ ١٤ أيلول ١٠٩١ م[١]. ثم استسلم ولدا المعتمد بن عباد، وهما المعتد الذي كان يحكم مرتلة والراضي في رندة[٢].

وكانت نهاية المعتمد بن عباد مأسوية، عندما كبله المرابطون بالحديد، ونقلته السفينة مع أهله إلى المغرب، حيث ألقي بهم في سجن أغمات، وعوملوا معاملة قاسية. وكان عزاء المعتمد الوحيد داخل السجن قصائد الشعر[٣]، إلى أن توفي يوم الأحد ١١ شوال ٤٨٨ هـ/ ١٤ تشرين الأول ١٠٩٥ م.

يعتبر البعض إساءة معاملة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد، نقطة سوداء في تاريخه الناصع البياض. لكن ما يبرر هذه المعاملة هو ما فعله المعتمد من التحالف مع الفونسو السادس، واستماتته في القتال مع أولاده وهو يدرك أن الهزيمة ستحل به، كما حلت بحليفه القشتالي. وهذا ما أدى إلى خسارة المرابطين وأهل الأندلس معاً ضحايا كثيرة في صراع داخلي، كان يتوجب تجاوزه لتوحيد الأندلس والقضاء على خطر الممالك المسيحية.

٧ ـ ضم المرية (٢٢ ربيع الأول ٤٨٤ هـ/ ١٥ أيار ١٠٩١م)

كانت المرية ثالث دويلة من دويلات الطوائف في الأندلس، تسقط بيد

.١٨٧

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٤١.
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ١٠١.
الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ص ٣٢.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٤٣.
Reinhart Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne. T3, P. 150.

المرابطين، وكان حاكمها المعتصم بن صمادح مريضاً فتوفي، أثناء حصارها، في ٢٢ ربيع الأول ٤٨٤ هـ/ ١٥ أيار ١٠٩١ م[١]. واستسلمت المدينة، في حين فر إبنه معز الدولة بماله وعياله إلى بجاية (في افريقية) لدى المنصور بن الناصر بن حماد[٢].

٨ ـ ضم مرسية ووبرة ودانية وشاطبة (٤٨٤ ـ ٤٨٥ هـ/ ١٠٩١ ـ ١٠٩٢م)

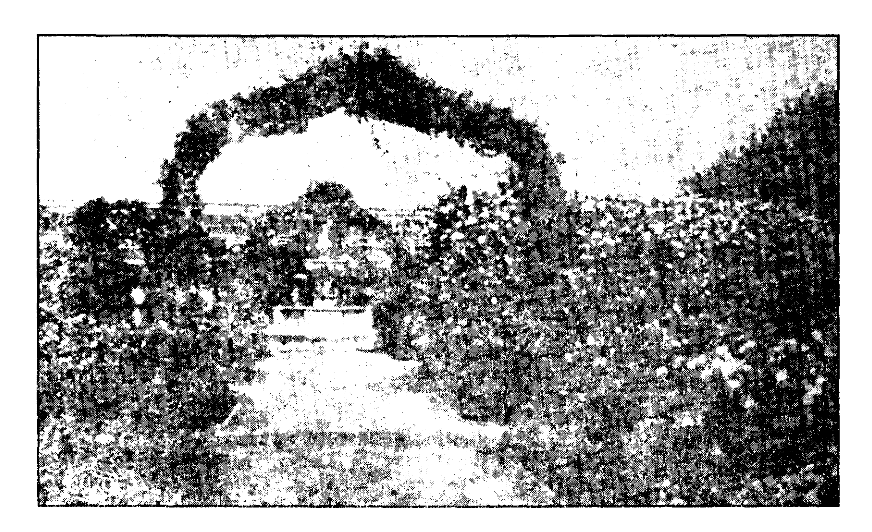
عين يوسف بن تاشفين إبنه محمد بن عائشة والياً على شرق الأندلس لحمايته من اعتداءات الممالك المسيحية، فدخل مرسية وخلع حاكمها ابن رشيق في شوال ٤٨٤ هـ/ تشرين الثاني ١٠٩١م، ثم دخل وبرة في شعبان ٤٨٥ هـ/ أيلول ١٠٩٢ م. كما دخل دانية بعد فرار حاكمها ابن مجاهد العامري، وشاطبة بعد فرار حاكمها ابن منقذ[٣].

٩ ـ ضم بلنسية (٣ رمضان ٤٨٥ هـ/ ٨ تشرين الأول ١٠٩٢م)

كان ابن الفرج يحكم بلنسية، كصنيعة لرودريك «السيد» أو «الكمبيادور»، مما أثار أهل المدينة وقاضيها جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري[٤] الذي اتصل بمحمد بن عائشة لمساعدته. وبالفعل دخل المرابطون إلى المدينة، وتولى القاضي الحكم في ٣ رمضان ٤٨٥ هـ/ ٨ تشرين الأول ١٠٩٢ م.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ ٥ ص ٣٢.
(٢) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٦٧.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ١٠١.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٠١.



بلنسية

شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ ٣ ص ٤٨

ثم اختلف القاضي مع المرابطين، فاستغل رودريك «الكمبيادور» الفرصة، وحاصر المدينة عشرين شهراً حتى سقطت بيده يوم الخميس ٢٨ جمادى الأولى ٤٨٧ هـ/ ١٥ حزيران ١٠٩٤م، وأعدم القاضي جعفر بن عبد الله بن حجاف حرقاً بالنار في ربيع الثاني ٤٨٩ هـ/ نيسان ١٠٩٥م.

واستمرت بلنسية بيد رودريك «الكمبيادور» حتى وفاته سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م، فحاولت زوجته شيمان الصمود فيها في مواجهة حملات المرابطين المستمرة، حتى تمكن الأمير المرابطي مزدلي من استعادة بلنسية في رمضان ٤٩٥ هـ/ حزيران ١١٠٢م.

وبعد ضم بلنسية، تابع المرابطون تقدمهم في شرق الأندلس، فدخلوا البونت سنة ٤٩٦ هـ/ ١١٠٣م، ثم شنتمرية في يوم الأربعاء ٨ رجب ٤٩٧ هـ/ ٦ نيسان ١١٠٤م، وخلعوا حاكمها عبد الملك بن رزين[1].

١٠ ـ ضم بطليوس (صفر ٤٨٧ هـ/آذار ١٠٩٤م)

كان المتوكل عمر بن الأفطس صاحب بطليوس، على غرار المعتمد بن عباد، استنجد بالمرابطين لمواجهة خطر الفونسو السادس الذي حلت به الهزيمة في معركة الزلاقة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ/ ٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦ م. فإذا بدوره ينقلب على المرابطين، ويتحالف مع الفونسو السادس، ويتنازل له عن ثلاث مدن هامة هي: أشبونة وشنترين وشنتمرية الغرب[2].

لذلك تحرك القائد المرابطي سير بن أبي بكر، وحاصر بطليوس دون أن يتحرك الفونسو السادس لمساعدة حليفه. وتحرك أهل بطليوس الناقمين على المتوكل، وفتحوا أبواب المدينة، فدخلها المرابطون في صفر ٤٨٧ هـ/ آذار

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٤ ص ٣١.

(٢) سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين، ص ١٤٢.

١٠٩٤ م. وتم إعدام المتوكل وولديه الفضل والعباس[١]، في حين فر الإبن الثالث «المنصور» لينضم إلى الممالك المسيحية ويقاتل المسلمين، مما يشير إلى ارتداده عن الإسلام. ثم تمكن القائد سير من استرداد ثغر اشبونة وشنترين[٢].



بعض أسوار مدينة بطليوس

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، وآثارهم في الأندلس، ص ٤٤٥

---

(١) Reinhart Dosy: Histoire des Musulmans d'Espagne. T3, P. 152.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص ١٨٧.

ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ ٧ ص ١٢٣.

١١ ـ معركة كنشرة (السبت ٤ رمضان ٤٩٠ هـ/ ١٠ آب ١٠٩٧م)

كانت المعارك في شرق الأندلس، تدور سجالاً بين المرابطين وجيش الفونسو السادس ومعه رودريك «الكمبيادور». ولم يحسم الوضع هناك، رغم النصر الذي حققه المرابطون في معركة كنشرة، وهي بلدة من أعمال طليطلة.

فعندما احتل الفونس السادس قلعة أيوب وحاصر مدينة سالم، أرسل يوسف بن تاشفين حملة لتأديبه بقيادة ابن الحاج، فالتقيا في كنشرة Consuegra يوم السبت ٤ رمضان ٤٩٠ هـ/ ١٠ آب ١٠٩٧ م[١]. وحلت الهزيمة بالفونس السادس الذي فرَّ إلى طليطلة، فحاصرها ابن الحاج سبعة أيام، ثم رحل عنها، مكتفياً بالنصر الذي حققه. وقد اعتبرت معركة كنشرة أهم معركة بعد الزلاقة، حيث فقد فيها رودريك «الكمبيادور»، إبنه دييغو Diego. ودخل رودريك في الأدب الفرنسي عندما خصص له الشاعر الفرنسي كورني Corneille رواية تحمل الإسم الذي غلب عليه، وهو «السيد» Le Cid.

وبذلك توحدت الأندلس، لتتحول إلى ولاية تابعة للمغرب وعاصمته مراكش.

١٢ ـ الأندلس ولاية تابعة للمغرب وعاصمته مراكش

عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، للمرة الرابعة والأخيرة، في سنة ٤٩٦ هـ/ ١١٠٣م، والبلاد قد توحدت، لتعود كما كانت زمن الخلافة الأموية. وقصد العاصمة قرطبة هذه المرة بصحبة إبنيه تميم وعلي، ليعلن فيها ولاية العهد لولده الأصغر علي، فبايعه القادة والولاة والفقهاء في ذي الحجة ٤٩٦ هـ/ أيلول ١١٠٣ [٢]. علماً أن نص ولاية العهد كتب قبل سنة من عبور

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٦٤.
(٢) سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين، ص ١٤٢.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ

يوسف بن تاشفين للمرة الأخيرة إلى الأندلس، أي في سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠٢م[1]. وهذا الأمر يدل على مدى تقدير يوسف بن تاشفين لأهل الأندلس التي تحولت إلى ولاية تابعة للمغرب وعاصمته مراكش، يرابط فيها جيش مرابطي يضم سبعة عشر ألف فارس منهم ستة آلاف في اشبيلية وألف في قرطبة وألف في غرناطة وأربعة آلاف في الشرق وخمسة آلاف في الثغور المتاخمة للممالك المسيحية[2].

وبقيت سرقسطة وحدها خارج سلطة يوسف بن تاشفين، وكان يحكمها المستعين بن هود بالإتفاق معه.

١٣ ـ ضعف دولة المرابطين وعودة دول الطوائف في الأندلس

أخذ الضعف يدب في جسم دولة المرابطين، بعد وفاة يوسف بن تاشفين في يوم الإثنين ٣ محرم ٥٠٠ هـ/ ٣ أيلول ١١٠٦م، وتولي إبنه أبو الحسن علي حكم المغرب والأندلس طيلة ثلاث وثلاثين سنة، استهلها بضم سرقسطة عهد عبد الملك عماد الدولة، يوم الثلاثاء ١٠ ذي القعدة ٥٠٣ هـ/ ٣١ أيار ١١١٠م. وتعتبر سرقسطة آخر دويلات الطوائف في الأندلس التي بقيت خارج سلطة المرابطين، لكنها ما لبثت أن سقطت سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨م، لتضيع نهائياً من أيدي المسلمين، على غرار طليطلة، وذلك بسبب انحياز عبد الملك عماد الدولة إلى جانب ملك قشتالة.

ومع تولي الحفيد تاشفين بن علي حكم دولة المرابطين طيلة ست سنوات (٥٣٣ ـ ٥٣٩ هـ/ ١١٣٨ ـ ١١٤٤ م)، توالت عليه الهزائم في المغرب على يد عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين. فاستغل الطامعون في الحكم داخل الأندلس هذه الفرصة، وثاروا، فعادت الأندلس مجدداً إلى دويلات

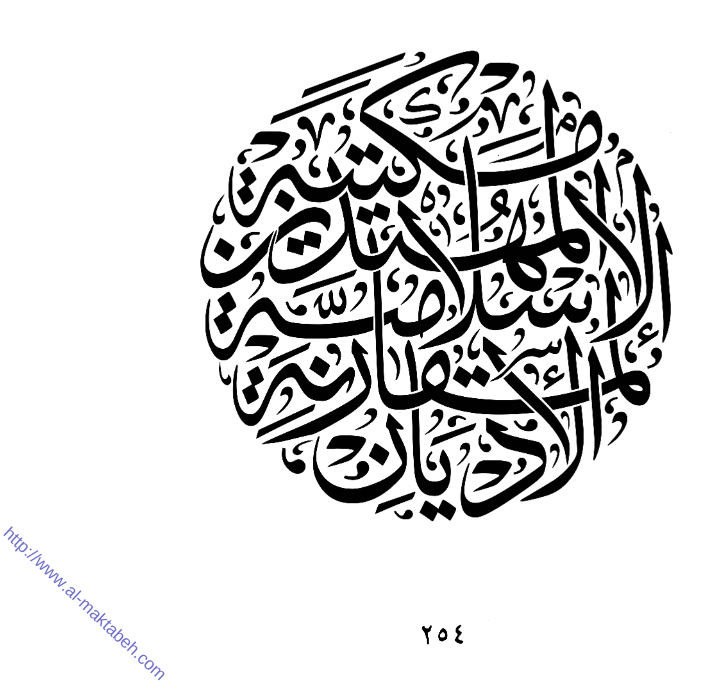
مدينة فاس، ص ١٠١.

(١) نص ولاية العهد:

مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٥٦، ٥٧.

للطوائف، لا يتورع حكامها عن الاستعانة بالممالك المسيحية ضد حكم المرابطين. وأبرز هؤلاء الثوار، خمسة من القضاة، هم: القاضي ابن حمدين في قرطبة، والقاضي أبو الحكم بن حسون في مالقة، والقاضي أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز في بلنسية، والقاضي أبو أمية أحمد بن عاصم في أوريولة، والقاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزى في جيان. هذا إضافة إلى لبيد بن عبد الله في شنترين، وأبو القمر بن غروز في شريش، ومحمد بن علي الحجام في بطليوس، ومحمد بن المنذر في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، وابن عنان في يابرة.

وأوشكت الأندلس، أن تضيع، وتسقط بيد الممالك المسيحية، لولا دخول الموحدين إلى مراكش سنة ٥٤١ هـ/١١٤٧ م، ليخلفوا دولة المرابطين في المغرب، ويعيدوا فتح الأندلس للمرة الثالثة على يد عبد المؤمن بن علي، كما فتحها المرابطون في المرة الثانية على يد يوسف بن تاشفين، والعرب المسلمون في المرة الأولى التي ارتبطت باسم موسى بن نصير وطارق بن زياد.



الفصل الحادي عشر

الموحدون

(٥٤١ ـ ٦٤٢ هـ/ ١١٤٧ ـ ١٢٤٤م)

كادت الأندلس أن تضيع مجدداً مع ضعف دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين في المغرب، نتيجة تداخل الثورات والحركات الاستقلالية فيها ضد الموحدين. في الوقت الذي بدأت فيه الممالك المسيحية الاستعداد لخوض حرب الاسترداد، وهي حرب غير بعيدة عن الطابع الصليبي، تيمناً بالحروب الصليبية المستمرة في المشرق العربي الإسلامي منذ الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦م.

وبذلك أعاد الموحدون فتح الأندلس سنة ٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م، وأخذوا يجاهدون ضد الممالك المسيحية، فاستشهد قائدهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في شنترين ٧ رجب ٥٨٠ هـ/ ١٤ تشرين الأول ١١٨٤ م، وتحول أبو يوسف يعقوب المنصور إلى بطل الأرك سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م، على غرار صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس في المشرق العربي الإسلامي سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م. علماً أن بطل الأرك قدم المساعدة العسكرية البحرية إلى بطل حطين سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢م، لمواجهة الحملة الصليبية الثالثة وإجبار رتشرد الأول ملك إنكلترا على العودة إلى بلاده.

وما لبثت الممالك المسيحية أن استعادت وحدتها في تحالف صليبي، وأنزلت الهزيمة بالموحدين في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م. ثم أخذت تحقق الانتصارات في حرب الاسترداد، حتى استردت الأندلس

بأسرها، باستثناء غرناطة، مع سقوط اشبيلية حاضرة الموحدين سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م.

١ ـ عبد المؤمن بن علي وإعادة فتح الأندلس (٥٤١ ـ ٥٥٨ هـ/١١٤٦ـ ١١٦٣م)

بعد إسقاطه دولة المرابطين في المغرب، ودخوله العاصمة مراكش، عرف الخليفة الموحدي عبد المؤمن علي، كيف ينتهز فرصة إعلان أهل الأندلس للثورات، وفي طليعتها ثورة علي بن عيسى بن ميمون الذي استقل في قادس وأعلن الطاعة للموحدين سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م، وكذلك فعل أحمد بن قسي الصوفي في مرتلة، وهو الذي شجع الموحدين على إعادة فتح الأندلس.

أرسل عبد المؤمن بن علي، ثلاثة جيوش لفتح الأندلس سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م، الأول بقياد براز بن محمد المسوفي[١]، والثاني بقيادة موسى بن سعيد، والثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. ودخل الموحدون المدن التالية: شريش، رندة، لبلة، مرتلة، شلب، باجة، بطليوس، اشبيلية، ومالقة. وما لبثت معظم هذه المدن أن ارتدت عن طاعة الموحدين، فأرسل عبد المؤمن بن علي جيشاً بقيادة يوسف بن سليمان، فنزل في اشبيلية التي اتخذها الموحدون عاصمة لهم، وبسط نفوذه على: بطليوس، شنتمرية، قادس، شلب، لبلة، والمرية ولكن ملك قشتالة الفونس السابع ريموند الملقب بالسليطين[٢]، استولى على المرية يوم الجمعة ٢٠ جمادى الأولى ٥٤٢ هـ/ ١٧ تشرين الأولى ١١٤٧ م، ولم يستردها الموحدون إلا بعد وفاته سنة ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧م[٣]. وكانت قرطبة وجيان قد دخلتا في طاعة الموحدين سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م، وهي السنة التي منيت فيها بالفشل الحملة الصليبية الثانية على

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٧، ٥٨.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ٦ ص ٤٨٠.
(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٦ ص ٢٠٧.

دمشق، وكانت بقيادة ملكين من أقوى ملوك الغرب الأوروبي، هما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك المانيا[1] مما يشير إلى النجاح في مواجهة الصليبيين سواء في المشرق العربي أو في الأندلس، حيث ما لبثت غرناطة أن أعلنت الطاعة للموحدين سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م.

وفي سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م، أمر عبد المؤمن بن علي ببناء جبل الفتح وتحصينه، فأشرف على البناء يعيش المهندس[2]، وعبر الخليفة الموحدي من طنجة إلى الأندلس، ونزل في جبل الفتح. ثم أمر بفتح غرب الأندلس، ودخل الموحدون حصن أطرفكش من أحواز بطليوس، وباجة ويابرة وحصن القصر. وتمت لهم السيطرة على الأندلس سنة ٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م، عندما عبر عبد المؤمن بن علي مرة أخرى إلى جبل الفتح، إثر هزيمة إبنه أبو سعيد عثمان الذي كان يتولى غرناطة، وإبنه الآخر أبو يعقوب يوسف الذي كان يتولى اشبيلية، وذلك على يد ابن همشك وابن مردنيش اللذين تحالفا مع الممالك المسيحية، وأجبر الأول على الفرار إلى محلته بحدرة، والثاني إلى شقورة، ودخل الموحدون إلى غرناطة.

وبعد سنتين من عودته إلى سلا في المغرب، توفي عبد المؤمن بن علي في يوم الأحد ٢٧ جمادى الثانية ٥٥٨ هـ/ ٢ حزيران ١١٦٢ م، ودفن في تينملل بجوار قبر المهدي[3].

٢ ـ أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واستشهاده في شنترين (صفر ٥٥٨ ـ ٧ رجب ٥٨٠ هـ/كانون الثاني ١١٦٣ ـ ١٤ تشرين الأول ١١٨٤م)

بوفاة الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، تولى الخلافة إبنه الأكبر

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، جـ ١ ص ٢٧٩.

(٢) عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص ١١٣ ـ ١١٥.

(٣) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ١١٨.

محمد لمدة خمسة وأربعين يوماً فقط، ثم عزل عنها لأمور أخذت عليه، وبويع الابن الآخر أبو يعقوب يوسف في صفر ٥٥٨ هـ/كانون الثاني ١١٦٣م، وكان والياً على اشبيلية من قبل أبيه، ودرس على كثير من علماء الأندلس التي تأثر بحضارتها، ووجدها أرضاً خصبة للجهاد في سبيل الله. لذلك عبر إليها مرتين، فجاهد طيلة خمس سنوات في المرة الأولى (٥٦٦ ـ ٥٧١ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٧٥ م)، وطيلة سنتين في المرة الثانية (٥٧٩ ـ ٥٨٠ هـ/ ١١٨٣ ـ ١١٨٤ م)، لتنتهي خلافته باستشهاده في شنترين، يوم ٧ رجب ٥٨٠ هـ/ ١٤ تشرين الأول ١١٨٤ م.

كانت الأندلس، تعيش في فترة تشرذم وانقسام أكثر خطورة مما حدث عند دخول المرابطين إليها، نتيجة تداخل الثورات والحركات الاستقلالية فيها ضد الموحدين، مع تحركات الممالك المسيحية، وبخاصة قشتالة وأراغون وليون، في محاولة جدية لاسترداد الأندلس. وهي محاولة غير بعيدة عن الطابع الصليبي، تصدى لها الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، وهو يوطد نفوذه بتكريس توحيد المغرب والأندلس، تمهيداً للانقضاض على الممالك المسيحية التي أضيف إليها مملكة جديدة هي البرتغال في غرب الأندلس. هذا في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين الأيوبي يؤسس الدولة الأيوبية في مصر (٥٦٤ ـ ٥٧٠ هـ/ ١١٦٩ ـ ١١٧٤ م) ويوحد مصر وبلاد الشام (٥٧٠ ـ ٥٨١ هـ/ ١١٧٤ ـ ١١٨٥ م)، تمهيداً للجهاد ضد الصليبيين واسترداد القدس.

ففي صفر ٥٦٦ هـ/ تشرين الأول ١١٧٠ م، أعلن الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بدء الجهاد، وعبر مضيق جبل طارق إلى الأندلس في جيش كبير، لينزل في العاصمة اشبيلية. وذلك رداً على محاولة ملك البرتغال الفونسو هنريكي الملقب بـ«إبن الريف» في المصادر العربية، في الاستيلاء على ترجالة ويابرة وحصني شبرينه وحلمانية قرب بطليوس غرب الأندلس. وكان أهل بطليوس قد هزموا البرتغاليين قبيل عبور أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس.

انتصر الموحدون على ابن مردنيش في معركة الجلاب، فتراجع إلى مرسية وتحصن بها، فحاصره الموحدون، وما لبث أن توفي في رجب ٥٦٧ هـ/ آذار ١١٧٢ م، فأعلن إبنه هلال الطاعة للموحدين(١) الذين تسلموا منه حصون بلنسية ومرسية ومربيطر وشاطبة ودانية ولقنت وشقر ولورقة وقرطاجنة.

وفي سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م، خرج أبو يعقوب يوسف من اشبيلية إلى جنوب البرتغال، فحاصر شنترين، ثم استولى على البكرك. وفي سنتي ٥٦٨ و٥٦٩ هـ/ ١١٧٢ و١١٧٣ م، هاجم مملكة قشتالة وخرَّب المدن والقرى، وحاصر حصن وبذة قرب أقليش(٢)، ولم يفلح في الاستيلاء على باجة. ثم غادر الأندلس نحو مراكش سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م، بعد أن شهدت اشبيلية نهضة عمرانية على يديه.

وأثناء غياب الخليفة الموحدي عن الأندلس (٥٧١ ـ ٥٧٨ هـ/ ١١٧٥ ـ ١١٨٢ م)، تمكنت قشتالة بمساعدة الفونسو الثاني ملك أراغون من السيطرة على قونكة(٣)، وكانت مملكة البرتغال أشد الممالك المسيحية خطراً على الأندلس، مما دفع أبو يعقوب يوسف للعودة إلى الأندلس، على رأس جيش كبير، وهدفه الرئيسي مملكة البرتغال في غرب الأندلس، واسترداد شنترين التي استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م، لذلك ضرب حولها الحصار، دون أن يتمكن من فتحها لشدة مناعتها وتحصينها. فاستعد للتوجه نحو لشبونة، لكن البرتغاليين رصدوا تحركات جيشه وهو يعبر نهر التاجو، ولم يبق إلا فرقة من الجنود ترابط قرب خباء الخليفة الموحدي، فأغاروا بقيادة سانشو، فلم تصمد هذه الفرقة أمامهم. وأصيب أبو يعقوب يوسف بسهم

---

(١) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، ص ١٢١.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٤٩.
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٦ ص ٥٠٠.

(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٦٠٧.

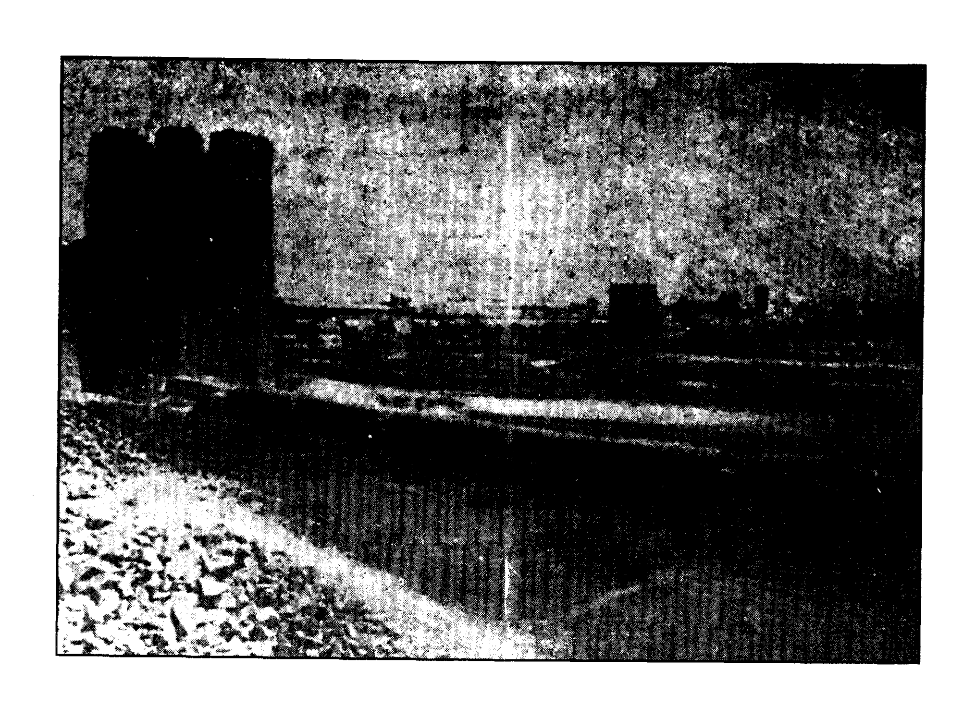
مسموم، وتوفي بعد ليلتين في يوم الأحد ٧ رجب ٥٨٠ هـ/ ١٤ تشرين الأول ١١٨٤ م، وحملت جثته إلى اشبيلية ومنها إلى تينملل، حيث دفن بجوار قبر أبيه المؤمن بن علي[١]. وتولى خلافة الموحدين إبنه أبو يوسف يعقوب المنصور.

ويبقى جامع القصبة الكبير في اشبيلية[٢]، من أهم إنجازات أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. فقد شرع في بنائه في رمضان ٥٦٧ هـ/ أيار ١١٧٢م، بعد هدم الدور داخل القصبة، وشارك في البناء والزخارف، البناؤون من اشبيلية في الأندلس ومن مراكش وفاس في المغرب. وهو يقارب جامع قرطبة في اتساعه، وكانت عقوده تستند على دعائم من الآجر. أما صومعة الجامع المعروفة اليوم باسم لاجيرالدا La Giralda، فقد بناها أبو يوسف يعقوب المنصور بعد انتصاره في معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م، وهي تتألف من طابقين، وتشرف على فحص اشبيلية وما يحيط بها من المنطقة التي تحمل إسم «الشرف».

كما أقام أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، في عاصمته الأندلسية إشبيلية، الكثير من المنشآت الرائعة إلى جانب جامع القصبة الكبير، مثل: الجسر، والزلالق للسور، والأرصفة على الوادي الكبير[٣].

---

(١) يوسف إشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، جـ ١ ص ٣٢١.
(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٦١.
(٣) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، العصر الإسلامي، ص ٨٥٤ ـ ٨٥٨.



برج مثمن الشكل في قرطبة زمن الموحدين

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤٣٩

٣ ـ أبو يوسف يعقوب «المنصور» بطل الأرك (٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/ ١١٨٤ ـ ١١٩٩م)

تطورت، العلاقات الأيوبية ـ الموحدية، عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي في مصر وبلاد الشام وأبي يوسف يعقوب المنصور في المغرب والأندلس، لتنعكس إيجاباً في مواجهة الصليبيين، وبخاصة إبان الحملة الصليبية الثالثة على عكا (٥٨٥ ـ ٥٨٨ هـ/ ١١٨٩ ـ ١١٩٢م).

لقد فشلت الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق غرضها[١]، وهو استرداد بيت المقدس، لأنها تجردت من القيادة الموحدة وواجهت المشرق العربي الإسلامي موحداً هذه المرة، على يد صلاح الدين الأيوبي الذي أدرك أهمية تحقيق الوحدة بين مصر وبلاد الشام تحت راية الخلافة العباسية، وتحت رايته العسكرية المباشرة. لكنه لم يكتف بذلك، فلتدعيم وحدة الصف العربي الإسلامي، راسل الخليفة الموحدي أبا يوسف يعقوب المنصور، لإدراكه أهمية موقع المغرب الذي يجاور الغرب الأوروبي المنطلق الرئيسي لفرسان الصليبيين وآلتهم العسكرية. وبالفعل أكد المغرب العربي أنه البوابة الغربية للوطن العربي الإسلامي بأسره، فهو يتحكم بمضيق جبل طارق الذي تحول إلى سد منيع في وجه أساطيل الصليبيين الآتية من إنكلترا وشمال فرنسا، مما دفع الصليبيين للاعتماد على أساطيل المدن الإيطالية بعد اضطرارهم لقطع المسافات الطويلة عن طريق البر قبل ركوب هذه الأساطيل. فقد كانت قوة الأسطول المغربي من الكفاية مما وفرّ له الفعالية التامة في غرب حوض البحر المتوسط[٢]، وهذا ما كان يفتقر إليه صلاح الدين الأيوبي في شرق البحر المتوسط، حيث لم يكن أسطوله البحري سيد الموقف التام في ساحل مصر

(١) المرجع نفسه، ص ٨٠٠ .

(٢) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ ٢ ص ٤٠٣، ٤٠٤.

وبلاد الشام[١].

الحقيقة أن مضيق جبل طارق أغلق في وجه الحملات الصليبية، منذ أن اتخذه عبد المؤمن بن علي الموحدي قاعدة رئيسية للجهاد في الأندلس، وهذا ما جعل الحملة الإنكليزية بقيادة الملك رتشرد قلب الأسد تتحرك نحو فرنسا لتركب البحر من مرسيليا في الجنوب، في حين تحركت الحملة الفرنسية بقيادة الملك فيليب أغسطس من مدينة جنوى الإيطالية. وهذا الأمر يشير إلى وحدة الموقف في مواجهة الصليبيين، حيث تطورت العلاقات الأيوبية ـ الموحدية[٢] في الفترة (٥٨٥ ـ ٥٨٨ هـ/ ١١٨٩ ـ ١١٩٢م)، أي إبان الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة. ففي الوقت الذي كان فيه صلاح الدين الأيوبي يواجه أعظم قادة غرب أوروبا في ساحل بلاد الشام، كان الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور يواجه ملك البرتغال «دون بيدرو بن الفونسو هنريكي» في الأندلس سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م[٣]. وقد تمكن الملك البرتغالي، بمساعدة أساطيل الصليبيين الذين قدموا من إنكلترا وألمانيا ورسوا قبالة أشبونة سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٩٥م، من دخول مدينة شلب[٤]. كما أغار البرتغاليون على غرب الأندلس واستولوا على باجة ويابرة، لكن الخليفة أبا يوسف يعقوب المنصور عاد واسترد شلب سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م، وتمكن من إلحاق الهزيمة بالحلف الثلاثي البرتغالي ـ الألماني ـ الإنكليزي في غرب الأندلس، واسترد باجة ويابرة وغيرها من المدن التي احتلت من قبل. أما في ساحل بلاد الشام، فقد تمكن الحلف الصليبي الثلاثي الإنكليزي ـ الألماني ـ الفرنسي من حصار عكا

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ ٦ ص ٥٢٦.
(٢) عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص ١٥٠.
(٣) سعد زغلول عبد الحميد: العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور. مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية، مجلد ٦ و٧ (١٩٥٨)، ص ٨٤ ـ ١٠٠.
(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ١٤٤.

مدة سنتين، ودخولها صلحاً في يوم الجمعة ١٧ جمادى الثانية ٥٨٧ هـ/ ١٢ تموز ١١٩١م. ثم نقض الصليبيون الاتفاق مع المسلمين، ليرتكبوا مجزرة يوم الثلاثاء ٢٧ رجب ٥٨٧ هـ/ ٢١ آب ١١٩١م، عندما مثلوا في ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين دفعة واحدة، مما شكل صفحة سوداء في تاريخ رتشرد الأول ملك إنكلترا، مقارنة مع ما فعله صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره في حطين وتحرير بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ/ ٢ تشرين الأول ١١٨٧م. فلما بلغ خبر مجزرة عكا إلى صلاح الدين بكى ولطم على رأسه. وتوالت هزائم المسلمين في ساحل بلاد الشام، فرابط صلاح الدين في بيت المقدس، وشارك مع أولاده والعلماء في نقل الحجارة لتحصين دفاعات المدينة[1] التي تعرضت لحصار الصليبيين. ولم يتمكن الأسطول المصري من إعادة السيطرة الإسلامية على الساحل الشامي، فأصبح صلاحَ الدين في وضع لا يحسد عليه، لذلك أرسل عبد الكريم بن منقذ في وفد إلى الخليفة أبي يعقوب المنصور في شعبان ٥٨٨ هـ/ آب ١١٩٢م، طالباً معونة الأسطول الموحدي في اعتراض سفن الصليبيين في البحر، ومنع الاتصال بين عكا وصور، وقد لبى أبو يعقوب المنصور هذا الطلب، فأعد مائة وثمانين سفينة[2]. وبوصول الإمدادات العسكرية من المغرب، والتي رافقها تطور الأحداث داخل إنكلترا حيث برزت سيطرة جون أخو رتشرد، تحسن موقع صلاح الدين الأيوبي، فآثر تلبية طلب رتشرد قلب الأسد، وتم عقد صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢م[3].

وإذا كان صلاح الدين الأيوبي الذي وحد مصر وبلاد الشام، هو بطل موقعة حطين التي حلت فيها الهزيمة بجيوش الصليبيين يوم الجمعة ٢٤ ربيع

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٨٠.
(٢) أحمد الحنبلي: شفاء القلوب، ص ١٧٣.
(٣) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ٢ ص ١٨٢.

الثاني ٥٨٣ هـ/ ٤ تموز ١١٨٧ م، فإن أبا يوسف يعقوب المنصور الذي وحد المغرب والأندلس هو بطل موقعة الأرك التي توج بها سياستة الجهادية بانتصاره الكبير على الفونسو الثامن ملك قشتالة سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥م. والأرك، هو موضع قريب من قلعة رباح على حدود مملكة قشتالة.

عرف أبو يوسف يعقوب المنصور، كيف يستغل ظروف العداء المستحكم بين الفونسو الثامن ملك قشتالة مع ملكي ليون ونبرة، في الوقت الذي أساء فيه الفونسو الثامن تقدير قوة الموحدين، لأنه كان واثقاً من النصر لدرجة إحضاره مسبقاً جماعة من التجار اليهود لشراء أسرى المسلمين. في حين كان أبو يوسف يعقوب المنصور ينظم جيشه ويخطط للمعركة، وهو يحث الجنود على القتال بطريقة الكر والفر، وهم يجيدون الرماية بالسهام، كما تمكن من استمالة بدرو فرناندس دى كاسترو، أو بيطرة بن فراندس في المصادر العربية، إلى جانبه(١)، وهو من ألد أعداء الفونسو الثامن الذي ما لبث أن فر من المعركة نحو طليطلة، تاركاً بقية جيشه محاصراً داخل حصن الأرك. فتدخل بدرو فرناندس الموالي للمسلمين، لرفع الحصار مقابل إطلاق قشتالة نظير عدد المحاصرين من أسرى المسلمين، أي خمسة آلاف، فوافق المنصور.

عاد أبو يوسف يعقوب المنصور إلى اشبيلية، فدخلها دخول الفاتحين يوم الأحد ٢٧ شعبان ٥٩١ هـ/ ٦ آب ١١٩٥م. وهذا ما شجعه على غزو طليطلة في السنة التالية ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦ م دون أن يتمكن من فتحها، مكتفياً بفتح بلازنسيا Plasencia التي أسسها الفونسو الثامن سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩م أي قبل سبع سنوات، وتخريب المناطق حول طلبيرة وطليطلة، ليعود إلى اشبيلية. ثم غزا طليطلة مرة أخرى ربيع سنة ٥٩٣ هـ/ ١١٩٧ م، وهو يخرب المزارع والمراكز العمرانية، وعاد إلى اشبيلية يوم الخميس أول شوال ٥٩٤ هـ/ ٦ آب

---

(١) عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص ١٥٢.

١١٩٨م، فاضطر ملك قشتالة لطلب الهدنة لمدة عشر سنوات.

وقد أشاد أهل الأندلس والمغرب بأبي يوسف يعقوب الموحدي بطل الأرك سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م، وراح الشعراء يمجدون انتصاره الكبير، على غرار ما فعله أهل المشرق العربي الإسلامي قبل ثماني سنوات، مع الناصر صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م. وإذا كان تحرير القدس على يد الناصر الأيوبي دافعاً لقيام الحملة الصليبية الثالثة على عكا، فإن انتصار الأرك على يد المنصور الموحدي كان دافعاً للبابا للضغط على الممالك المسيحية في شمال الأندلس وغربيها لتتجاوز الخلافات التي نشبت في أعقاب موقعة الأرك، تمهيداً لاسترداد الأندلس في حرب صليبية لم تسنح الفرصة لأبي يوسف يعقوب بأن يتصدى لها. لأن هذه الحرب بدأت بعد انقضاء أربع عشرة سنة على وفاته في مراكش يوم الجمعة ٢٢ ربيع الأول ٥٩٥ هـ/ ٢٢ كانون الثاني ١١٩٩ م، وكأن الصليبيين المحتشدين وراء ملك قشتالة، ينتظرون مثل هذه الفرصة، استعداداً لاسترداد الأندلس.

وإذا كان المسلمون في المشرق العربي الإسلامي، قد كرموا بطلهم الناصر صلاح الدين الأيوبي، ليدخل في قصص الأدب الشعبي، إلاّ إنهم ظلوا أوفياء للخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور، حتى زعم البعض أنه تنازل عن الحكم، وقضى بقية عمره في سهل البقاع[١]، فانتشر خبر وجود ضريح يعقوب في بلاد الشام بشكل عام[٢]، وفي سهل البقاع بشكل خاص[٣]، كما ذهب البعض إلى وجود هذا الضريح في بيروت[٤].

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٤ ص ٤٦ .
(٢) عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص ١٥٢.
(٣) ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في تاريخ أفريقية وتونس، ص ١٠٩.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس المغرب، جـ ٤ ص ١٩١.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ ٢ ص ٤٣١.

٤ ـ أبو عبد الله محمد الناصر وهزيمة الموحدين أمام التحالف الصليبي في العقاب (٥٩٥ ـ ٦١٠ هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢١٣م)

كانت موقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م هزيمة قاسية حلت بملك قشتالة الفونسو الثامن، فاضطر سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م لعقد هدنة مدتها عشر سنوات، كانت كافية لتحصين قلاع مملكته، وعقد المحالفات مع ملكي نبرة وأراغون، بضغط من البابوية التي أرادتها حرباً صليبية.

وبعد موقعة الأرك، أصبحت طليطلة وقونكة مهددتين بالسقوط على يد الموحدين. لذلك لعب أسقف طليطلة رودريغو خيمث دى رادا الدور الرئيسي في الدعوة إلى اتحاد الممالك المسيحية، والتحضير لحرب صليبية على غرار الحروب الصليبية التي عرفتها بلاد الشام ومصر، تشارك فيها فرنسا وإيطاليا وألمانيا والبرتغال.

وتحالفت الممالك المسيحية في جبهة واحدة برئاسة مملكة قشتالة، عندما شهدت مدينة وادي الحجارة سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م، عقد الهدنة بين الفونسو الثامن ملك قشتالة من جهة وبين كل من سانشو السابع ملك نبرة، ثم الفونسو ملك ليون من جهة ثانية. كما توسط الفونسو الثامن للوصول إلى اتفاق بين بدرو الثاني ملك أراغون وسانشو السابع ملك نبرة. وأعلن ملك البرتغال عن استعداده لدعم ملك قشتالة.

أعد أبو عبد الله محمد الناصر جيشاً كبيراً، وعبر إلى الأندلس في يوم الأربعاء ١٩ ذي القعدة ٦٠٧ هـ/ ٤ أيار ١٢١١م، فوصل اشبيلية. وقسّم هذا الجيش إلى خمس فرق، الأولى والثانية تضمان جند المغرب من العرب والبربر، والثالثة تضم جند الأندلس، والرابعة تضم المتطوعين، وجعل الموحدين فرقة. وبدأ الجهاد مطلع سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١م، دون أن يستمع إلى نصيحة الشيخ أبي محمد بن أبي حفص، بعدم خوض الحرب في مثل هذه

الظروف التي توحدت فيها الممالك المسيحية بدعم من البابوية، حيث سيواجه حرباً صليبية.

صحيح أن محمد الناصر، تمكن في البداية من حصار قلعتي اللج وشلبطرة التابعتين لمملكة قشتالة، ثم فتحهما سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١م، والعودة إلى اشبيلية، إلا أنه بعمله هذا جعل الفونسو الثامن ملك قشتالة يرسل الأسقف جيراردو إلى البابا إنوسنت الثالث الذي دعا إلى حملة صليبية واسعة النطاق. ففي مطلع سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م، اجتمع في طليطلة عاصمة قشتالة حشود هائلة من الصليبيين، توزعت على ثلاثة جيوش، الأول بقيادة الفونسو الثامن ملك قشتالة ومعه أسقف طليطلة رودريغو خمنث ويضم القشتاليين والليونيين والبرتغاليين وفرسان قلعة رباح وفرسان سانتياغو وفرسان الإسبتارية، والثاني بقيادة بدرو الثاني ملك أراغون ويضم الأرغونيين والقطالونيين وفرسان الداوية، أما الثالث فيضم مائة ألف بقيادة فارس قشتالة دون دييغو لوبيز دى هارو ومعه أساقفة فرنسا.

وبذلك خرجت الجيوش الصليبية من طليطلة في جبهة متماسكة، يوم الأربعاء ١٨ محرم ٦٠٩ هـ/ ٢٠ حزيران ١٢١٢ م، فسقطت ملجون ثم قلعة رباح. واستولى الفونسو الثامن على حصن الأرك، فثأر للهزيمة التي حلت به قبل ثماني عشرة سنة.

أما محمد الناصر، فخرج من اشبيلية في محرم ٦٠٩ هـ/ حزيران ١٢١٢م، على رأس جيش كبير غير متماسك، فمعظم الجنود غير مندفعين إلى القتال بسبب تقتيره عليهم. كما أنه أخطأ بقتله أبي الحجاج يوسف بن قادس بسبب تسليمه قلعة رباح لألفونسو الثامن[1]، مما أثار غضب فرقة جند

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٣٧.
(٢) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ص ٢٢٢.
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ

الأندلس، وبخاصة بعد عزل قادتهم وشنق بعضهم، وهم الذين يعرفون أكثر من غيرهم خطط الممالك المسيحية في القتال[1].

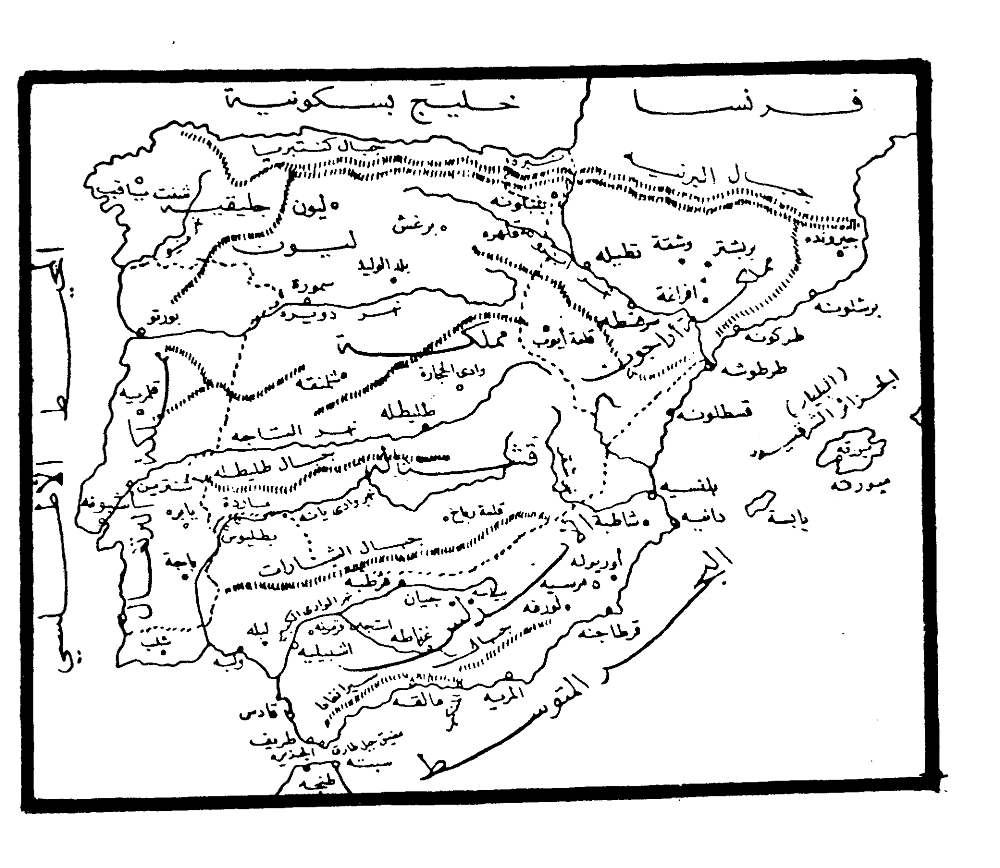
وهكذا بدأ الانقسام واضحاً بين الجنود المغاربة والأندلسيين، عندما عسكر أبو عبد الله محمد الناصر في فحص البلوط بين جيان وقلعة رباح، بينما عسكر الفونسو الثامن في وديان نافاس قرب بلدة تولوسا، لذلك أطلق الإسبان على هذه الموقعة إسم لاس نافاس دى تولوسا، في حين أطلق المؤرخون العرب إسم «العقاب» نسبة إلى حصن أموي قرب فحص البلوط.

دارت معركة العقاب يوم الثلاثاء ١٥ صفر ٦٠٩ هـ/١٧ تموز ١٢١٢ م، وتعتبر من أعنف المعارك التي أسفرت سريعاً عن انتصار تحالف الممالك المسيحية، وهي تشن حرباً صليبية، جعلت الخليفة الموحدي أبو عبد الله محمد الناصر يفرُّ مهزوماً[2] نحو اشبيلية، ثم يعبر مضيق جبل طارق نحو مراكش.

ثم احتجب أبو عبدالله محمد الناصر داخل قصره، طيلة سبعة أشهر، انتهت بوفاته يوم الخميس ٤ شعبان ٦١٠ هـ/١٩ كانون الأول ١٢١٣ م، في حين عاد الفونسو الثامن إلى طليطلة عاصمة مملكة قشتالة، مكتفياً بالاستيلاء على المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب، فدخلها بمواكب من الموسيقى والأناشيد. وبدأت فعلاً حرب استرداد الأندلس، مع بداية انهيار دولة الموحدين.

مدينة فاس، ص ١٥٧.

(١) مجهول: الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية.



الأندلس والممالك المسيحية في نهاية عصر الموحدين

٥ ـ سقوط الأندلس ما عدا غرناطة (٦١٠ ـ ٦٤٢ هـ/١٢١٣ ـ ١٢٤٤م)

تعتبر معركة العقاب في ١٥ صفر ٦٠٩ هـ/١٧ تموز ١٢١٢م، من المعارك الفاصلة في التاريخ، لأنها شهدت انهيار أمة عربية إسلامية داخل الأندلس، بعد حوالى خمسة قرون وأربع عشرة سنة هجرية/أربعة قرون وثمان وتسعين سنة ميلادية، على وجودها هناك منذ إنجاز الفتح سنة ٩٥ هـ/٧١٤م. وقد انهارت هذه الأمة في الأندلس مع بداية انهيار دولة الموحدين، منذ وفاة محمد الناصر في ٤ شعبان ٦١٠ هـ/١٩ كانون الأول ١٢١٣م. فقد جاء بعده خلفاء ضعاف، أولهم المستنصر بالله أبو يعقوب بن محمد الناصر الذي استمرت الثورات والفتن في عهده طيلة عشر سنوات، ليبدأ الصراع حول الخلافة الموحدية إثر وفاته سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣م، فتولى الخلافة عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن لمدة أشهر انتهت بمقتله، ليتولى الخلافة أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور الملقب بالعادل طيلة أربع سنوات انتهت بمقتله أيضاً سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٧م. ثم خلفه أبو العلاء ادريس الأول بن المنصور الملقب بالمأمون وقد بايعه أهل الأندلس، في حين بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر بالخلافة الموحدية في مراكش وتلقب بالمعتصم، وقام الصراع العنيف بين المأمون والمعتصم. ثم بين المأمون وأخيه أبي موسى الذي ثار في سبتة وتلقب بالمؤيد. وتحول المغرب ساحة للقتال بين الخلفاء الموحدين الضعاف. فبعد وفاة المعتضد بن المأمون سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م، تولى الخلافة المرتضى أبو حفص بن إسحاق، ثم خرج عليه أبو العلاء ادريس الثاني المعروف بأبي دبوس الذي انقرضت دولة الموحدين بمقتله سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩م، أمام أسوار مراكش التي دخلها بنو مرين.

كان من الطبيعي، أن تنتهز الممالك المسيحية، مثل هذه الفرصة التاريخية، التي انقسم معها المسلمون في المغرب والأندلس، نتيجة ضعف الدولة الموحدية التي تسير نحو نهايتها. فلم يفلح محمد بن يوسف بن هود

الجذامي «سيف الدولة» في إعادة توحيد الأندلس، رغم إنجازه توحيد شرق الأندلس كله، بما فيه مرسية وقرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية والجزيرة الخضراء وماردة. فقد وقف ضده الخليفة الموحدي المأمون وبعض زعماء الأندلس الطامعين في السلطة والنفوذ، فشهدت الأندلس حرباً أهلية بين المسلمين، هي الفتنة الثالثة والأخيرة في تاريخها، لأنها انتهت بضياعها على يد الممالك المسيحية التي اتحدت هذه المرة في جبهة واحدة، بينما انقسم المسلمون جبهات متعددة.

(أ) سقوط بياسة وأبدة (٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥م)

اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد في ظل الملك فرناندو الثالث الملقب بالقديس، فاستولى على بياسة وأبدة سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م.

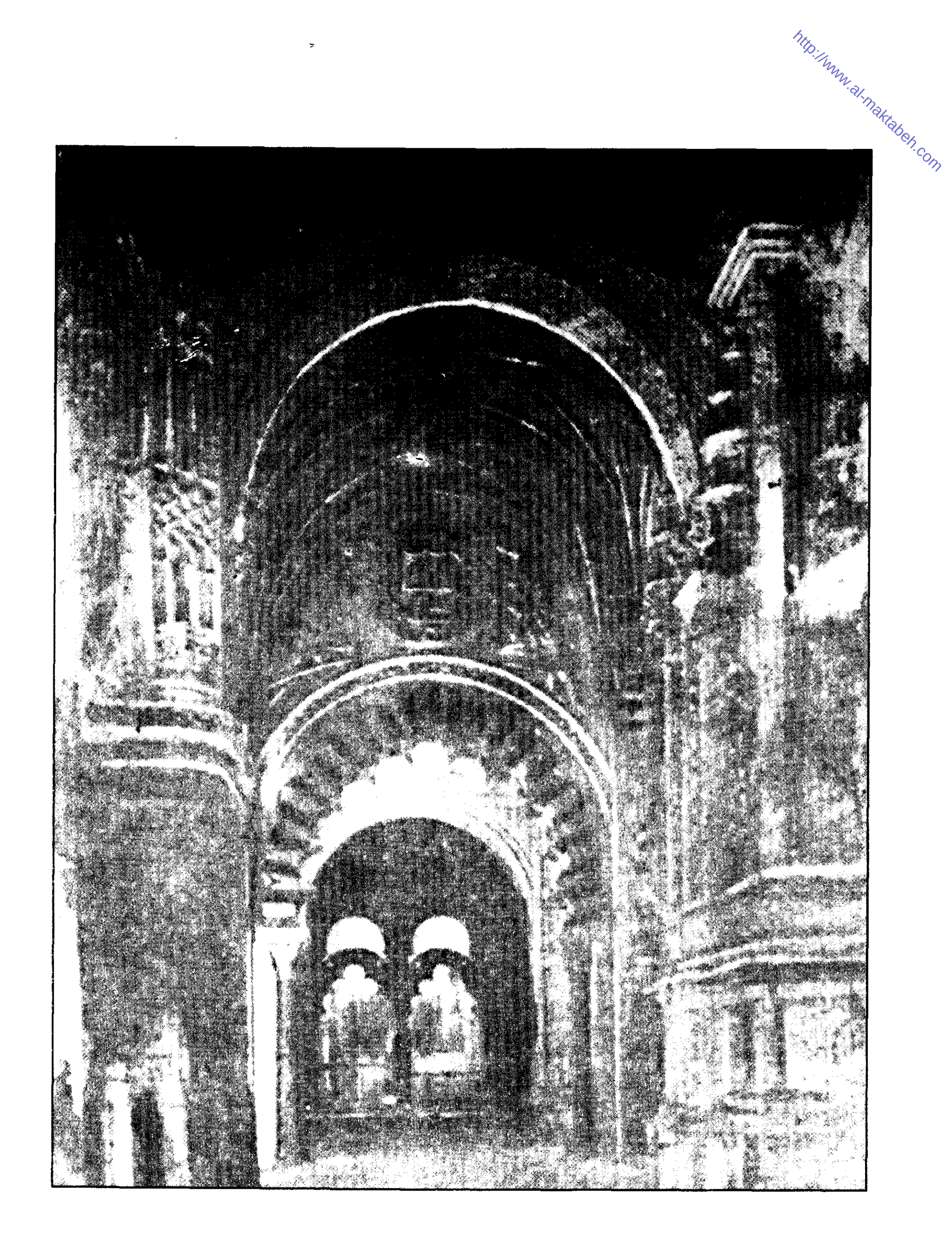
(ب) سقوط قرطبة (٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦م)

كان سقوط قرطبة بيد فرناندو الثالث سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٦ م، ضربة شديدة أصابت الإسلام، لأنها كانت حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، كما كان من أهم العوامل التي عجلت بانهيار نفوذ الموحدين نهائياً في الأندلس. فقد تحول جامع قرطبة إلى كنيسة عرفت بسانتا ماريا العظمى، وما لبث الإسبان أن شوهوا هذا الأثر الإسلامي بإضافات وتغييرات أساسية، وإقامة كاتدرائية قوطية الطراز بداخله، إضافة إلى عدة مصليات مسيحية، قبل أن يعلن الجامع سنة ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٢ م أثراً قومياً يتوجب الحفاظ عليه[١].

(جـ) سقوط اشبيلية حاضرة الموحدين (٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤م)

لم تمض ثماني سنوات على سقوط قرطبة، حتى انهارت دولة الموحدين في الأندلس، مع سقوط حاضرتها إشبيلية سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤م،

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤١٦.



جانب من الكنيسة التي أقيمت داخل جامع قرطبة

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤٤١

على يد فرناندو الثالث الذي حول جامع عمر بن عدبس إلى كنيسة. وما لبث هذا الجامع أن هدم برمته سنة ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧١م، وبنيت مكانه كنيسة سان سلفادور سنة ١١٢٤ هـ/ ١٧١٢م[١].

كما سقطت بيد فرناندو الثالث، قادس وولبة، وجميع المدن الواقعة قرب مصب نهر الوادي الكبير.

(د) سقوط شرق الأندلس

أما شرق الأندلس، فقد سقط بيد خايمي الأول ملك أراغون الذي استولى عل ميورقة سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠م، والجزر الشرقية سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م، وبلنسية سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨م، ثم جزيرة شقر ومدينة شاطبة.

وكانت مرسية، قد سقطت بيد فرناندو الثالث سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣م، أي قبل سنة واحدة من سقوط اشبيلية حاضرة دولة الموحدين في الأندلس، وهي الدولة التي ما لبثت أن انقرضت أيضاً في المغرب سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩م، ليحل مكانها بنو مرين.

وبذلك سقطت الأندلس بأسرها، باستثناء إمارة غرناطة التي أصبحت كنقطة إسلامية وحيدة في بحر مسيحي، تقاوم طيلة قرنين ونصف، حتى غرقت سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م، وضاعت معها الأندلس نهائياً.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣٩٩.

المرحلة السادسة

مملكة غرناطة وضياع الأندلس النهائي

(٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٤٩٢ م)



الفصل الثاني عشر

مملكة غرناطة وضياع الأندلس النهائي

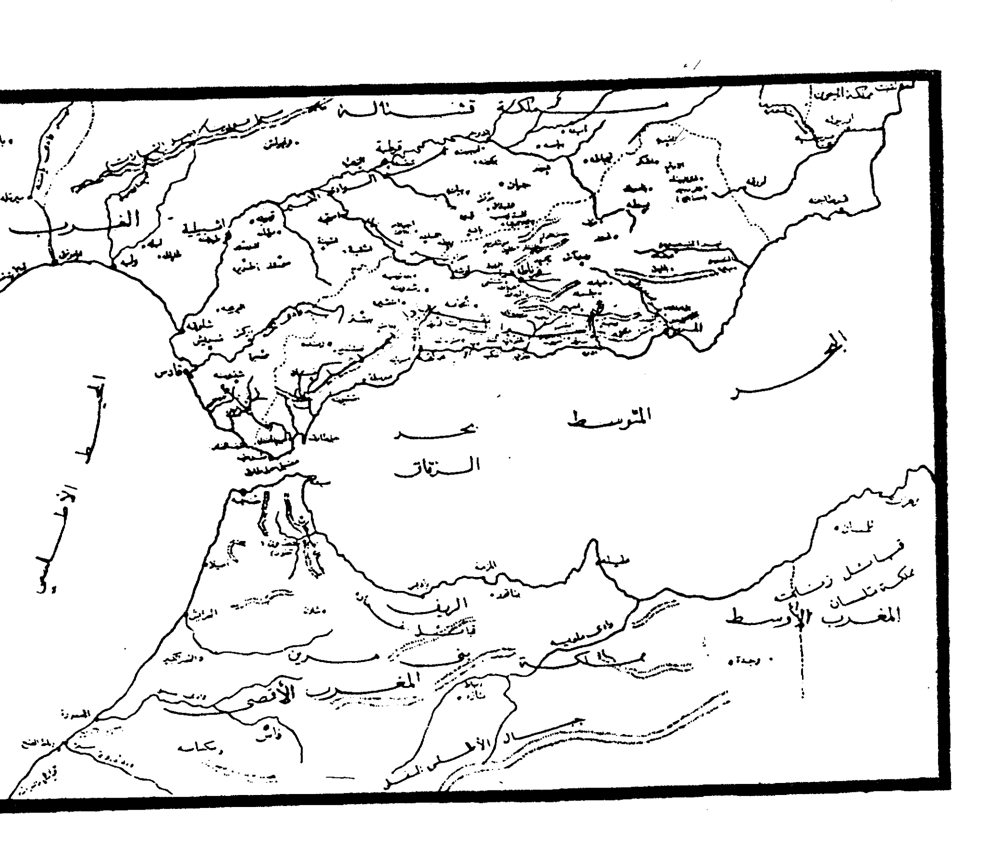
(٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٤٩٢ م)

سقطت الأندلس عملياً، مع سقوط دولة الموحدين فيها، إثر هزيمة أبو عبد الله محمد الناصر في معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م[١]، وسقوط المدن الكبيرة والصغيرة بدءاً بقرطبة سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ م، واشبيلية سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤م. في حين بقيت غرناطة وحدها تقاوم السقوط، وهي لا تعدو كونها مملكة عربية إسلامية صغيرة في جنوب شرق الأندلس. وأصبحت طيلة قرنين ونصف، بمثابة الخط الدفاعي الأول عن المغرب، حتى سقطت في يوم الإثنين أول ربيع الأول ٨٩٧ هـ/ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢م، ليرتبط هذا التاريخ بالسقوط النهائي لبلاد الأندلس.

وقد تعاقب على حكم مملكة غرناطة، سبعة عشر، هم: محمد الأول «ابن الأحمر» سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م، محمد الثاني «الفقيه» سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣م، محمد الثالث «أبو عبد الله» سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١م، نصر بن محمد سنة ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٨م، إسماعيل الأول سنة ٧١٣ هـ/ ١٣١٣م، محمد الرابع سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥م، يوسف الأول سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢م، محمد الخامس سنة ٧٥٥ هـ/ ١٣٥٤م (المرة الأولى) وسنة ٧٦٢ هـ/ ١٣٦١م (المرة الثانية)،

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٤٠٢.



مملكة غرناطة

اسماعيل الثاني سنة ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٩م، يوسف الثاني سنة ٧٩٣ هـ/ ١٣٩١م، محمد السادس «الغني بالله» سنة ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣م، يوسف الثالث سنة ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ م، محمد السابع «الأيسر» سنة ٨٢٠ هـ/ ١٤١٧ م، سعيد بن إسماعيل سنة ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤م، أبو الحسن علي «الغالب بالله» سنة ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣ م (المرة الأولى) وسنة ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣م (المرة الثانية)، أبو عبد الله محمد «ابن الحرة» وهو آخر حكام غرناطة تولاها للمرة الأولى سنة ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢م، حتى سنة ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ عندما تولاها عمه أبو عبد الله محمد بن سعد «الزغل»، ليعود «ابن الحرة» للمرة الثانية سنة ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧ م ويحكم طيلة خمس سنوات قبل سقوط غرناطة وضياع الأندلس نهائياً سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م.

١ ـ ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة (٦٣٥ ـ ٦٧٢ هـ/١٢٣٧ ـ ١٢٧٣م)

كانت غرناطة، على غرار بقية مدن الأندلس، تابعة لحكم المرابطين، ثم الموحدين الذين تعرضوا للهزيمة في معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م، مما مهد الأمر لثورة محمد بن يوسف بن هود سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٧ م وسيطرته على غرناطة والمناطق المحيطة بها، في جنوب شرق الأندلس، ما بين جيان وبياسة وارجونة وقرطبة واشبيلية، على امتداد نهر الوادي الكبير شمالاً وغرباً حتى المرية شرقاً، ويخترقها في الوسط نهرا شنيل والدارو[1]. وأخذ نفوذ ابن هود يتراجع أمام تقدم ملكا ليون وقشتالة، فسقطت قرطبة سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦م. وبمقتل محمد بن هود في المرية سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧م، اندلعت الثورة مجدداً في مدينة غرناطة لتنتهي بمقتل واليها عتبة بن يحيى المغيلي، وإعلان محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي المعروف بابن الأحمر أميراً على غرناطة.

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤١٦.

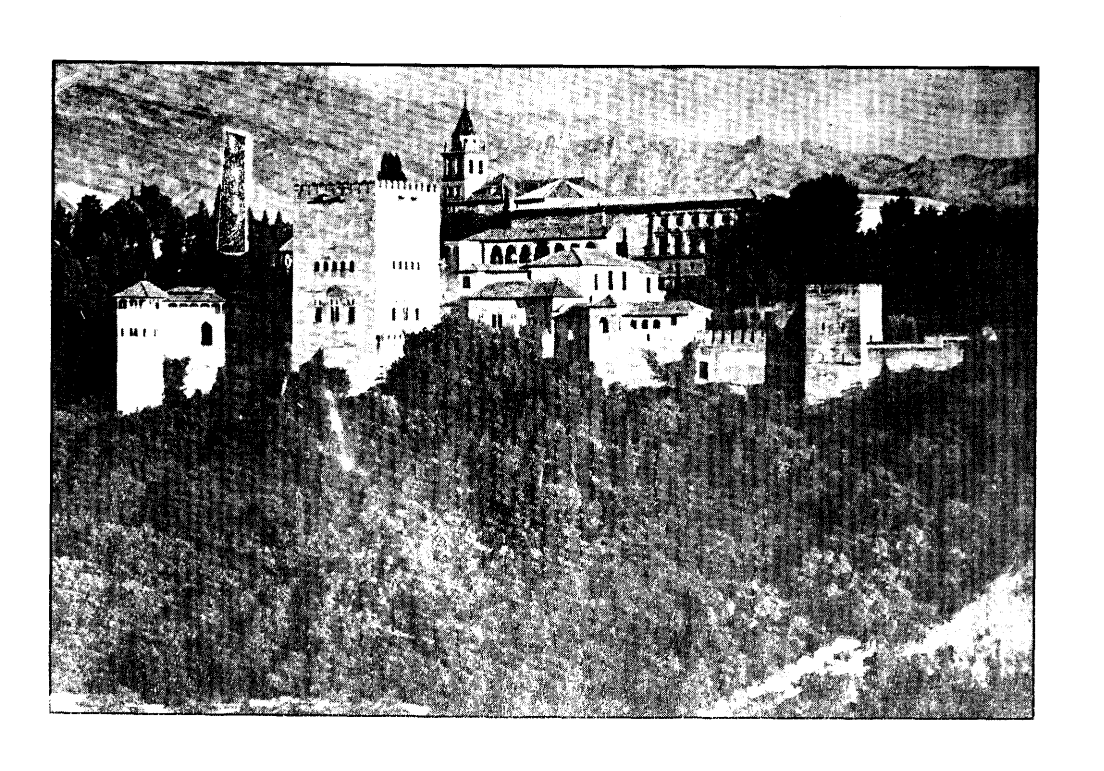
أدرك ابن الأحمر أو محمد الأول، أهمية غرناطة، وأن سقوطها يعني سقوط آخر مملكة إسلامية في الأندلس، لذلك واجه ملك قشتالة فرناندو الثالث الذي أرسل إبنه الفونسو في حملة عسكرية في نواحي جيان. ورغم عدم التوازن بين قوى الفريقين، قام ابن الأحمر بحصار قلعة مرتش جنوب غرب جيان[1]، ثم رفع الحصار عنها أمام تقدم حملة الفونسو التي ما لبثت وأن حاصرت مدينة غرناطة نفسها.

وكذلك أدرك بنو مرين في المغرب، ضرورة الحفاظ على مملكة غرناطة الصغيرة، لما يعنيه سقوطها، فقدموا المساعدة العسكرية[2]، مما مكنها من الصمود أمام حملة الفونسو وتكبيدها خسائر فادحة. لتنتهي المواجهة، بعقد الهدنة بين ابن الأحمر وفرناندو الثالث، وتنص على تحديد الإطار الجغرافي لمملكة غرناطة، ودفع ضريبة سنوية[3].

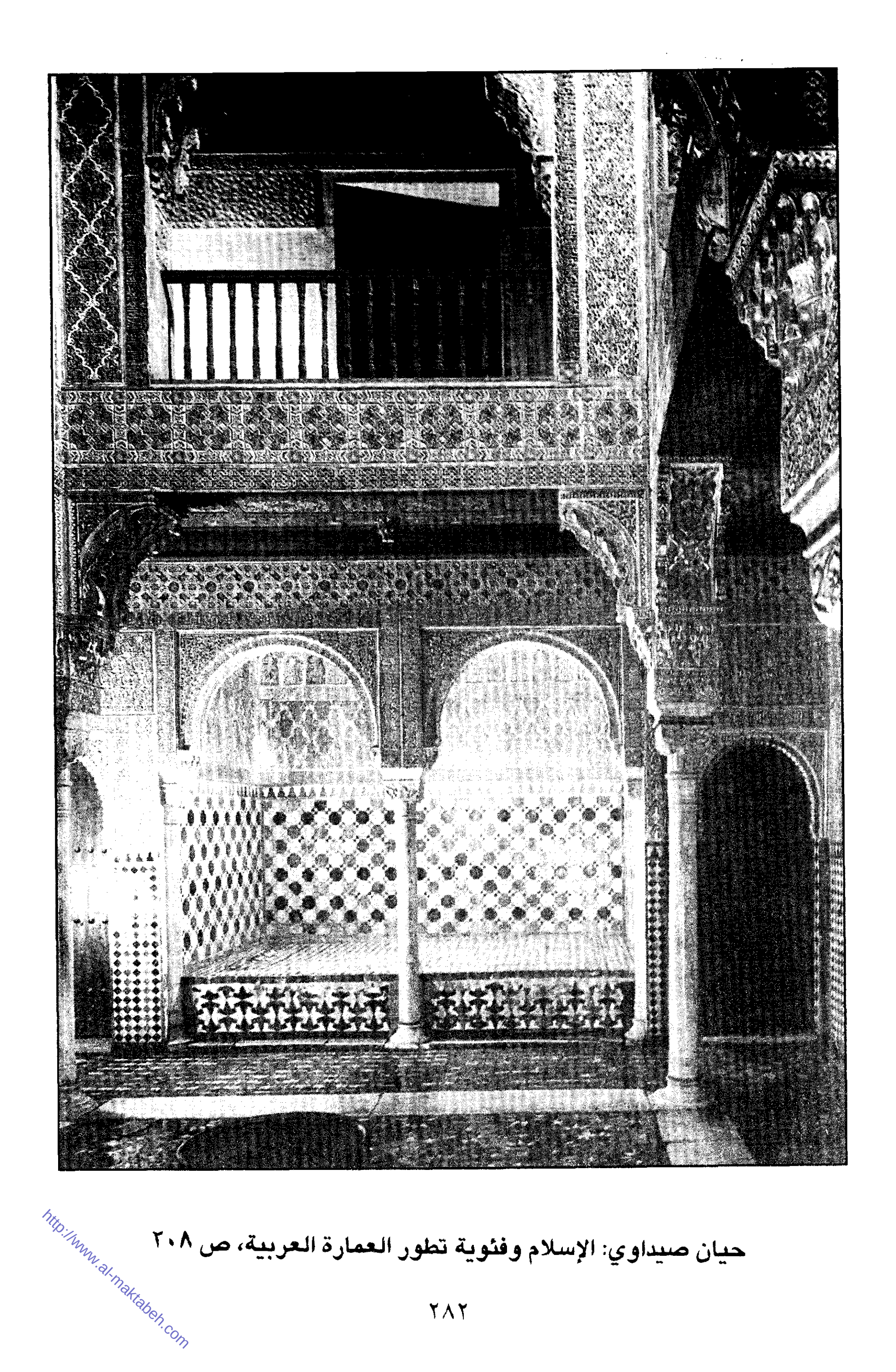
وسقطت إشبيلية سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م، دون أن يتحرك ابن الأحمر الذي آثر الاهتمام بتنظيم مملكته الصغيرة، وينسب إليه بناء قصر الحمراء[4] الذي يمثل أبرز معالم العمارة العربية الإسلامية في الأندلس.

---

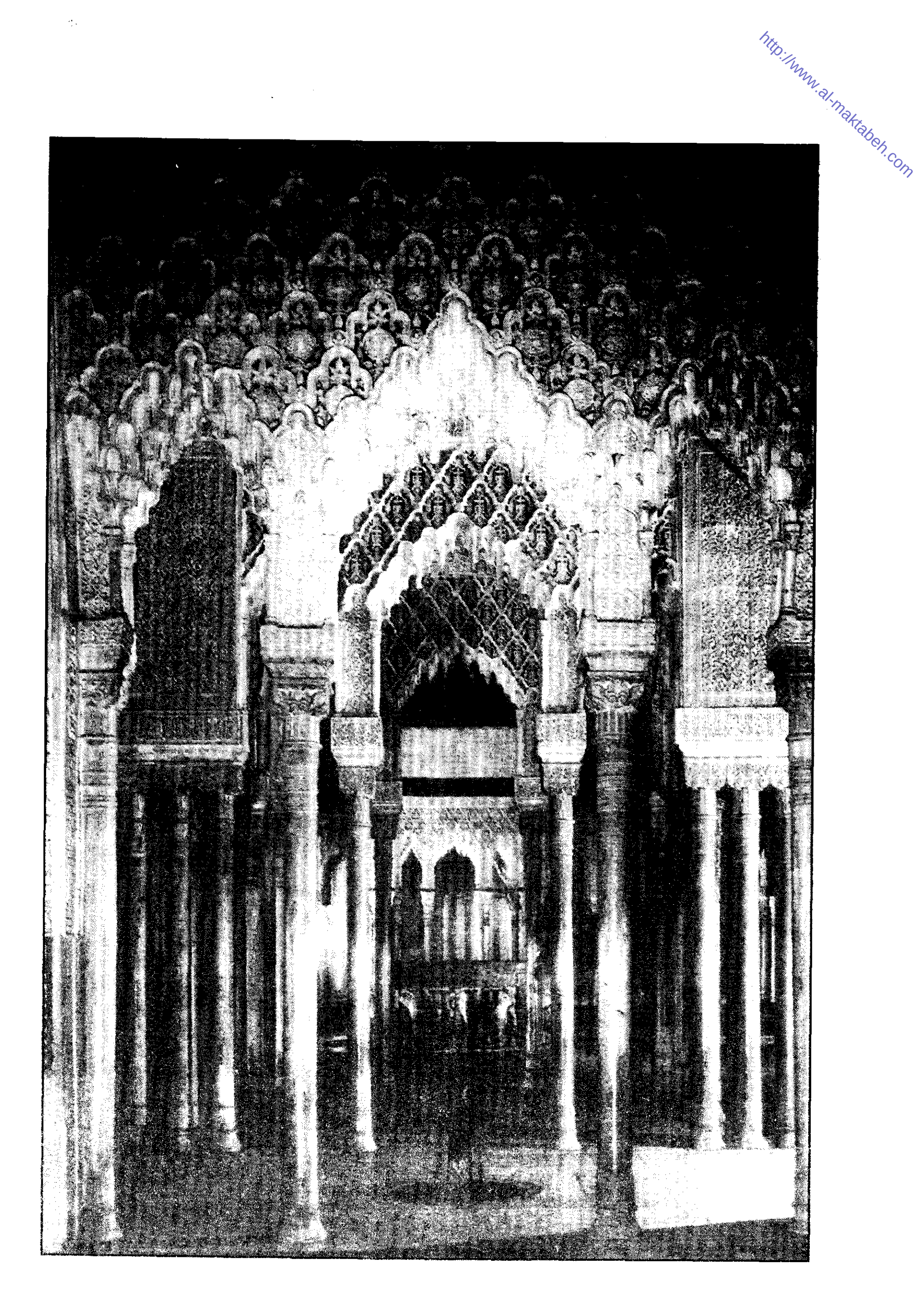
(١) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٢٥.
(٢) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص ٤٢.
(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير، العصر الإسلامي، ص ٨٧٠.
(٤) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٧٢.



قصر الحمراء في غرناطة، وخلفه قصر كارلوس الخامس
حيان صيداوي: الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية، ص ٣٧



حيان صيداوي: الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية، ص ٢٠٨



مقرنص في الأقواس المحيطة بباحة الأسود في قصر الحمراء في غرناطة
حيان صيداوي: الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية، ص ٢١٥

٢ ـ محمد الثاني «الفقيه» (٦٧٢ ـ ٧٠١ هـ/١٢٧٣ ـ ١٣٠١م)

كان محمد الثاني المعروف بالفقيه، يسير على خطى والده محمد الأول «ابن الأحمر»، في سياسته المهادنة لملك قشتالة. لكنه ما لبث وأن انتهز فرصة قيام الصراع الداخلي في قشتالة، ليتحالف مع السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق «المنصور» الذي خرج من فاس في المغرب، ليغزو الأندلس أربع مرات. ففي المرة الأولى حقق نصراً كبيراً قرب استجة سنة ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥م وعاد محملاً بالغنائم، وفي المرة الثانية حاصر اشبيلية وقرطبة وهاجم جيان سنة ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧م[١]، ثم غزاها للمرة الثالثة سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م، وللمرة الرابعة سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥م، مما دفع ملك قشتالة إلى طلب الصلح وقبوله برفع الضرائب عن المسلمين وعدم التعرض لهم[٢]. وشكل هذا الواقع الجديد، دعماً لوجود مملكة غرناطة التي اكتمل تأسيسها، وأصبحت قادرة على مواجهة ملك قشتالة.

٣ ـ مواجهة مملكة قشتالة (٧٠١ ـ ٧٥٥ هـ/ ١٣٠١ ـ ١٣٥٤م)

وبالفعل، تمكن الحفيد نصر بن محمد الثالث (٧٠٨ ـ ٧١٣ هـ/ ١٣٠٨ ـ ١٣١٣م) من إنزال الهزيمة بملك قشتالة فرناندو الرابع. كما تمكن محمد الرابع (٧٢٥ ـ ٧٣٣ هـ/ ١٣٢٥ ـ ١٣٣٢م) من الانتصار على ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر[٣]، وكذلك فعل خليفته يوسف الأول (٧٣٣ ـ ٧٥٥ هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٣٥٤ م) الذي استشهد إبنه في إحدى المعارك[٤]. وذلك كله بفضل الدعم المستمر من بني مرين في المغرب، مما حقق التوازن العسكري الذي

---

(١) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٣٢.
(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير، العصر الإسلامي، ص ٨٧١.
(٣) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص ١٠٦.
(٤) ابن الخطيب: اللمحة البدرية في أخبار الدولة النصرية، ص ٩٣، ٩٤.

مكن غرناطة من مواجهة مملكة قشتالة. وهذا ما بدا واضحاً زمن محمد الخامس.

٤ ـ محمد الخامس وازدهار غرناطة (٧٥٥ ـ ٧٩٣ هـ/ ١٣٥٤ ـ ١٣٩١م)

يرتبط ازدهار مملكة غرناطة بفترة حكم محمد الخامس التي امتدت طيلة أربع وثلاثين سنة، على مرحلتين، الأولى (٧٥٥ ـ ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٤ ـ ١٣٥٩م) والثانية (٧٦٣ ـ ٧٩٣ هـ/ ١٣٦٢ ـ ١٣٩١م)، وتفصل بينهما ثلاث سنوات (٧٦٠ ـ ٧٦٣ هـ/ ١٣٥٩ ـ ١٣٦٢م) تولى خلالها الحكم أخوه إسماعيل بن يوسف. لذلك اضطر محمد الخامس للفرار مع وزيره ابن الخطيب نحو الدولة المرينية وعاصمتها فاس في المغرب الأقصى، فرحب بهم السلطان أبو سالم إبراهيم المريني.

وفي المنفى، وضع لسان الدين ابن الخطيب كتاب «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» ويتحدث فيه عن مملكة غرناطة وصفات أهلها وعاداتهم وتاريخ ملوكها. كما وضع كتاب «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب»، وفيه يصور ما شاهده في المغرب مع أحداثه السياسية في تلك السنوات الثلاث. وكتب رسالة في وصف بعض مدن المغرب والأندلس سماها «معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار»، فضلاً عن كتاب «رقم الحلل في نظم الدول» وهو أرجوزة تاريخية تتناول تاريخ الدول الإسلامية، وقد أهداه إلى سلطان المغرب. وفي فاس، توصدت الصداقة بين ابن الخطيب وابن خلدون الذي اجتذبه بلاط بني مرين.

ثم عاد محمد الخامس ومعه وزيره ابن الخطيب إلى غرناطة[١] سنة

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

٧٦٣ هـ/ ١٣٦٢م، نتيجة دعم سلطان المغرب أبو سالم إبراهيم المريني من جهة وملك قشتالة بدرو من جهة ثانية. وتحول ابن خلدون، نتيجة صداقته مع ابن الخطيب، إلى سفير غرناطة إلى ملك قشتالة[1].

وحاول محمد الخامس، التعاون مع المماليك في مصر، لمواجهة التحديات التي تتعرض لها مملكة غرناطة بهدف القضاء عليها[2]، واسترداد كامل الأندلس.

وبعد عودته، لم ينقطع ابن الخطيب عن التأريخ، رغم متطلبات عمله السياسي، فوضع كتاب «الإحاطة في تاريخ غرناطة»، وهو عبارة عن تراجم لملوك وأمراء وعلماء غرناطة وجميع الذين وفدوا عليها من المشرق والمغرب. وقد حظي بمكانة عالية في قصر الحمراء، ورسم لغرناطة سياسة خارجية ثابتة تجاه المغرب تقوم على إرضاء سلاطين الدولة المرينية، مما أثار غيرة وحسد كبار القادة والمعاونين، وفي طليعتهم أقرب معاونيه الشاعر أبو عبد الله بن زمرك الذي ساهم في توتير علاقته مع السلطان محمد الخامس. وتولى ابن زمرك الوزارة، بعد اضطرار ابن الخطيب لمغادرة غرناطة والتوجه نحو السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز سنة ٧٧٣ هـ/ ١٣٧١م.

أخذ ابن الخطيب يحرض سلطان الدولة المرينية عبد العزيز، بعد ضمه المغرب الأوسط، على ضم غرناطة، فزاد العداء مع محمد الخامس. وما لبث عبد العزيز أن توفي سنة ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م، ليخلفه إبنه محمد السعيد وكان طفلاً في الرابعة، فاستبد بالحكم الوزير أبو بكر بن غازي. وحاول ابن الخطيب التقرب منهما، فوضع كتاباً مناسباً للوضع الجديد في المغرب، أسماه «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك من

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ص ٣٠٩.

(٢) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص ١٤٢.

شجون الكلام»، وهو في ثلاثة أقسام: الأول يتناول تاريخ المشرق العربي الإسلامي من السيرة النبوية حتى عصر المماليك، والثاني يتناول تاريخ الأندلس من الفتح العربي حتى عصر المؤلف في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي مما يعني أنه أول تاريخ شامل للأندلس، أما الثالث فيتناول تاريخ المغرب العربي حتى عصر الموحدين.

وتمكن محمد الخامس سلطان غرناطة، من التدخل في شؤون المغرب، والقبض على ابن الخطيب، وتعذيبه ومصادرة أمواله، ثم قتله وحرقه في سجنه سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م[(١)]. ولم يفلح صديقه ابن خلدون في إنقاذه، فآثر الابتعاد عن السياسة والحياة العامة طيلة أربع سنوات (٧٧٦ ـ ٧٨٠ هـ/ ١٣٧٤ ـ ١٣٧٨م) قضاها في قلعة تاوغزوت غرب الجزائر، حيث كتب «مقدمة» تاريخه «العبر وديوان المبتدأ والخبر»، وهي المقدمة التي لم يكتب مثلها في الإسلام على الإطلاق، بعد محاولته تفسير الأحداث التاريخية، بالتعرف على العلل التي أدت إليها، وأسباب قيام الدول وسقوطها، ومظاهر العمران فيها. ذلك في الوقت الذي كانت فيه المحن والخطوب تمر بالمغرب، والأندلس قد سقطت كلها بيد الممالك المسيحية حتى انحصر ملك المسلمين في رقعة ضيقة هي غرناطة. وهذا ما فعله، قبلاً، معاصره وصديقه ابن الخطيب الذي حاول بدوره تفسير الأحداث التاريخية بدراسة المظاهر الاقتصادية والاجتماعية في الأندلس، وكان أحياناً يستعين بالآثار، فينقل النقوش المكتوبة على المنشآت الملكية وشواهد القبور. وقد سهل منصبه كوزير، مهمة الإطلاع على الوثائق الرسمية بديوان الإنشاء في قصر الحمراء. لذلك انقطع بمقتل ابن الخطيب أهم مصدر عربي لتاريخ غرناطة.

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ١ ص ٣٢١.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ ٧ ص

وفي غرناطة، لقي الوزير ابن زمرك سنة ٧٩٧ هـ/ ١٣٩٥ م، نفس مصير ابن الخطيب[1]، وذلك في عهد محمد السادس (٧٩٥ ـ ٨١٠ هـ/ ١٣٩٣ ـ ١٤٠٧م)، لتبدأ بعده، فترة جديدة تميزت بسيطرة الوزراء على الحكم.

٥ ـ الصراع حول السلطة ونفوذ الوزراء (٨١٠ ـ ٨٦٨ هـ/ ١٤٠٧ ـ ١٤٦٣)

كان محمد السادس آخر حكام غرناطة الأقوياء، فقد خلفه يوسف الثالث سنة ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ م، ثم محمد السابع الأيسر الذي شهدت فترة حكمه الطويلة (٨٢٠ ـ ٨٥٨ هـ/ ١٤١٧ ـ ١٤٥٤ م)، تصاعد نفوذ أسرة عربية عريقة[2] «بنو سراج» في ظل الاضطرابات الداخلية، وتولى أحدهم ويدعى يوسف الوزارة ليخلفه فيها إبنه عبد البر. وقد اعتمد محمد السابع على بني سراج لمواجهة المؤامرات التي أطاحت مرتين بحكمه، لينتهي الأمر بضعف إمارة غرناطة، سواء في عهده أو عهد خلفه سعيد بن إسماعيل (٨٥٨ ـ ٨٦٨ هـ/ ١٤٥٤ ـ ١٤٦٣م)، ثم أبي الحسن علي «الغالب بالله» الذي انقسمت مملكة غرناطة في عهده إلى دويلتين.

٦ ـ انقسام مملكة غرناطة وسقوط مالقة (٨٦٨ ـ ٨٩٢ هـ/ ١٤٦٣ ـ ١٤٨٧م)

حاول أبو الحسن علي «الغالب بالله»، منذ توليه مملكة غرناطة للمرة الأولى سنة ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣م[3]، أن يقضي على الاضطرابات الداخلية، والانصراف للجهاد ضد قشتالة. لكن أخاه المعروف بـ «الزغل»، تمرد عليه

.٣٣٦

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٤ ص ٢٩٠.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١ ص ١٣٨.

بمساعدة ملك قشتالة، واستقل في مالقة، لتنقسم المملكة بين الأخوين[1]، أبو الحسن في غرناطة والزغل في مالقة.

وهنا يبدأ دور عائشة «الحرة» إبنة أبي عبد الله الأيسر التي تزوجها أبو الحسن علي «الغالب بالله»، فرزقا بولدين أحدهما أبو عبد الله محمد المعروف بابن الحرة. فقد قام الصراع بينها وبين «ضرتها» الإسبانية التي أنجبت أيضاً ولدين، وأخذت تعمل على تولية أحدهما الحكم. لذلك، فما إن خرج أبو الحسن من غرناطة لنجدة إحدى قلاعه من هجوم قشتالي، حتى انقلب عليه أنصار عائشة الحرة وبايعوا إبنها أبو عبد الله محمد «ابن الحرة» سنة ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢م، في حين التجأ أبو الحسن عند شقيقه الزغل في مالقة. وما لبث ابن الحرة أن وقع في الأسر في ربيع الأول ٨٨٨ هـ/ نيسان ١٤٨٣م، أثناء حصاره قلعة لوسينا.

حاولت عائشة الحرة الإمساك بزمام الأمور في غرناطة، فدعت زوجها المخلوع أبا الحسن علي «الغالب بالله» لتسلم الحكم، لكنه ما لبث أن تنازل عنه لأخيه الزغل سنة ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥م. فتحركت عائشة الحرة مجدداً، لتفتدي إبنها من الأسر بمبلغ كبير من المال، ويقود الثورة ضد عمه. ونجح ابن الحرة في تولي حكم غرناطة للمرة الثانية سنة ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧م، بينما توجه عمه الزغل نحو مالقة.

إنتهز ملك قشتالة الصراع داخل غرناطة، فأخضع حصن بلش[2]، وهو من أقوى حصونها. ثم حاصر مالقة براً وبحراً في جمادى الثانية ٨٩٢ هـ/ أيار ١٤٨٧م، لتسقط بعد ثلاثة أشهر، رغم الدفاع المستميت الذي أبداه أميرها الزغل[3] الذي اضطر للتنازل عن جميع الحصون التابعة له مقابل خروجه من

---

(١) المصدر نفسه، جـ ٢ ص ٦٠٧.
(٢) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص ١٩٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢١٣، ٢١٤.

الأندلس[1]. وبقيت مدينة غرناطة وحدها تقاوم السقوط.

٧ ـ «إبن الحرة» وسقوط غرناطة
(الإثنين أول ربيع الأول ٨٩٧ هـ/٢ كانون الثاني ١٤٩٢م)

فقدت مملكة غرناطة ثغراً بحرياً هاماً، مع سقوط مالقة، وأخذت الحصون والمدن الأخرى تسقط بعده. وما إن حلَّ ربيع ٨٩٦ هـ/ ١٤٩١ م، حتى أصبحت مدينة غرناطة نفسها وحيدة ومحاصرة من قبل جيوش ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك اراغون.

استمر حصار غرناطة طيلة سبعة أشهر، أبدى خلالها أبو عبد الله محمد «ابن الحرة» وفرسانه ضروباً من الشجاعة، عندما اخترق مرات عديدة الحصار لقتال الأعداء. وهنا نطرح السؤال التاريخي، لماذا لم تتحرك دولة المماليك في مصر والشام، وهي التي يعود لها الفضل في إجلاء الصليبيين نهائياً سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١م؟. ولماذا لم تتحرك الدولة العثمانية التي فتحت القسطنطينية في ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧ هـ/ ٢٩ أيار ١٤٥٣ م، وهي تمثل البوابة الشرقية لأوروبا، تاركة بوابتها الغربية، وغرناطة آخر معاقلها، تسقط؟. والجواب بسيط جداً، إنه الصراع حول السلطة والنفوذ وترك الجهاد جانباً، فكما شهدت مملكة غرناطة الصراع حول السلطة بين الأخوين «الغالب بالله» و«الزغل»، ثم بين «الزغل» وابن أخيه «ابن الحرة»، كان المشرق العربي الإسلامي يشهد بدوره الصراع بين العثمانين والمماليك في حربهم الأولى (٨٩١ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٤٨٦ ـ ١٤٩١م)، وهي الحرب التي زامنت نهايتها حصار ملكي قشتالة وأراغون لمدينة غرناطة. ثم إن دولة بني مرين في المغرب الأقصى، وهي أقرب الدول مسافة لنجدة غرناطة كما فعلت مراراً في السابق، كانت تعيش

---

(١) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٦٢.

مرحلة الضعف والانهيار، بعد أن اقتصرت أملاكها على فاس، منذ أن تمكن البرتغاليون من السيطرة على جزء كبير من ساحل المغرب بدءاً من سبتة سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥م حتى طنجة سنة ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤م.

وأمام وطأة الحصار، اتخذ أبو عبد الله محمد «ابن الحرة» والقادة قراراً بتسليم المدينة. وعهد إلى وزيره أبي القاسم عبد الملك في المفاوضات التي انتهت بتوقيع معاهدة تنص على تسليم غرناطة، وإطلاق الأسرى، وتأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وأن يجتاز من يشاء منهم إلى المغرب، وأن يخرج ابن الحرة من قصر الحمراء ليقيم حيث يشاء في ممتلكاته.

فتحت أبواب غرناطة في يوم الإثنين أول ربيع الأول ٨٩٧ هـ/ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢ م، فدخلها حاكمها الجديد الكونت تنديلا، وسار خلفه موكب الملكة ايزابيلا والملك فرديناند. في حين غادر أبو عبد الله محمد «ابن الحرة»، ليقيم في البشرات المطلة على غرناطة. وما إن وصلها، حتى شاهد، قصر الحمراء، وقد ارتفعت فوقه الصلبان والأعلام الجديدة، فبكى ملكه المفقود. فنظرت إليه والدته عائشة الحرة، وهي تخاطبه قائلة: «إبك مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال».

وبسقوط غرناطة، سقطت الأندلس نهائياً، ليخسر العرب، أهم موقع استراتيجي وحضاري، يمثل البوابة الغربية للقارة الأوروبية.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الخاتمة

كان المغرب من أصعب الجبهات التي استغرق فتحها زمناً طويلاً، عكس الجبهات الأخرى التي أظهر فيها العرب المسلمون حروبهم الخاطفة والصاعقة التي هوت أمامها جيوش أقوى دولتين في ذلك الوقت: فارس وبيزنطة. فانتشر الإسلام ومعه العروبة في بلاد الشام والعراق ومصر، خلال عشر سنوات فقط (١٢ ـ ٢١ هـ/ ٦٣٣ ـ ٦٤٢م)، منها سنتان زمن أول الخلفاء الراشدين أبو بكر رضي الله عنه، وثماني سنوات زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأن هذه الأقاليم الثلاثة كانت على موعد مع العرب المسلمين تنتظر قدومهم لتعتنق الإسلام ديناً والعروبة مذهباً. بينما تأخر هذا الانتشار العربي الإسلامي في المغرب، حيث خاض العرب المسلمون أطول الحروب في تاريخ الفتح، وهم يواجهون قبائل البربر الذين لم يكونوا على موعد مع قدوم العرب المسلمين، فقاوموا الفتح، بدعم أحياناً من الدولة البيزنطية، طيلة سبعين سنة هجرية/ ثمان وستين سنة ميلادية (٢١ ـ ٩٠ هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٠٩م)، علماً أن الحملات لم تستغرق عملياً أكثر من أربع وخمسين سنة، منها سنتان (٢٢ ـ ٢٣ هـ/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤ م) زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تمكن خلالها عمرو بن العاص من فتح برقة وطرابلس، وسنتان (٢٧ ـ ٢٨ هـ/ ٦٤٧ ـ ٦٤٨ م) زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أرسل حملة واحدة نحو أفريقية بقيادة عبد الله بن سعد، لتتوقف الحملات ثلاث عشرة سنة بسبب أحداث الفتنة الكبرى. ويعود الفتح مجدداً مع تأسيس الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ/ ٦٦١ م، مستغرقاً تسعاً وأربعين سنة في حملات قادها عقبة بن نافع ومعاوية بن خديج وأبو المهاجر دينار وزهير بن قيس وحسان بن النعمان، ثم موسى بن نصير الذي أتم الفتح النهائي للمغرب سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٩م، أي زمن الوليد بن عبد الملك.

إنتهى فتح المغرب سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٩ م، لا بقوة الأمويين أو الخلفاء الراشدين قبلهم، ولكن بعظمة الإسلام الذي خرج قوياً بعروبته من شبه الجزيرة العربية، بفضل النبي العربي محمد ﷺ، مؤسس الدولة العربية الإسلامية الأولى، التي وصلت، بعد وفاته في ١٢ ربيع الأول ١١ هـ/ ٧ حزيران ٦٣٢ م، إلى مداها الطبيعي في الأقاليم الممتدة من الخليج العربي حتى المحيط الأطلسي، لتشمل شبه الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر (بما فيها السودان جنوباً وليبيا غرباً) والمغرب العربي الكبير (تونس والجزائر ومراكش). وهذا ما أثبته التاريخ في ما بعد، فقد اعتبرت هذه المناطق أقصى مدى حقيقي توقفت عنده العروبة والإسلام معاً، حيث تمكنتا من التغلغل عميقاً في داخله، وما الفتوحات التي تعدت الخليج نحو فارس وآسيا الصغرى والهند والصين، وتعدت المغرب نحو إسبانيا (الأندلس)، كما تعدت آسيا الصغرى نحو شرق أوروبا بعد فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م، سوى توسع وضم مناطق نفوذ وسيطرة لحماية أنظمة الحكم الأموي والعباسي ثم العثماني، دون أن ننكر على هذه الأنظمة ما فعلته من نشر الإسلام ليعم مناطق مترامية الأطراف دون نشر العروبة لغة القرآن الكريم. واقتصر الإسلام والعروبة معاً على الوطن العربي الممتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي.

صحيح أن فتح المغرب وتعريب سكانه تم في العصر الأموي، لكن عملية الفتح والتعريب بدأت زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما، وكانت ستستمر زمن علي كرم الله وجهه، وما حدث بعد مقتله أن انتهى عهد الخلافة العربية الإسلامية القائمة على مبدأ الشورى، لأنه لا وراثة في الخلافة التي لا يجوز أن يتسلمها إلا عربي مسلم، وهذان الشرطان لم يجتمعا في الدول الأموية والعباسية والعثمانية. وما حدث في مطلع العصر الأموي من فتح وتعريب للمغرب، كان سيحدث بغض النظر عن السلطة الحاكمة لأن الإسلام كان لا يزال قوياً في النفوس، وحركة الجهاد التي أطلقها النبي العربي ﷺ لم تهدأ، فاستغلها أصحاب السلطة والنفوذ في تحقيق مطامعهم.

لذلك يصح إطلاق تسمية «الخلافة» على الدولة العربية الإسلامية الأولى (١١ ـ ٤١ هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٦١م) فقط. في حين يمكن وصف ما تلاها بالمملكة العربية الأموية (٤١ ـ ١٣٢ هـ/ ٦٦١ ـ ٧٥٠م)، والمملكة الإسلامية العباسية (١٣٢ ـ ٩٢٣ هـ/ ٧٥٠ ـ ١٥١٧ م)، والسلطنة الإسلامية العثمانية (٩٢٣ ـ ١٣٣٧ هـ/ ١٥١٧ ـ ١٩١٨م).

أما الفتح العربي الإسلامي للأندلس، فلم يستغرق أكثر من ست سنوات (٩١ ـ ٩٧ هـ/ ٧١٠ ـ ٧١٦ م). فهل يمكن القول أن سبعين سنة استغرقها فتح المغرب كانت كافية ليبقى حتى يومنا هذا يمثل غرب الوطن العربي، في حين أن السنوات الست التي استغرقها فتح الأندلس لم تكن كافية لغرس البذرة العربية الإسلامية في شبه الجزيرة تلك التي تفصلها عن فرنسا سلسلة جبال البيرينيه شمالاً، مما جعلها في شبه عزلة عن سائر دول قارة أوروبا، بينما لا يفصلها عن السواحل الشمالية للمغرب، سوى مضيق جبل طارق؟.

ونتساءل عن شبه عزلة الأندلس عن سائر دول قارة أوروبا، وقد حكمها العرب المسلمون طيلة ٣٢٥ سنة هجرية/ ٣١٥ سنة ميلادية، وهي ولاية عربية إسلامية تابعة للخلافة الأموية بدمشق (٩٧ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٦ ـ ٧٥٦ م)، ثم وهي إمارة أموية فخلافة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية في بغداد (١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ١٠٣١م)، ألم تكن كافية لترسيخ الإسلام والعروبة، حتى تبقى الأندلس أقصى الطرف الغربي من الوطن العربي؟. أم أن الأندلس كانت مجرد توسع وسيطرة في خط دفاعي ظهرت هشاشته مع سقوط الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١ م، قبل أن تبدأ الممالك المسيحية حرب الاسترداد وتسيطر على الأندلس بأسرها، باستثناء غرناطة، سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م.

ويخطىء من يظن أن الخلافة الأموية سقطت نهائياً مع سقوط دمشق لتحل مكانها الخلافة العباسية سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠م. صحيح أن الخلافة الأموية

سقطت في دمشق، لتظهر عاصمة جديدة مع الخلافة العباسية هي بغداد، إلا أن الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية «الداخل» تمكن من تأسيس إمارة أموية في الأندلس مستقلة عن الخلافة العباسية طيلة مائة وثمان وسبعين سنة هجرية/ مائة وثلاث وسبعين سنة ميلادية (١٣٨ ـ ٣١٦ هـ/ ٧٥٦ ـ ٩٢٩ م)، لتتحول إلى خلافة أموية طيلة مائة وست سنوات هجرية/ مائة سنة وسنتين ميلادية (٣١٦ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٢٩ ـ ١٠٣١ م)، مما يعني استمرار الخلافة الأموية في أقصى غرب الوطن العربي الإسلامي وقد أضحت قرطبة عاصمة لها، إلى جانب الخلافة العباسية في شرق الوطن العربي الإسلامي وعاصمتها بغداد. وقد بلغت الأندلس عصرها الذهبي مع الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١ م)، على غرار الدولة العباسية زمن الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م)، وكان الحكم الثاني «المستنصر» إبن عبد الرحمن الثالث محباً للعلم والعلماء مثل المأمون إبن هارون الرشيد.

استبد البربر والصقالبة مع ضعف الخلافة الأموية في قرطبة، كما استبد الفرس والأتراك مع ضعف الخلافة العباسية في بغداد. وأخذت شوكة العرب تضعف، مع غلبة العنصر التركي على الدويلات المستقلة في المشرق العربي الإسلامي، وحرص هذه الدويلات على إعلان التبعية والولاء الروحي للخلافة العباسية حتى في أشد فترات الضعف التي مرت بها. في حين حرصت الدويلات المستقلة التي قامت في المغرب والأندلس على إعلان استقلالها التام سياسياً وروحياً عن الخلافة العباسية. ففي المغرب قامت دولة الأدارسة العلويين في فاس (١٣٢ ـ ٣٦٣ هـ/ ٧٤٩ ـ ٩٧٣ م)، والدولة المدرارية الصفرية في سجلماسة (١٤٠ ـ ٣٤٩ هـ/ ٧٥٧ ـ ٩٦٠ م)، والدولة الرستمية الإباضية في تاهرت (١٤٤ ـ ٢٩٦ هـ/ ٧٦١ ـ ٩٠٩ م)، وما لبثت هذه الدولة الأخيرة أن سقطت على يد الفاطميين الذين أسسوا الخلافة الفاطمية «الشيعية» سنة ٢٩٧ هـ/ ٩١٠م. وقد تمكنت هذه الخلافة الفاطمية من القضاء على

الدولة المدرارية سنة ٣٤٩ هـ/ ٩٦٠ م، ولكنها عجزت عن توحيد سلطتها في المغرب الأقصى، بسبب تدخل الخلافة الأموية في الأندلس، وما أسفر عنه من مواجهة عسكرية بحرية بين الطرفين. وهذا ما جعل الخلافة الفاطمية تنتقل إلى مصر حيث استمرت حوالى القرنين (٣٦٢ ـ ٥٦٧ هـ/ ٩٧٣ ـ ١١٧١م)، فأصبح المشرق العربي الإسلامي مشتتاً بين خلافتين متصارعتين على أرضه، هما الخلافة العباسية «السنّية» والخلافة الفاطمية «الشيعية». في حين انفردت الخلافة الأموية «السنّية» بحكم الأندلس في أقصى غرب الوطن العربي الإسلامي.

إن قيام خلافة عباسية «سنّية» في بغداد، وخلافة أموية «سنّية» أيضاً في قرطبة، شجع العرب المسلمين «السنّة» على تجاوز المفهوم السائد بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ وأن الخليفة الشرعي هو حامي مكة المكرمة والمدينة المنورة في الحجاز، والقبول بشرعية خليفتين في وقت واحد شرط أن تكون بينهما مسافة طويلة لمنع الفتنة، وهذا الشرط متوفر بين قرطبة الأموية في أقصى غرب الوطن العربي الإسلامي وبين بغداد العباسية في شرق هذا الوطن. ومما دعم هذا الاجتهاد «السنّي» بالنسبة إلى تعدد الخلافة، هو قيام الخلافة الفاطمية «الشيعية» في المغرب قبل انتقالها إلى مصر، على أساس عداوتها للعباسيين والأمويين معاً، وطمعها في أن تحل مكانهما في زعامة الوطن العربي الإسلامي بأسره.

ورغم ما شهدته الأندلس من معالم الحضارة العربية الإسلامية، منذ إعلان الأمير الأموي عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة للمسلمين في يوم الجمعة ٢ ذي الحجة ٣١٦ هـ/ ١٦ كانون الثاني ٩٢٩ م، ولقبه أمير المؤمنين «الناصر لدين الله»، إلا إن هذا الخليفة الأموي ارتكب خطأً فادحاً بإضعافه العصبية العربية في الجيش والإدارة، فأخذ يعتمد على الصقالبة بهدف الحد من نفوذ الأرستقراطية العربية. وبذلك ظهرت طبقة جديدة «غير عربية» في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس، على غرار طبقة الأتراك «غير العرب» في بغداد عاصمة الخلافة العباسية. وأخذت العصبية العربية تضعف وتتراجع أمام

قوة الصقالبة، حتى أوشكت على التلاشي زمن الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (٣٧١ ـ ٣٩٩ هـ/ ٩٨١ ـ ١٠٠٩ م) الذي اعتمد بدوره على البربر بعد جلبهم من المغرب، حتى ضاقت بهم العاصمة قرطبة وضواحيها، كما استكثر من جلب الصقالبة، مهملاً العنصر العربي الذي يعود له الفضل الأول في الفتوحات العربية الإسلامية شرقاً وغرباً.

ومع ضعف العصبية العربية وفسادها، بدأت الفتن والحروب الأهلية، وسقطت الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م. وبدأ عصر الدويلات الصغيرة التي أسس بعضها البربر والصقالبة، إلى جانب العرب والموالي والمستعربين، وقد تقاسموا الأندلس في ما بينهم، في ثلاث وعشرين دويلة متنازعة، سميت دويلات الطوائف، وعرف حكامها بملوك الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٨٥ م). وهذا الواقع التقسيمي، هو عملياً ضياع الأندلس وسقوطها للمرة الأولى. فقد أتم موسى بن نصير وطارق بن زياد فتح الأندلس خلال ست سنوات، بفضل تلاحم العرب والبربر تحت راية الإسلام من جهة، وتحالفهم مع يوليان حاكم سبتة بسبب انقسام الجبهة الداخلية في إسبانيا من جهة ثانية، حيث خيِّل للمعارضة الإسبانية، أن العرب المسلمين سيوفرون الدعم العسكري لتتسلم الحكم وينسحبون بعدها. فإذا بالعرب والبربر في عصر ملوك الطوائف قد انقسموا في ما بينهم، دون أن تتورع كل طائفة منهم عن الاستعانة بالممالك المسيحية التي قوي شأنها، في حسم نتيجة الصراع حول السلطة والنفوذ في الممالك الإسلامية الصغيرة المبعثرة في مختلف أنحاء الأندلس.

إن محاولة تغييب دور العنصر العربي، الذي يعود له الفضل الأول في تأسيس الدولة العربية الإسلامية المترامية الأطراف شرقاً وغرباً، ويمثل الركن الأساسي من أركان المجتمع الكبير الممتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، هي التي ساهمت في إضعاف الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في قرطبة والخلافة الفاطمية في القاهرة. ويتحمل العباسيون والأمويون

والفاطميون جميعاً مسؤولية إبعاد العنصر العربي عن تسلم مقاليد القيادة العسكرية التي ما لبثت أن آلت إليها القيادة السياسية أيضاً. فلا غرو أن تسقط الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١ م، لتحل مكانها دويلات يحكم معظمها عناصر غير عربية من البربر والصقالبة. وأن تسقط الخلافة الفاطمية في القاهرة على يد الأتابكة الأتراك والأيوبيين الأكراد سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١ م، وهم أيضاً من العناصر غير العربية. لتسقط أخيراً الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، وإن استمرت هذه الخلافة بصورة شكلية مع المماليك حتى سقوط دولتهم في مصر وبلاد الشام على يد العثمانيين سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م.

ومع ذلك، لم يجرؤ أحد من العناصر الإسلامية غير العربية، في المشرق العربي الإسلامي، أن يقضي على الخلافة العباسية أو يحمل لقب خليفة، بل كان يحرص على نيل موافقة الخليفة العباسي على ملكه وسلطانه. وحدهم العثمانيون «الأتراك» غير العرب تجرأوا وقضوا نهائياً على الخلافة العباسية واغتصبوا حق العرب في الخلافة.

أما في المغرب والأندلس، أي في أقصى غرب الوطن العربي الإسلامي، فقد اتخذ العديد من ملوك الطوائف، ألقاب الخلافة وهم يقلدون الخلفاء العباسيين في بغداد والخلفاء الفاطميين في القاهرة. فإذا كان أئمة المسلمين «السنَّة» أجازوا تعدد الخلافة في حال اتساع رقعة الإسلام، لتبرير قيام الخلافة الأموية في قرطبة، أي في أقصى غرب الوطن العربي الإسلامي، مع وجود الخلافة العباسية في بغداد، أي في شرق هذا الوطن، إلا أن قيام أكثر من خلافة في وقت واحد، وداخل رقعة صغيرة جداً في الأندلس، يعني الخروج على الأصل الشرعي، لقرب المسافات بينها.

ورغم القوة العسكرية والروحية التي امتاز بها المرابطون وهم يوحدون المغرب والأندلس معاً، فإن قائدهم يوسف بن تاشفين، وهو من البربر غير

العرب، أكد الولاء للخليفة العباسي في بغداد، على غرار ما فعله بعده الناصر صلاح الدين الأيوبي وهو يوحد مصر وبلاد الشام.

لكن الموحدين الذين خلفوا المرابطين في المغرب والأندلس، وهم مثلهم من البربر غير العرب، فقد تلقبوا بألقاب الخلافة، عندما شعروا بضعف الخلافة العباسية. ثم سقطت خلافتهم في الأندلس مع سقوط اشبيلية سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م، أي قبل سقوط الخلافة العباسية في بغداد بأربع عشرة سنة، كما سقطت خلافتهم في المغرب مع سقوط مراكش سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩م، ليحل مكانهم بنو مرين.

بدأت حرب استرداد الأندلس، مع سقوط إحدى دويلات الطوائف، وهي طليطلة عاصمة القوط القديمة قبل الفتح العربي الإسلامي للأندلس، بيد الفونسو السادس ملك قشتالة في مستهل صفر ٤٧٨ هـ/ ٢٥ أيار ١٠٨٥م، وقد حاصر سرقسطة وخيّل إليه أن سقوط الأندلس بأسرها أصبح وشيكاً، بسبب ضعف ملوك الطوائف وتناحرهم وانقسامهم. وكان المغرب، وهو الظهير الخلفي للأندلس، يعاني بدوره محنة سياسية ودينية على غرار الأندلس، وتحكمت فيه طوائف متعددة أو دويلات الطوائف، مما يعني أن الفرصة سانحة أمام ملك قشتالة لتوحيد الممالك المسيحية والسيطرة على الأندلس، تمهيداً لعبور مضيق جبل طارق واحتلال المغرب.

وتكمن أهمية الدور الذي لعبه المرابطون، وهم من البربر غير العرب، في عملية توحيد المغرب وتأسيس العاصمة مراكش، قبل أن يعبروا مضيق جبل طارق بقيادة يوسف بن تاشفين الذي لبى نداء أهل الأندلس في مؤتمر قرطبة، ونجح في عملية إنقاذ الأندلس تحت راية الإسلام، التي بدأت منذ تحقيق الانتصار الكبير في معركة الزلاقة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ/ ٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦م. ففي تلك المعركة، سار الرهبان والقساوسة وهم يحملون الصلبان في مقدمة جيش «التحالف الصليبي» الذي ضم الممالك

المسيحية شمال الأندلس إلى جانب الفرسان من جنوب فرنسا، أي بعد سنة واحدة وخمسة أشهر من استرداد طليطلة على يد الفونسو السادس، وقبل تسع سنوات وشهر واحد من عقد مؤتمر كليرمون في فرنسا، يوم الإثنين ٢٥ ذي القعدة ٤٨٨ هـ/ ٢٦ تشرين الثاني ١٠٩٥م. وهذا المؤتمر دعا إليه البابا الفرنسي الأصل اربان الثاني، وتم اختيار الصليب شارة ورمزاً للحملة الصليبية الأولى في المشرق العربي الإسلامي، التي بدأت سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م، أي في الوقت الذي أنجز فيه يوسف بن تاشفين توحيد الأندلس وجعله ولاية تابعة للمغرب تحت راية الإسلام، بينما ارتفعت راية الصليب في ثلاث مناطق داخل المشرق العربي الإسلامي، هي: إمارة الرها سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٧م، وإمارة أنطاكية سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م، ومملكة بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩م[(١)].

ومن غريب المصادفة، أن يوسف بن تاشفين أمر بهدم كنيسة غرناطة، التي بنيت سنة ٦٠٠ م على يد غوديلا القوطي، وذلك تحقيقاً لفتوى الفقهاء سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م، وهي السنة التي سقط فيها بيت المقدس وتحديداً في يوم الجمعة ٢٣ شعبان ٤٩٢ هـ/ ١٥ تموز ١٠٩٩ م، حيث دخل الصليبيون المدينة بعد تحطيم باب القديس استفانوس، ليرتكبوا مجزرة كبيرة داخل المسجد الأقصى[(٢)]، واحتقروا المسيحيين الأرثوذكس باستبعاد قساوستهم عن كنيسة القيامة.

ثم إن التفكك في المغرب والأندلس، قبل سيطرة المرابطين، كان كافياً لضياعهما معاً على يد الممالك المسيحية في شمال الأندلس، إن لم يكن على يد الحملات الصليبية التي توجهت نحو المشرق العربي الإسلامي، لولا قيام

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٤ ص ٥٢٣.
(٢) عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص ٩٨.
(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٧.
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ١٩٧.

زعامة تاريخية متمثلة بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين الذي جمع المغرب بعد تفرقة، ووحد الأندلس بعد انقسامه إلى طوائف، ثم ضمه إلى المغرب، ليتحول إلى بطل الزلاقة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ/ ٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦ م. وبعد قرن كامل، أي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، تلتها زعامة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بطل الأرك سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م، لتعاصر زعامة أخرى في المشرق العربي الإسلامي، هي زعامة الناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو من أصل كردي غير عربي، وبطل حطين يوم الجمعة ٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ/ ٣ تموز ١١٨٧ م، ومنقذ بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ/ ٢ تشرين الأول ١١٨٧م. وكانت كل واحدة من هذه الزعامات الثلاث كافية لتغيير وجهة سير الحوادث في التاريخ، فكيف إذا ما تعاونت زعامتان إحداهما في مصر والشام والأخرى في المغرب والأندلس.

لذلك تعتبر معركة الزلاقة، من المعارك الفاصلة في التاريخ العربي الإسلامي، على غرار اليرموك والقادسية. وقد حقق النصر فيها «البربر» غير العرب، فغيرت مجرى حرب الاسترداد التي خطط لها الملك الفونسو السادس، وأنزلت الهزيمة بالتحالف الصليبي في مهده غرب قارة أوروبا. وظهر يوسف بن تاشفين في صورة المجاهد المنقذ الذي وحد المغرب والأندس. كما ظهر بعده بقرن كامل، أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي الذي أعاد بدروه توحيد المغرب والأندلس، متابعاً صورة المجاهد المنقذ، ومتعاوناً مع الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي وحد مصر وبلاد الشام، ليؤكد كل من هؤلاء القادة الثلاثة أن الوحدة هي الطريق الوحيد لمواجهة التحالف الصليبي في كل مكان وزمان.

فقد تمكن أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي من إلحاق الهزيمة بالحلف الثلاثي الصليبي «البرتغالي ـ الألماني ـ الانكليزي» في غرب الأندلس سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م، وهي السنة التي تمكن فيها الحلف الثلاثي الصليبي «الفرنسي ـ الألماني ـ الإنكليزي» من دخول عكا صلحاً يوم الجمعة ١٧

جمادى الثاني ٥٨٧ هـ/ ١٢ تموز ١١٩١ م، ليرتكبوا مجزرة يوم الثلاثاء ٢٧ رجب ٥٨٧ هـ/ ٢١ آب ١١٩١ م، وتتوالى هزائم المسلمين في بلاد الشام. فلبى النداء أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي، وأعد مائة وثمانين سفينة لمنع اتصال الصليبيين بين عكا وصور، وكان قبلاً يمنع السفن الصليبية من عبور مضيق جبل طارق الذي تحول إلى سد منيع في وجه أساطيل الصليبيين القادمة من إنكلترا وشمال فرنسا. وأكد المغرب أنه البوابة الغربية للوطن العربي الإسلامي بأسره.

ومن نتائج معركة الزلاقة أيضاً، انتهاء عصر ملوك الطوائف في الأندلس، فغلبت دولتان قدمتا من المغرب، فأخرتا سقوط الأندلس ١٦٣ سنة هجرية/ ١٥٨ سنة ميلادية، وهما المرابطون (٤٧٩ ـ ٥٤١ هـ/١٠٨٦ ـ ١١٤٧م) ثم الموحدون (٥٤١ ـ ٦٤٢ هـ/١١٤٧ ـ ١٢٤٤م). فمع سقوط اشبيلية حاضرة الموحدين سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م، سقطت الأندلس بأسرها، باستثناء مملكة غرناطة، كما سقطت مراكش حاضرة الموحدين في المغرب سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م، ليحل مكانهم بنو مرين. في حين تابع المماليك دور الأيوبيين في الجهاد، وأسسوا دولة خاصة بهم سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م، فأكملوا تحرير المشرق العربي الإسلامي نهائياً من الاحتلال الصليبي سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م.

سقطت الأندلس بأسرها، باستثناء غرناطة، لأن الانقسام بقي عميقاً في نفوس قادة العرب والبربر، رغم توحيد المغرب والأندلس على يد المرابطين ثم الموحدين. واستمر التناحر حول السلطة والنفوذ، والممالك المسيحية تغتنم ضعفهم وانقسامهم، وتسترد المدن والممالك واحدة بعد واحدة، حتى غلبوا المسلمين الذين انحصر ملكهم داخل رقعة صغيرة في جنوب شرق الأندلس، هي غرناطة، وقد أنجبت المؤرخ لسان الدين بن الخطيب الذي وضع أول تاريخ شامل للأندلس ضمن كتابه «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك من شجون الكلام»، محاولاً تفسير

الأحداث التاريخية بدراسة المظاهر الاقتصادية والاجتماعية في الأندلس. وهي محاولة جديدة وهامة في التأريخ، توجت مع صديقه ومعاصره ابن خلدون الذي وضع بعد أربع سنوات على وفاة ابن الخطيب سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م، المقدمة الشهيرة لتاريخه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر»، محاولاً فيها تفسير الأحداث التاريخية بالتعرف على العلل التي أدت إليها، وأسباب قيام الدول وسقوطها. وكل ذلك بفضل المحن والخطوب التي مرت بالمغرب والأندلس، فكانت حافزاً لقيام هذه المدرسة التاريخية الجديدة.

قاومت غرناطة السقوط وحدها طيلة قرنين ونصف القرن، حتى سقطت بدورها في يوم الإثنين أول ربيع الأول ٨٩٧ هـ/ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢م، لتسقط معها الأندلس وتضيع نهائياً، فتحولت إلى «الفردوس المفقود».

وبسقوط الأندلس النهائي، أطلق على العرب الذين لم يغادروا إسبانيا، إسم «الموريسك»، وهم المسلمون الذين أقاموا تحت حكم المسيحيين الإسبان، إلى أن طردوهم جميعاً سنة ١٠٢١ هـ/ ١٦١٢ م، باستثناء من تحول منهم إلى المسيحية في تلك الفترة من «التدجين» التي استمرت حوالى مائة وعشرين سنة (٨٩٧ ـ ١٠٢١ هـ/ ١٤٩٢ ـ ١٦١٢ م)، تحول معها جامع قرطبة «عاصمة الخلافة الأموية» إلى كنيسة سانتا ماريا العظمى. وقد شوه الإسبان هذا الأثر الإسلامي بإضافات وتغييرات أساسية، مع إقامة كاتدرائية قوطية الطراز بداخله، مما قضى على الوحدة المعمارية للجامع. وأبدى شارلكان Carlos Quinto أسفه حين شاهد هذا التشويه، وندم على موافقته على إجرائه في أثر فريد بين آثار الأندلس إن لم يكن بين آثار العالم أجمع. فقد ظهرت تأثيرات هذا الجامع في عمارة الكنائس المسيحية في إسبانيا المسيحية، مثل كنيسة المزان في قشتالية وكنيسة سان ميان دى لاكوجويا في ليون، ومنها انطلقت إلى جنوب فرنسا لتبدو واضحة في كنائس غاسكونيا وأكيتانيا

ونورماندیا. فلا غرو أن يعلن جامع قرطبة أثراً قومياً، يتوجب الحفاظ عليه، سنة ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٢ م.

وإذا كان جامع عمر بن عدبس في إشبيلية، قد هدم برمته لتبنى مكانه كنيسة سان سلفادور سنة ١١٢٤ هـ/ ١٧١٢ م، فقد اختفت معالم مدينة الزهراء، شمال غرب قرطبة، التي لم يبن مثلها في الإسلام، طيلة تسعة قرون، قبل أن يعثر على بقايا آثارها سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م، وبقايا القصر الجديد في قرطبة سنة ١٣١٢ هـ/ ١٩٤٣م. وكلاهما، مع مدينة مرسية، من إنجاز عبد الرحمن الثاني «الأوسط» الذي يعتبر أول من وضع أسس الحضارة الأندلسية. وإذا كانت مدينة الزاهرة، شمال شرق قرطبة، التي بناها المنصور محمد بن أبي عامر سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م، واندرست مع سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩م، فإن جامع القصبة الكبير في اشبيلية لا يزال حتى اليوم شاهداً على أهم إنجازات أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي منذ سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧٢ م، ولا تزال صومعة الجامع المعروفة اليوم باسم لاجيرالدا La Giralda تشير إلى بانيها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بطل الأرك سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م. كما لا يزال قصر الحمراء في غرناطة يمثل أبرز معالم العمارة العربية الإسلامية في الأندلس، وهو ينسب إلى ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة التي كانت آخر مملكة إسلامية تسقط في الأندلس.

وبسقوط الأندلس، خسر العرب المسلمون، أهم موقع استراتيجي وحضاري، يمثل البوابة الغربية لقارة أوروبا. فمن هذا الموقع، وبعد ثمانية أشهر على دخولها غرناطة، وافقت الملكة ايزابيلا على رحلة كريستوفر كولومبوس مع ثلاث سفن في يوم الجمعة ٨ شوال ٨٩٧ هـ/ ٣ آب ١٤٩٢ م، لعبور المحيط الأطلسي بهدف الوصول إلى الهند عن طريق الغرب وليس الشرق، تأكيداً لكروية الأرض. فإذا به يصل اليابسة بعد إبحار شهرين، وتحديداً يوم الثلاثاء ٩ ذي الحجة ٨٩٨ هـ/ ٢ تشرين الأول ١٤٩٢ م. ثم قام

بثلاث رحلات أخرى، توافد معها المستوطنون الإسبان إلى الأرض الجديدة، وتوفي فقيراً منسياً في حانة متواضعة في ڤالادوليد داخل إسبانيا في محرم ٩١١ هـ/ أيار ١٥٠٦ م، دون أن يعلم أنه اكتشف قارة جديدة هي أميركا.

فماذا كان حدث، لو استمرت الأندلس، وعاد الفضل في اكتشاف أميركا إلى أحد أمرائها العرب؟.

وأخيراً، فإن سقوط الأندلس بيد الإسبان المسيحيين يوم الإثنين أول ربيع الأول ٨٩٧ هـ/ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢م، وفتحه على يد العرب المسلمين قبل ثمانمائة سنة هجرية/ سبعمائة وست وسبعين سنة ميلادية، أي سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م، يشير إلى أن الفاتح الذي يصل إلى إحدى العدوتين: المغرب والأندلس، يحلم بسرعة بعبور بحر الزقاق «الضيّق»، أي مضيق جبل طارق، ليدخل العدوة الأخرى. فالوندال عندما وصلوا جنوب إسبانيا عبروا المضيق ليجتاحوا بلاد المغرب، وقبلهم سيطر الفينيقيون تجارياً على المغرب، فعبروا المضيق ليقيموا المستعمرات على سواحل إسبانيا. وكذلك فعل العرب المسلمون بعد فتح المغرب سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٩م، فقد عبروا المضيق وفتحوا الأندلس سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م، إلى أن استردها الإسبان وطردوا العرب المسلمين منها سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢م.

ولم تتوقف الحروب الصليبية، وإن تغير شكلها الخارجي إلى صورة الاستعمار في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. فقامت فرنسا، وهي التي دعمت حرب الاسترداد في إسبانيا، باحتلال المغرب العربي الكبير بأسره، باستثناء منطقة الريف، فدخلت الجزائر (المغرب الأوسط) سنة ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م، وتونس (المغرب الأدنى) سنة ١٢٩٨ هـ/ ١٨٨١ م، ومراكش أي المغرب اليوم (المغرب الأقصى) سنة ١٣٣٠ هـ/ ١٩١٢ م، ووضعت منطقة الريف تحت حماية إسبانيا. ورغم استقلال تونس والمغرب في رجب ١٣٧٥ هـ/ آذار ١٩٥٦ م، وإلغاء الحماية الإسبانية عن الريف في

٢٥ شعبان ١٣٧٥ هـ/ ٧ نيسان ١٩٥٦ م، ثم استقلال الجزائر في ٢٨ محرم ١٣٨٢ هـ/ أول تموز ١٩٦٢، فلا تزال سبتة ومليلة على ساحل المغرب بمثابة جيبين تحتلهما إسبانيا مع الجزر المجاورة مثل الجعفرية وبينون ڤيلزدى لاغوميرا وبينون الحسيمة حتى اليوم. وما زال المغرب يطالب بها، دون أن تتورع إسبانيا عن احتلال جزيرة ليلى (برخيل بالتسمية الإسبانية) يوم الأربعاء ٧ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ/ ١٧ تموز ٢٠٠٢م، وهي لا تبعد أكثر من مائة وخمسين متراً فقط عن ساحل المغرب. وبالمقابل فإن بريطانيا تحتفظ لنفسها بمستعمرة جبل طارق على الساحل الجنوبي لإسبانيا منذ أن احتلتها سنة ١١١٦ هـ/ ١٧٠٤ م، دون أن تتمكن إسبانيا من استردادها، وبذلك تحكمت بمضيق جبل طارق الذي عبرته، كما عبرت قناة السويس لتحتل مصر سنة ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٢ م، قبل سبعين سنة على تحررها مع ثورة الأربعاء أول ذي القعدة ١٣٧١ هـ/ ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ .

فهل ستعود سبتة ومليلة إلى المغرب العربي؟، وهل ستعود مستعمرة جبل طارق التي تحمل إسم فاتح الأندلس طارق بن زياد، ومعها الأندلس، إلى الوطن العربي؟.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر باللغة العربية

١ ـ ابن الآبار أبو عبد الله محمد بن أبي بكر عبد الله القضاعي (ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م).

- الحلة السيراء، ٢ جـ.

تحقيق حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٦٣ م.

٢ ـ إبن أبي دينار محمد بن أبي القاسم الرعييني القيرواني

- المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس.

تونس ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩ م.

٣ ـ ابن أبي زرع علي بن محمد الفاسي (النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي).

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ٢ جـ.

نشر تورنبرغ، أبسال ١٨٤٢ ـ ١٨٤٦م.

٤ ـ ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي الكرم الجزري (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م).

- الكامل في التاريخ، ١٣ جـ.

القاهرة ١٩٤٩ م، ودار صادر بيروت ١٩٦٦ م.

● أسد الغابة في معرفة الصحابة.

القاهرة ١٢٨٠ ـ ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٣ ـ ١٨٦٩ م.

٥ ـ ابن بسام — أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧م).

● الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جـ ٤.

القاهرة ١٩٤٥م.

٦ ـ ابن بطوطة — أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧م).

● تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف بـ «رحلة ابن بطوطة».

دار صادر ـ بيروت ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م.

٧ ـ ابن بلقين — الأمير عبد الله بن زيري الصنهاجي (توفي بعد سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠م).

● مذكرات الأمير عبد الله بن زيري المسماة «التبيين».

تحقيق ليڤي برڤنسال، القاهرة ١٩٥٥م.

٨ ـ ابن تغري بردى — أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠م).

● النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٣ جـ.

دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٦م.

٩ ـ ابن حزم — أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤م).

● جمهرة أنساب العرب.

تحقيق ليڤي بروڤنسال، القاهرة ١٩٤٨م.

١٠ ـ ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي النصيبي (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م)

- صورة الأرض.

ليدن ١٩٣٨، ودار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٩ م.

١١ ـ ابن حيان أبو مروان بن خلف القرطبي (ت ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م).

- المقتبس في تاريخ الأندلس.

باريس ١٩٣٧م.

١٢ ـ ابن خاقان الفتح (ت ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠م).

- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس.

قسنطينة ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤م.

١٣ ـ ابن الخطيب لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله التلمساني (ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م).

- الإحاطة في تاريخ غرناطة، جـ ١ .

تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٥٥م.

- أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك من شجون الكلام.

القسم الثاني: نشر ليڤي بروڤنسال ـ بيروت ١٩٥٦م.

القسم الثالث: تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ـ الدار البيضاء ١٩٦٤ م.

- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس.

تحقيق أحمد مختار العبادي ـ الإسكندرية ١٩٥٨ م.

- اللمحة البدرية في أخبار الدولة النصرية.

القاهرة ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٤ م.

١٤ ـ ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن جابر (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م).

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ٧ جـ.

طبعة بولاق ـ القاهرة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م، وطبعة دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٥٨ م.

١٥ ـ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ جـ.

القاهرة ١٩٤٨ م، ودار صادر بيروت (١٣٩٧ ـ ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ م).

١٦ ـ ابن الدلائي العذري أحمد بن عمر بن أنس (ت ٨٧٤ هـ/ ٩٨٨م)

- ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك.

نشر عبد العزيز الأهواني، مدريد ١٩٦٥ .

١٧ ـ ابن صاحب الصلاة عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي (توفي بعد سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٨م).

- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله

أئمة وجعلهم الوارثين، وظهور المهدي بالموحدين.

نشر عبد الهادي التازي ـ بيروت ١٩٦٤.

١٨ ـ ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي
(القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي).

- فتوح شمال أفريقيا وإسبانيا.

الجزائر ١٩٤٧ م.

- فتوح مصر وأفريقية والأندلس.

تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١ م.

١٩ ـ ابن عذارى المراكشي أبو العباس أحمد بن محمد
(توفي بعد سنة ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م).

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ٢ جـ.

تحقيق ليفي بروفنسال وكولان ـ بيروت ١٩٥٠.

٢٠ ـ ابن غالب الأندلسي

- فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس.

قطعة نشرها لطفي عبد البديع في مجلة معهد
المخطوطات العربية، سنة ١٩٥٦ م.

٢١ ـ ابن الفرضي أبو الوليد بن محمد الأزدي (ت ٤٠٣ هـ/ ١٠١٣ م).

- تاريخ علماء الأندلس، ٢ جـ.

مدريد.

٢٢ ـ ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري.

- الإمامة والسياسة، جـ ٢ .
النص الخاص بفتح الأندلس.

القاهرة ١٩٣٧.

٢٣ ـ ابن القوطية — أبو بكر محمد بن عمر القرطبي (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي).

- تاريخ افتتاح الأندلس.

تحقيق عبد الله الطباع. دار النشر للجامعيين ـ بيروت.

٢٤ ـ ابن كثير — أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣ م).

- البداية والنهاية، ١٤ جـ.

القاهرة ١٣٥١ ـ ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٩ م، ومكتبة المعارف ـ بيروت طبعة رابعة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

٢٥ ـ أبو شامة — أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي (ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م).

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٢جـ.

دار الجيل ـ بيروت (بدون تاريخ)، مصورة عن طبعة القاهرة ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ م.

٢٦ ـ الإدريسي — الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م).

- صفة المغرب والأندلس.

مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أو «الروجاري».

تحقيق رينهارت دوزي ودى غويه، ليدن ١٨٦٦ م.

٢٧ ـ البكري — أبو عبيد الله عبد الله بن العزيز المرسي (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م).

- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب.

نشر دى سلان، الجزائر ١٩١١ م.

٢٨ ـ البلاذري — أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م).

- فتوح البلدان، ٣ جـ.

تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧م.

٢٩ ـ البيذق — أبو بكر الصنهاجي (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)

- أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين.

تحقيق ليفي بروفنسال، باريس ١٩٢٨.

٣٠ ـ الحميدي — أبو عبد الله محمد بن فتوح.

- جذوة المقتبس في ذكر رجال الأندلس.

تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ١٣٧١ هـ/ ١٩٥١م.

٣١ ـ الحميري — أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي. (توفي أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)

- الروض المعطار في خبر الأقطار.

نشر ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧.

٣٢ ـ الخشني
أبو عبد الله محمد بن حارث (ت ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠م).
- تاريخ القضاة بقرطبة.

مدريد ١٩١٤م.

٣٣ ـ الضبي
أحمد بن يحيى بن عميرة (ت ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٣م).
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس.

دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م.

٣٤ ـ الطبري
أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م).
- تاريخ الرسل والملوك، ١١ جـ.

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠م.

٣٥ ـ الطرطوشي
أبو بكر (ت ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦م).
- سراج الملوك.

القاهرة ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م.

٣٦ ـ القلقشندي
أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جـ.

دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٧ م.

٣٧ ـ المالكي
أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله.
- رياض النفوس.

تحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥١ م.

٣٨ ـ مجهول
- الاستبصار في عجائب الأمصار (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).

نشر سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية ١٩٥٨.

- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم (القرن الرابع أو الخامس الهجري/ العاشر أو الحادي عشر الميلادي).

مدريد ١٨٦٧.

- الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية.

تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر ١٩٢٠ م.

- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (انتهى كتابته يوم الخميس ١٢ ربيع الأول ٧٨٣ هـ/ ١٣٨١م).

تونس ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٨ م.

- فتح الأندلس.

الجزائر ١٨٨٩ م.

- مفاخر البربر.

نشر ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٣٤ .

٣٩ ـ -المراكشي عبد الواحد بن علي.

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب (أي المغرب والأندلس معاً). كتبه سنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٤م.

تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة ١٩٤٩م.

٤٠ ـ المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م).

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.

ليدن ١٩٠٦ م، وبيروت ١٩٨٧م.

٤١ ـ المقري أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١م).

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ١٠ جـ.

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩م.

٤٢ ـ المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م).

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط).

بولاق، القاهرة ١٢٧٠ هـ/١٨٥٣م. ومطبعة الساحل ـ الشياح، بيروت ١٩٥٩م.

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ٣ جـ.

نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨م.

٤٣ ـ النباهي أبو الحسن بن عبد الله (توفي أواخر القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلادي).

- تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا.

تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٤٨م.

٤٤ ـ النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م).

- نهاية الأرب في فنون الأدب.

دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٣ م.

٤٥ ـ ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م).

- معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان، ٦ جـ. بيروت ١٩٧٩م.

٤٦ ـ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٠هـ/ ٨٩٣ م).

- البلدان

ليدن ١٨٩١ م.

ثانياً ـ المراجع باللغة العربية

١ ـ أحمد علي عبد اللطيف

- روما تاريخ الجمهورية والامبراطورية الرومانية، جـ١

القاهرة ١٩٥١.

٢ ـ أرسلان شكيب (ت ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٦ م).

- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ ٣.

دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٥٨ هـ.

٣ ـ أشباخ يوسف

- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين.

تعريب محمد عبد الله عنان.

٤ ـ البستاني

- دائرة المعارف جـ ٥.

٥ ـ بونسواسبريان فون فيلكس

- تاريخ مرسية زمن العرب.

المطبعة القومية، بالمه ١٨٤٣ م.

٦ ـ الدولاتلي عبد العزيز

- مسجد قرطبة وقصر الحمراء.

دار الجنوب، تونس ١٩٧٧ م.

٧ ـ زيدان جرجي

- تاريخ التمدن الإسلامي، ٢ جـ.

دار الحياة، بيروت (بدون تاريخ)

٨ ـ سارنلي كليكيا

- مجاهد العامري.

القاهرة ١٩٦١ م.

٩ ـ سالم السيد عبد العزيز

- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس.

دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١ م.

- المغرب الكبير، العصر الإسلامي.

القاهرة ١٩٦٦.

- تاريخ مدينة المرية الإسلامية.

دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩.

- قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس.

دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١.

١٠ ـ السلاوي شهاب الدين أبو العباس أحمد الناصري (ت ١٣١٥ هـ/١٨٩٧م).

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.
- القاهرة ١٣١٠ هـ/١٨٩٢م، والدار البيضاء ١٩٥٦م.

١١ ـ شبارو عصام

- تاريخ المشرق العربي الإسلامي.

دار الفكر اللبناني، بيروت. ١٩٩٩م.

١٢ ـ الصوفي خالد

- جمهورية بني جهور.

دمشق ١٩٥٩ م.

١٣ صيداوي حيان

- الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية.

دار المتنبي، باريس ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٢.

١٤ ـ طرخان إبراهيم علي

- دولة القوط الغربيين.

القاهرة ١٩٥٨.

١٥ ـ العبادي أحمد مختار

- في تاريخ المغرب والأندلس.

الإسكندرية ١٩٦٨.

- تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس.

بالاشتراك مع السيد عبد العزيز سالم.

دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩.

١٦ ـ عباس إحسان

- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة).

دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣.

- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين).

دار الثقافة، بيزوت ١٩٨١.

١٧ ـ عبد الحميد سعد زغلول

- العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور.

مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية م ٦ و٧ (١٩٥٨).

- تاريخ المغرب العربي، من الفتح حتى دول الأغالبة والرستميين والأدارسة.

القاهرة ١٩٦٤.

١٨ ـ العدوي إبراهيم أحمد

- موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي.

القاهرة.

١٩ ـ علام عبد الله علي

- الدولة الموحدية بالمغرب.

دار المعارف ـ مصر.

٢٠ ـ علي سيد أمير

- مختصر تاريخ العرب.

تعريب عفيف البعلبكي، بيروت ١٩٦١.

٢١ ـ عنان محمد عبد الله

- دولة الإسلام في الإندلس.

القاهرة، طبعة رابعة ١٩٦٩.

- دول الطوائف.

مكتبة الخانجي، طبعة ثانية ١٩٦٩.

- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين.

القاهرة، طبعة ثالثة ١٩٦٦.

- تراجم إسلامية شرقية وأندلسية.

القاهرة ١٩٤٧.

٢٢ ـ فرحات يوسف

- غرناطة في ظل بني الأحمر.

المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٨٢.

٢٣ ـ مختار باشا اللواء محمد (ت ١٣١٥ هـ/ ١٨٩٧ م).

- التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية، ٢ م.

تحقيق محمد عمارة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

٢٤ ـ مؤنس حسين

- فتح العرب للمغرب.

القاهرة ١٩٤٧.

• فجر الأندلس.

القاهرة ١٩٥٩.

٢٥ ـ نصر الله سعدون عباس

• دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين.

دار النهضة العربية، بيروت. طبعة أولى ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥.

ثالثاً ـ المراجع باللغة الإسبانية

1 - Aguado Bleye

- Manuel de la historia de Espana. T1.

  Madrid 1947.

2 - Codera Françisco

- Narbona, Gerona y Barcelona bajo la dominacion Musulmana, en Estudios Criticos de la Historia Arabe espanôla.

  Madrid 1917.

- Limites probables de la conquista arabe en la cadillera pirenaica.

  Madrid 1917.

3 - Fray justo de Urbel

- Sancho el Mayor de Navarra.

  Madrid 1950.

4 - Jimenez Manuel Ocana

- La Basilica de San Vicente y la gran Mezquita de Côrdoba, Al - Andalus.

1942.

5 - Miranda Ambrosio Huici

- la invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaka.
  Hesperis, 1 - 2 trimstres. T9, 1953.

6 - Palencia Gonzalez

- Historia de Espana Musulmana.
  coleccion Labor, Madrid 1945.

7 - Rubio Julian Mario

- La Espana Visigoda', en Historia de Espana, T2.
  Barcelona 1932.

8 - Saavedra Edouardo

- Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana.
  Madrid 1892.

9 - Simonet Francisco Javier

- Historia de los Mozarabes de Espana.
  Madrid 1897.

رابعاً ـ المراجع باللغة الفرنسية

1 - Dosy Reinhart

- Histoire des Musulmans d'Espagne. 3 V.
  Leyde 1932.

2 - Julien André

- Histoire de l'Afrique du Nord (Jusqu'à la Conquête arabe).
  Paris 1951.
- Histoire de l'Afrique du Nord (depuis la conquête arabe).
  Paris 1952.

3 - Lambert Elie

- Les mosquées de type Andalous en Espagne et en Afrique du Nord, al - Andalus.
  Paris 1949.

4 - Levi - Provençal (E)

- La Civilisation Arabe en Espagne.
  Paris 1948.
- Histoire de l'Espagne musulmane, 3T.
  Leiden - Paris 1950.
- Inscriptions Arabes d'Espagne (Textes).
  Leiden - Paris 1931.

5 - Marçais Georges

- L'architecture musulmane d'Occident.
  Paris 1954.

6 - Mercier et Seguin

- Charls Martel et la bataille de Poitiers.
  Paris 1944.

7 - Michaud

- Histoire des Croisades, V 4.
  Paris 1958.

8 - Terrasse Henri

- Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français. 2T.
  Casablanca 1949.

ملحق رقم ١

ولاة الأندلس

(٩٥ ــ ١٣٨ هـ/ ٧١٤ ــ ٧٥٦ م)

١ ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير	٩٥ هـ/ ٧١٤م
٢ ـ أيوب بن حبيب اللخمي	٩٨ هـ/ ٧١٧ م.
٣ ـ الحر بن عبد الرحمن الثقفي	٩٨ هـ/ ٧١٧ م.
٤ ـ السمح بن مالك الخولاني	رمضان ١٠٠ هـ/ نيسان ٧١٩ م.
٥ ـ عنبسة بن سحيم الكلبي	صفر ١٠٣ هـ/ آب ٧٢١ م
٦ ـ عذرة بن عبد الله الفهري	١٠٧ هـ/ ٧٢٥ م.
٧ ـ يحيى بن سلمة الكلبي	ربيع الأول ١١٠ هـ/ حزيران ٧٢٨ م.
٨ ـ حذيفة بن الأحوص الأشجعي	
٩ ـ عثمان بن أبي نسعة الخثعمي	
١٠ ـ الهيثم بن عبيد الكناني	١١١ هـ/ ٧٢٩ م.
١١ ـ محمد بن عبد الله الأشجعي	
١٢ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	١١٣ هـ/ ٧٣١ م.
١٣ ـ عبد الملك بن قطن الفهري	المرة الأولى ١١٤ هـ/ ٧٣٢م والثانية ١٢١ هـ/ ٧٣٩م.
١٤ ـ عقبة بن الحجاج السلولي	رمضان ١١٦ هـ/ تشرين الأول ٧٣٤م.
١٥ ـ بلج بن بشير القشيري	١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م.
١٦ ـ ثعلبة بن سلامة العاملي	١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م.
١٧ ـ أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	رجب ١٢٥ هـ/ أيار ٧٤٣ م.
١٨ ـ ثوابة بن سلامة الجذامي	١٢٨ هـ/ ٧٤٥ م.
١٩ ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهري	١٢٩ هـ/ ٧٤٧ م.

ملحق رقم ٢

الأمراء الأمويون في الأندلس
(١٣٨ ــ ٣١٦ هـ/ ٧٥٦ ــ ٩٢٩ م)

١ ـ عبد الرحمن الأول «الداخل»	١٣٨ هـ/ ٧٥٦ م.
٢ ـ هشام الأول «الرضا»	١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م.
٣ ـ الحكم الأول «الربضي»	١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م.
٤ ـ عبد الرحمن الثاني «الأوسط»	٢٠٦ هـ/ ٨٢٢ م.
٥ ـ محمد الأول	٢٣٨ هـ/ ٨٥٢ م
٦ ـ المنذر بن محمد	٢٧٣ هـ/ ٨٨٦ م
٧ ـ عبد الله بن محمد	٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م
٨ ـ عبد الرحمن الثالث	٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م.



ملحق رقم ٣

الخلفاء الأمويون في الأندلس
(٣١٦ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٢٩ ـ ١٠٣١ م)

١ ـ عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»	٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م.
٢ ـ الحكم الثاني «المستنصر»	٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م.
٣ ـ هشام الثاني «المؤيد»	٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م.
٤ ـ محمد الثاني «المهدي»	٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م.
٥ ـ سليمان «المستعين»	٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م.
٦ ـ عبد الرحمن الرابع «المرتضى»	٤٠٨ هـ/ ١٠١٨ م.
٧ ـ عبد الرحمن الخامس «المستظهر»	٤١٤ هـ/ ١٠٢٣ م.
٨ ـ محمد الثالث «المستكفي»	٤١٤ هـ/ ١٠٢٤ م.
٩ ـ هشام الثالث «المعتد»	٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م.

ملحق رقم ٤

ملوك غرناطة

(٦٣٥ ــ ٨٩٧ هـ/١٢٣٧ ــ ١٤٩٢ م)

١ ـ محمد الأول «ابن الأحمر»	٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧م.
٢ ـ محمد الثاني «الفقيه»	٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣م.
٣ ـ محمد الثالث «أبو عبد الله»	٧٠١ هـ/ ١٣٠١م.
٤ ـ نصر بن محمد	٧٠٨ هـ/ ١٣٠٨م.
٥ ـ إسماعيل الأول	٧١٣ هـ/ ١٣١٣م.
٦ ـ محمد الرابع	٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥م.
٧ ـ يوسف الأول	٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢م.
٨ ـ محمد الخامس	المرة الأولى ٧٥٥ هـ/ ١٣٥٤م. والمرة الثانية ٧٦٢ هـ/ ١٣٦١م.
٩ ـ إسماعيل الثاني	٧٦٠ هـ/ ١٣٥٩م.
١٠ ـ يوسف الثاني	٧٩٣ هـ/ ١٣٩١م.
١١ ـ محمد السادس «الغني بالله»	٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣م.
١٢ ـ يوسف الثالث	٨١٠ هـ/ ١٤٠٧م.
١٣ ـ محمد السابع «الأيسر»	٨٢٠ هـ/ ١٤١٧م.
١٤ ـ سعيد بن إسماعيل	٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤م.
١٥ ـ أبو الحسن علي «الغالب بالله»	المرة الأولى ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣م والمرة الثانية ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣م
١٦ ـ أبو عبد الله محمد بن سعد «الزغل»	٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥م.
١٧ ـ أبو عبد الله محمد «ابن الحرة»	المرة الأولى ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢م. والمرة الثانية (٨٩٢ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٤٨٧ ـ ١٤٩٢م)

١ ـ الأعلام

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

٢ ـ الأماكن

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)



٣ ـ الشعوب والقبائل والطوائف

٤ ـ الأنهار


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

٥ ـ البحار



٦ ـ الجزر.

٧ ـ الجبال



٨ ـ الوديان



٩ ـ الخلافة

١٠ ـ الممالك

١١ ـ الدول

١٢ ـ الإمارات



١٣ ـ الدويلات

١٤ ـ المعارك

١٥ ـ الجوامع



١٦ ـ الكنائس والأديرة



١٧ ـ القصور



١٨ ـ الحصون

١٩ ـ القلاع

٢٠ ـ الأسوار

بطليوس: ٢٥١ .

سوسة: ٣٣.

قرطبة: ١٢٢.



٢١ ـ الأبواب

٢٢ ـ القناطر

أستجة: ١٩٨، ٢٠٠.

طليطلة: ٢٠٠، ٢٢٢.

قرطبة: ٧٩، ١٨٠، ١٩٨، ٢٠٠.

٢٣ ـ الثغور

٢٤ ـ الخرائط

٢٥ ـ الصور




www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

محتويات تاريخ الأندلس

الفصل الرابع

العصر الذهبي لإمارة الأندلس

الفصل السابع

الفصل الحادي عشر

المرحلة السادسة

الفصل الثاني عشر


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

أعمال المؤرخ

(أ) تاليف:

١ ـ **القضاء والقضاة في الإسلام «العصر العباسي»** (٣٩٤ صفحة).

دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٣.

٢ ـ **تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين** (٣٤٢ صفحة).

دار مصباح الفكر ـ بيروت ١٩٨٦.

٣ ـ **قاضي القضاة في الإسلام** (٣٦٩ صفحة).

طبعة أولى ـ دار مصباح الفكر ـ بيروت ١٩٨٨،
وطبعة ثانية ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٩٢.

٤ ـ **المقاومة الشعبية المصرية للإحتلال الفرنسي والغزو البريطاني** (١٧٩٨ ـ ١٨٠٧) (١٧٥ صفحة).

دار التضامن ـ بيروت ١٩٩١.

٥ ـ **الدولة العربية الإسلامية الأولى** (١ ـ ٤ هـ/ ٦٢٣ ـ ٦٦١ م) (٣٦٠ صفحة).

دار الأمان ـ طبعة أولى ١٩٩٢، وطبعة ثانية ١٩٩٣،
ودار النهضة العربية ـ بيروت ـ طبعة ثالثة ١٩٩٥.

٦ ـ **السلاطين في المشرق العربي ـ السلاجقة والأيوبيون** (٤٤٧ ـ ٦٤٨ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٠ م) (٣٢٠ صفحة).

دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٩٤.

٧ ـ **السلاطين في المشرق العربي ـ المماليك** (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م) (٢٦٤ صفحة).

دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٩٥.

٨ ـ **الشهيد عبد الكريم الخليل، الزعيم السري للحركة العربية** (١٩٠٨ ـ ١٩١٥) (٢٣٢ صفحة).

مطبعة آل الخليل ـ بيروت ١٩٩٦.

٩ ـ **بيروت البعد الثقافي لإعمار وسط المدينة ـ مع آخرين** (١٢٠ صفحة).

اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة «الأونيسكو» بيروت ١٩٩٦.

١٠ ـ **مبنى حوض الولاية ـ تاريخ وذكرى** (١٨٨٨ ـ ١٩٩٧) (١٢٠ صفحة).

دار مصباح الفكر ـ بيروت ١٩٩٧.

١١ ـ **القدس وتحديات التهويد ـ مع آخرين** (١٦٠ صفحة).

المركز الوطني للدراسات ـ بيروت ١٩٩٨.

١٢ ـ **تاريخ المشرق العربي** «١٠٥٥ ـ ١٥١٦ م» (٥٢٦ صفحة).

دار الفكر ـ بيروت ١٩٩٩.

١٣ ـ **عين المريسة ـ صفحة مشرقة من تاريخ بيروت ودور وطني قومي لا يموت** (٨١٦ صفحة).

دار مصباح الفكر ـ بيروت ١٩٩٩.

١٤ ـ **جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت** (١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠) (٤٩٨ صفحة).

دار مصباح الفكر ـ بيروت ٢٠٠٠.

١٥ ـ **الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود** (٧١٠ ـ ١٤٩٢) (٣٩١ صفحة).

دار النهضة العربية ـ بيروت.

(ب) تحقيق:

١ ـ **ثورة العرب ضد الأتراك: مقدماتها ـ أسبابها ـ نتائجها**، بقلم أحد أعضاء الجمعيات العربية السرية.

دار مصباح الفكر ـ بيروت ١٩٨٧ (٣٦٤ صفحة).

ودار التضامن ـ بيروت ١٩٩٣ .

٢ ـ **الأخبار السنية في الحروب الصليبية**، سيد علي الحريري (٣٢٨ صفحة).

دار الكتاب الحديث ودار التضامن ـ بيروت ١٩٨٨.

٣ ـ **المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار**، عبد الرحيم الجوبري (١٧٤ صفحة).

دار التضامن بيروت ١٩٩٢.

٤ ـ **تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب**، ابن المرزبان (١٤٨ صفحة).

دار التضامن ـ بيروت ١٩٩٣.

(جـ) قيد الطبع:

١ ـ **المطول في تاريخ بيروت ـ خمسة عشر جزءاً** (٨٠٠٠ صفحة و٢٠٠٠ صورة).